دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد الرابع

إعداد

جعفر شرف الدّين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

الأستاذ أحمد حاطوم   د. محمد توفيق أبو علي

سورة يونس

١٠

أهداف سورة «يونس» [١]

نزلت سورة يونس بعد سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السور التي نزلت بين الإسراء والهجرة ، فهي سورة مكية من أواخر ما نزل من القرآن بمكّة.

وقد سمّيت بهذا الاسم لذكر قصة يونس فيها ، وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية.

أهدافها الإجمالية

موضوعات هذه السورة هي موضوعات السور المكّيّة الغالبة ، وهي الجدل حول مسائل العقيدة والتوجيه إلى آيات الله الكونية ، وسنن الله في الأرض ، والعظة بالقرون الخوالي ومصائرها ، وعرض بعض القصص من هذا الجانب الذي تبرز فيه العظة واللمسات الوجدانية ، التي تنتقل بالإنسان من آيات الله في الكون إلى آياته في النفس ، إلى مشاهد القيامة المؤثّرة ، إلى قصص الماضين ومصائرهم ، كأنها جميعا حاضرة معروضة للأنظار.

وهذه السورة تتضمن شيئا من هذا كله ، وينتقل السياق فيها من غرض إلى غرض ، بمناسبات ظاهرة أو خفيّة بين مقاطعها ، ولكن جوهرها كلّه هو هذا الجوّ ، حتّى ليصعب الفصل بين مقطع ومقطع فيها ، في أغلب الأحيان.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها» ، لعبد الله محمود شحاته ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

الدرس الأول :

مظاهر قدرة الله

يبدأ القسم الأول من السورة بأحرف ثلاثة هي ألف ، لام ، راء ، كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران بأحرف مشابهة ، ذكر العلماء أنها أسماء للسورة أو إشارة إلى أسماء الله تعالى وصفاته ، أو هي لبيان إعجاز القرآن الكريم ، أو هي مما استأثر الله تعالى بعلمه. ثم تأخذ السورة في عرض عدة أمور ، هي بيان حكمة القرآن وطريقته في تنبيه الغافلين إلى تدبّر آيات الله سبحانه ، في صفحة الكون وتضاعيفه : في السماء والأرض ، وفي الشمس والقمر ، وفي الليل والنهار ، وفي مصارع القرون الأولى ، وفي قصص الرسل فيهم ، وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود.

ثم تشرح السورة ، الحكمة في الإيحاء إلى رجل من البشر ، يعرفه الناس ويطمئنون إليه ، ويأخذون منه ، ويعطونه ، بلا تكلّف ولا جفوة ولا تحرّج ، وتذكر الحكمة من إرسال الرسل.

فالإنسان بطبعه مهيّأ للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز. ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائما كلما اختلط عليه الأمر وأحاطت به الشبهات وجذبته التيارات والشهوات. وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعته.

وتلفت سورة ، النظر إلى خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر فيهما ، وإظهار قدرة الله تعالى :

﴿الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ﴾ [الآية ٥].

وقدر اختلاف الليل والنهار ، وخلق هذا ودبّره ، فهو سبحانه الذي يليق أن يكون ربّا يعبد ، ولا يشرك به شيء من خلقه.

إن هذا الليل المظلم ، الساكن إلّا من دبيب الرؤى والأشباح ، وهذا الفجر المتفتّح في نهاية الليل كابتسامة الوليد ، وهذه الحركة التي يتنفس بها الصبح فيدب النشاط في الحياة والأحياء ، وهذا الطير الرائح الغادي القافز الواثب الذي لا يستقر على حال ، وهذا النبت النامي المتطلع أبدا إلى النمو والحياة ، وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة في تدافع وانطلاق ، وهذه الأرحام التي تدفع ، والقبور التي تبلع ، والحياة ماضية في طريقها كما شاء الله.

إن هذا الحشد من الصور والأشكال ، والحركات والأحوال والرواح والذهاب والبلى والتجدد والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة في هذا الكون الهائل التي لا تنسى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار. إن هذا كله ليستنهض كل همة في كيان البشر ، للتأمل والتدبر والتأثر ، حتى يستيقظ القلب ويتفتح لمشاهدة الآيات المبثوثة في ظواهر الكون وحناياه. والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب ، لتدبّر هذا الحشد من الصور والآيات ، وتأمل قدرة الله في اختلاف الليل والنهار ، بالطول والقصر ، فيطول الليل في الشتاء ، ويقصر في الصيف ، ويطول النهار في الصيف ، ويقصر في الشتاء. ووراء كل إبداع يد الله القدير ، الذي رفع السماء وزيّنها بالنجوم وحفظها من التصدع والوقوع ، وبسط ، سبحانه ، الأرض وثبّتها بالجبال ، وزيّنها بالنبات ، وأحياها بالأمطار.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (٦).

الدرس الثاني :

الأدلة على وجود الله

يستهل الدرس الثاني من سورة يونس ، بإعلان جزاء المؤمنين ، وعاقبة المكذبين ، حيث يقول سبحانه :

﴿أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾ ([الآية ٢٦].

فالجزاء الحق من جنس العمل ، فمن عمل صالحا في الدنيا ، أدخله الله الجنّة ومتّعه بالطيّبات ، ونجّاه من النار.

ثم تستمر الآيات في بيان عقوبة المكذّبين ، وجزاء الخائنين ؛ وتسوق السورة عددا من الأدلة والبراهين تنتهي كلها إلى هدف واحد ، هو إشعار النفس بتوحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر ، والقسط في الجزاء.

تلمس الأدلة أقطار النفس ، وتأخذ بها إلى آفاق الكون في جولة واسعة شاملة ، جولة من الأرض إلى السماء ، ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس ، ومن ماضي القرون إلى حاضر البشر ، ومن الدنيا إلى الآخرة.

وقد لا حظنا في الدرس الماضي لمسات من هذه ، ولكنها في هذا الدرس أظهر. فمن معرض الحشر ،

إلى مشاهد الكون ، إلى ذات النفس ، وإلى التحدي بالقرآن ، إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين ، ومن ثم لمحة عابرة عن الحشر في مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب ، وإلى تصوير علم الله الشامل الذي لا يندّ عنه شيء ، إلى بعض آيات الله في الكون ، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب.

إنها مجموعة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك نفس سليمة التلقي ، صحيحة الاستجابة ألّا تستجيب لها ، وألّا تتذاوب الحواجز والموانع فيها ، دون هذا الفيض من المؤثّرات المستمدة من الحقائق الواقعة ، ومن فطرة الكون وفطرة النفس ، وطبائع الوجود. لقد كان الكفّار صادقين في إحساسهم بخطر القرآن على صفوفهم ، وهم يتناهون عن الاستماع إليه ، خيفة أن يجرفهم بتأثيره ويزلزل قلوبهم ، وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين.

وإن سورة واحدة كهذه ، أو بعض سورة ، لتحمل من المؤثرات النفسية والعقلية ، ما لا يحمله جمع كبير من قوى الشرك والانحراف والفسوق.

لقد أخذ القرآن على النفوس كل مسلك ، ليسير بها نحو الإيمان ، وساق إليها أدلّة محسوسة ملموسة حيث يقول سبحانه :

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ٣١].

من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع ومن طعام الأرض ونباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها ؛ فمن سطح الأرض أرزاق ، ومن أعماقها أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ، ومن ضوء القمر أرزاق ، حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ﴾ [الآية ٣١].

يهبهما القدرة على أداء وظائفهما أو يحرمهما ، ويصحّحهما أو يمرضهما ويصرفهما إلى العمل أو يلهيهما. وإن تركيب العين وأعصابها ، وكيفية إدراكها للمرئيات ، أو تركيب الأذن وأجزائها ، وطريقة إدراكها للذبذبات ، لعالم وحده يدير الرؤوس عند ما يقاس هذا الجهاز أو ذاك ، إلى أدق الأجهزة التي يعدّها الناس ، من معجزات العلم الحديث.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ﴾ [الآية ٣١].

أي النور من الظلام ، والظلام من النور ؛ والنهار من الليل ، والليل من النهار ؛ والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والنبتة من الحبة ، والحبة من النبتة ؛ والفرخ من البيضة ، والبيضة من الفرخ ... إلى آخر هذه المشاهدات العجيبة ، وإلّا فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟ وأين كان يكمن العود ، وأين كانت الجذور والساق والأوراق؟.

﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾

كله في هذا الذي ذكر ، وفي سواه من شؤون الكون وشؤون البشر؟ من يدبّر الناموس الكوني الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق؟ ومن يدبر السنن الاجتماعية التي تصرف حياة البشر.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (٣١).

أفلا تخشون الله الذي يرزقكم من السماء والأرض ، والذي يملك السمع والأبصار ، والذي يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ، الذي يدبّر الأمر كله في هذا وفي سواه.

﴿فَذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُ﴾ [الآية ٣٢].

هو سبحانه صاحب الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين.

الدرس الثالث :

قصص الأنبياء

اشتملت الآيات (٧١ . ٩٣) من سورة يونس على ذكر طرف من قصة نوح (ع) مع قومه وقصة موسى (ع) مع فرعون وملئه. وقد تحقق فيهما عاقبة المكذّبين ، وهلاك المخالفين لأوامر الله وهدى رسله ، والقصص في القرآن يجيء في السياق ليؤدي وظيفة فيه ، ويتكرّر القصص في المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه من السياق والحلقات التي تعرض منه في موضع تفي بحاجة ذلك الموضع. وتلاحظ فيما عرض من قصتي نوح وموسى (ع) هنا ، وفي طريقة العرض ، مناسبة ذلك لموقف المشركين في مكّة من النبي (ص) والقلة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها في وجه الكثرة والقوة والسلطان ، كما تلحظ المناسبة الواضحة بين القصص والتعقيبات التي تتخلله وتتلوه.

قصة نوح

بدأت قصة نوح (ع) من الحلقة الأخيرة ، حلقة التحدي الأخير بعد الإنذار الطويل والتذكير والتكذيب ،

ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ولا التفصيلات الواردة في سور أخرى. لأن الهدف هنا هو إبراز التحدي الذي واجه نوحا (ع) من قومه ، واستعانته بالله تعالى ، ونجاته ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة. لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة التي يقصها إلى حلقة واحدة ، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة وهي نجاة نوح (ع) ومن آمن معه في السفينة واستخلافهم في الأرض على قلّتهم ، وإغراق المكذبين على قوّتهم وكثرتهم. قال تعالى :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٣).

وأما قصة موسى (ع) ، فيبدأه السياق من مرحلة التكذيب والتحدي ، وينهيها عند غرق فرعون وجنوده ، وإذا كانت قصة نوح (ع) قد ذكرت في أربع آيات فقط ، هي الآيات [٧١ ـ ٧٤] من سورة يونس ، فإن قصة موسى (ع) قد ذكرت على نطاق أوسع خلال ثماني عشرة آية ، هي الآيات [٧٥ ـ ٩٣].

وقد ألمت قصة موسى بالمواقف ذات الشبه ، بموقف المشركين في مكة من الرسول (ص) وموقف القلّة المؤمنة التي معه. وهذه الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى (ع) ، مقسّمة إلى ثلاثة مواقف يليها تعقيب يتضمّن العبرة من عرضها في هذه السورة ، على النحو الذي عرضت به. وهذه المواقف الثلاثة تتابع في السياق على هذا النحو :

أولا : وصول موسى (ع) إلى فرعون ومعه آيات تسع ذكرت في سورة الأعراف ، ولكنها لم تذكر في سورة يونس ، ولم تفصّل لأن السياق لا يقتضيها ، والإجمال في هذا الموضع يغني ، والمهم هو تلقي فرعون وملئه لآيات الله ، لقد استقبلوها بالظلم والاستكبار قال تعالى :

﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٦) ادّعى فرعون أن معجزة موسى سحر ظاهر ، وجمع له كبار السحرة ، وأرادوا أن يغرقوا الجماهير في صراع السحر ،

بأن تعقد حلقة للسحر يتحدّون بها موسى ، وما معه من آيات ، تشبه السحر في ظاهرها ، ليخرجوا منها في النهاية بأن موسى ليس إلا ساحرا ماهرا.

والموقف الثاني موقف المبارزة بين السحرة وموسى (ع) ، فقد ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم ، وتحركت الحبال والعصيّ فبهرت جميع الناس وأرهبتهم ، ثم ألقى موسى عصاه في الأرض ، فانقلبت حية هائلة لها شفتان طويلتان ، شفة في الأرض تبتلع جميع الحبال والعصيّ التي ألقاها السحرة ، وشفة مرفوعة إلى أعلى. ثم أمسك موسى (ع) بعصاه فعادت كما كانت ، وبطل السحر وعلا صوت الحق. ولكن السياق يختصر المشاهد هنا لأنها ليست مقصودة في هذا المجال ، ويسدل الستار ليرفع على موسى (ع) ومن آمن معه وهم قليل ، وهذه إحدى عبر القصة المقصودة :

﴿فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [الآية ٨٣].

وفي هذا الموضع تفيد الآيات ، أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم إلى موسى (ع) من بني إسرائيل ، كانوا هم الفتيان الصغار لا مجموعة الشعب الإسرائيلي ، وأنهم تعرضوا للارهاب من فرعون ، ولكن موسى ثبّتهم على الإيمان ، ودعا موسى ربه أن ينجي المؤمنين ، وأن يهلك الكافرين ، فاستجاب الله دعاءه ، وجاء الموقف الحاسم. والمشهد الثالث والأخير في قصة التحدي والتكذيب ، هو غرق الطغاة الظالمين ، ونجاة من آمن بالمرسلين.

* * *

ترابط الآيات في سورة «يونس» [1]

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة يونس بعد سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السّور التي نزلت بين الإسراء والهجرة.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة يونس (ع) فيها ، وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن ، وهي في هذا تنقسم إلى أربعة أقسام : أولها في إبطال شبههم عليه ، وثانيها في تحديهم به ، وثالثها في دعوتهم إلى تصديقه بطريق الترغيب والترهيب ، ورابعها في خاتمة تناسب مقام هذه السورة.

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة التوبة لأنها ختمت كما سبق بترغيبهم في الإيمان برسول جاءهم من أنفسهم ، وقد ابتدأت هذه السورة بإنكار تعجّبهم من أن يوحى إلى رجل منهم ، وهذا إلى أن هذه السورة أولى السّور المئين ، وهي التي تأتي في الترتيب بعد السبع الطوال.

إبطال شبههم على القرآن

الآيات [١ ـ ٣٦]

قال تعالى : ﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) فأقسم بهذه الحروف أن ما أنزله هو آيات الكتاب الحكيم ، ثم

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن» ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب بالجمايز. المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

ذكر شبهتهم الأولى على تنزيله ، وهي استنكارهم أن ينزل على رجل منهم ، لينذرهم بما جاء فيه من البعث والعقاب والثواب ، وزعمهم أن هذا سحر باطل لا حقيقة له ؛ ثم أجابهم بإثبات قدرته على بعثهم وعقابهم وثوابهم ، فذكر ، سبحانه ، أنه هو ربهم الذي خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش يدبر أمره وحده ، ولا يشفع أحد عنده إلّا بإذنه ؛ ولا بدّ من رجوعنا إليه ليجزي المؤمنين بالقسط ، ويعاقب الكافرين على كفرهم ؛ ثم ذكر أنه هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لنعلم عدد السنين والحساب ، وأن في اختلاف الليل والنهار ، وما خلقه في السماوات والأرض لآيات لقوم يتّقون. ثم أوعد الذين لا يؤمنون بلقائه بأن مأواهم النار ، ووعد المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار في جنات النعيم ﴿دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (١٠).

ثم ذكر ، جلّ شأنه ، أنه لو يعجّل لهم العقاب في الدنيا ، كما يعجل لهم الخير فيها ، لعجل بهلاكهم ، ولكنه لم يرد هذا ليذرهم في طغيانهم يعمهون. ويكون عقابهم ، بعد إمهالهم ، قطع عذرهم ؛ ثم ذكر أنه إذا مس الإنسان ضرّ ، من جنس ما ينذر به دعاه إلى كشفه ، فإذا كشفه عنه ، عاد إلى كفره ونسي دعاءه له ، ليثبت بهذا أن تعجيل العذاب لهم لا يؤثّر فيهم ؛ ثم ذكر أنه قد عجل العذاب لمن كفر قبلهم ، فلم يؤمنوا وأصرّوا على كفرهم ، وأنه جعلهم خلائف في الأرض ، من بعدهم ، لينظر كيف يعملون.

ثم ذكر تعالى شبهتهم الثانية على تنزيل القرآن ، وهي أنهم إذا تتلى عليهم آياته ، يطلبون أن يأتيهم بقرآن غير هذا ، أو يبدله لهم ، ثم أمره أن يجيبهم بأنه لا يمكنه أن يفعل ذلك من نفسه ، لأنه لا يتّبع إلّا ما يوحى إليه ، ويخاف عذاب يوم عظيم إن عصى ربه ، وبأنه قد لبث فيهم عمرا من قبله ، لا يتلو عليهم كتابا ولا يجلس إلى معلّم ، فلا يمكن أن يكون هذا القرآن منه ؛ ثم ذكر أنه لا يوجد أظلم ممّن افترى عليه كذبا أو كذّب بآياته كما يفعلون ، وأوعدهم على هذا ، بأنهم لا يفلحون ؛ ثم ذكر أنهم يعبدون ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ، ويزعمون أنهم شفعاؤهم عنده ،

فيمنعون ما يوعدون به من ذلك ، وأمره أن يجيبهم بأنهم يخبرونه بشفعاء لا يعلمها في السماوات ولا في الأرض ؛ وذكر أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد ، فاختلفوا فيه بعد اتفاقهم ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩).

ثم ذكر شبهتهم الثالثة على تنزيل القرآن ، وهي طلبهم آية عذاب تدل على تنزيله ، ثم أمره أن يجيبهم بأن هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلّا هو ، وأمرهم أن ينتظروه لأنه ينتظره ولا يشك في وقوعه ؛ ثم ذكر أنه إذا آتاهم بآية عذاب ، ثم أذاقهم رحمة بعدها ، مكروا فيها ولم يؤمنوا بها ، فهكذا يكون حالهم إذا أجيبوا إلى ما طلبوه منها ، وهدّدهم على ذلك بأنه أسرع مكرا منهم. وبأن رسله يكتبون ما يمكرون ليحاسبهم عليه ؛ ثم ضرب لهم مثلا على مكرهم في هذا ، فذكر أنه هو الذي يسيّرهم في البر والبحر ، حتّى إذا كانوا في الفلك ، وجرت بريح طيّبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنّوا أنهم أحيط بهم دعوه مخلصين ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢) فلما أنجاهم عادوا إلى بغيهم ونسوا دعاءهم له ؛ ثم ذكر أن بغيهم لا يعود إلا على أنفسهم ، وأنهم يتمتعون به في هذه الحياة ثم إليه مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ، ثم ضرب لهم مثلا في شأن هذه الدنيا التي يبغون فيها وينسون الآخرة معها ؛ فذكر أن مثلها كماء أنزله من السماء فاختلط به نبات الأرض ، حتى إذا أخذت به زخرفها ﴿وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها﴾ [الآية ٢٤] ، أتاها أمره ليلا أو نهارا فجعلها حصيدا كأن لم تكن بالأمس ؛ ثم ذكر أنه يدعو إلى دار السلام التي لا يزول نعيمها كما يزول نعيم الدنيا ، وأنه يهدي من يشاء إلى طريق يوصل إليها ، وأن للذين أحسنوا في دنياهم الحسنى في تلك الدار وزيادة ، والذين كسبوا السيئات جزاؤهم سيئة فيها بمثل سيئاتهم ؛ ثم أمره أن يذكر لهم يوم يحشرهم جميعا ، ثم يأمرهم أن يلزموا مكانهم هم وشركاؤهم ، فيقطع بينهم ويتبرأ شركاؤهم من عبادتهم ، ويشهدون الله على أنهم كانوا عنها غافلين ؛ ثم ذكر أنه هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، ويردّون إليه وحده ، ويضل عنهم آلهتهم.

ثم أمره أن يسألهم من يرزقهم من السماء والأرض؟ ومن يملك السمع والبصر؟ ومن يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحي؟ ومن يدبّر الأمر؟ وذكر أنهم سيقولون الله ، وأنه يجب عليهم حينئذ أن يتّقوه ، وأن من يكون هذا شأنه يكون ربّهم الحق ، وأنه ليس بعد الحق إلّا الضلال فإنّى يصرفون ؛ ثم أمره أن يسألهم هل من شركائهم من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ وأن يجيب عنهم بأنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده فإنّى يؤفكون ، ثم أمره أن يسألهم هل من شركائهم من يهدي إلى الحق؟ وأن يجيب عنهم بأنه سبحانه هو الذي يهدي للحق ، وحينئذ يكون هو الأحق بأنّ يتّبع ممّن لا يهدي إلّا أن يهدى فما لهم كيف يحكمون ﴿وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦).

تحديهم بالقرآن

الآيات [٣٧ . ٥٦]

ثم قال تعالى : ﴿وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٣٧) فانتقل من إبطال شبههم على القرآن إلى تحدّيهم به ، وذكر أنه ما كان أن يفترى من دونه ، ولكنه تصديق لما قبله من الكتاب وتفصيل له ، وأنه لا ريب في تنزيله من عنده ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله ، وأن يدعوا من استطاعوا من دونه ليساعدهم على الإتيان به ؛ ثم ذكر أنهم يكذبون به من غير أن يحيطوا بعلمه ، ومن قبل أن يأتيهم تأويله ، فكذّبوا به جهلا وعنادا ، كما كذّب الذين من قبلهم ؛ ثم ذكر أن منهم من يؤمن به وينكره عنادا ، ومنهم من لا يؤمن به جهلا ، وأنه أعلم بهم ومجازيهم على كفرهم ، ثم أمره إن كذّبوه بعد تحديهم وعجزهم أن يتركهم ولا يطمع في إيمانهم ، لأن منهم من يستمعون إليه فلا يسمعون ، ولا يمكنه أن يسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليه فلا ينظر ، ولا يمكنه أن يهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ؛ ثم ذكر أنه لم يظلمهم بهذا ، ولكن أنفسهم يظلمون.

ثم أتبع ذلك بوعيدهم ، فذكر ، سبحانه ، أنه يوم يحشرهم يكون حالهم كحال من لم يلبث إلا ساعة من النهار في الدنيا ، لأنهم لم ينتفعوا بما مكثوه

فيها ، وأنهم يتعارفون بينهم ليوبّخ بعضهم بعضا ؛ ثم ذكر أنه إما يرينّه بعض الذي يعدهم من العذاب في الدنيا ، أو يتوفينّه قبل أن يريه له ، فإليه ، تعالى ، مرجعهم ثم هو شهيد على ما يفعلون ، وأن لكل أمة رسولا لا تعذب قبله : ﴿فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧).

ثم ذكر أنهم سألوا مستهزئين : متى هذا الوعد بالعذاب؟ وأمر النبي (ص) أن يجيبهم بأن أمر ذلك مفوض إليه ، جل جلاله ، وحده ، لأنه لا يملك لنفسه ضرّا ولا نفعا ، ولكل أمة أجل لا تتأخّر عنه ولا تتقدّم ، وبأن يسألهم عن فائدتهم في استعجال هذا العذاب ، لأنهم إذا آمنوا عند وقوعه يكون إيمانهم بطريق الإلجاء ولا ينفعهم ، ثم يقال لهم : ﴿ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٥٢).

ثم ذكر أنهم سألوه عن ذلك العذاب مرة أخرى : أحقّ هو؟ وأمره أن يجيبهم بأنه حق ، وأنهم لا يعجزونه إذا أراد عذابهم ، وأنه إذا أتاهم وكان لهم ملك ما في الأرض لافتدوا به ؛ ثم ذكر أن له ، سبحانه ، ما في السماوات والأرض ، دليلا على قدرته على تحقيق وعيده لهم ، ولكن أكثرهم لا يعلم ﴿هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦).

دعوتهم إلى تصديق القرآن

بالترغيب والترهيب

الآيات [٥٧ . ٩٨]

ثم قال تعالى ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) فذكر أنه موعظة منه وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ؛ وأمرهم أن يفرحوا بفضله عليهم به ، لأنه خير مما يجمعون ، ثم أمرهم أن يخبروه عمّا رزقهم به ، فجعلوا منه حراما وحلالا ، أكان بإذنه أم كان افتراء عليه؟ ليبيّن حاجتهم إلى هدايته ؛ وذكر أنه إذا كان افتراء عليه ، فما يكون جزاؤهم عليه يوم القيامة؟ وأنه ذو فضل عليهم بإنزاله هذا القرآن ، الذي يبيّن لهم حرامه وحلاله ، ولكنّ أكثرهم لا يشكرون ، ثم أخذ في وعد النبي (ص) والمؤمنين على الإيمان بما أنزله إليهم ، فذكر أنه ما يكون في شأن وما يتلو منه من قرآن إلا كان شاهدا عليهم ، وأن كل صغيرة وكبيرة ثابتة عنده في كتاب مبين ؛ ثم

ذكر أن أولياءه منهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٦٣).

ثم نهى النبي (ص) أن يحزن لتكذيبهم لما أنزل عليه ، لأن العزة له وحده ، جلّت قدرته ، وهو يسمع ويعلم تكذيبهم ، وله من في السماوات ومن في الأرض ، وما يتبعون من دونه شركاء فيه ، وإنما يظنون أنهم شركاء من غير أن يكون لهم دليل عليه ؛ ثم ذكر أنه سبحانه ، هو الذي جعل الليل سكنا والنهار مبصرا ، وأن في هذا آية لمن يسمع على أنه لا شريك له ، وأنهم زعموا أنّه اتّخذ ولدا يشاركه في ملكه ، وأبطل هذا بأنه هو الغنيّ الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، فلا يشاركه فيه ولد ولا غيره ؛ ثم أمر النبي (ص) أن يخبرهم بأن الذين يفترون عليه الكذب من الولد وغيره لا يفلحون ﴿مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

ثم أخذ السياق في ترهيبهم بما حصل للمكذبين قبلهم ، فأمر تعالى النبي (ص) أن يتلو عليهم نبأ نوح (ع) وما حصل لقومه من هلاكهم بالطوفان ، وقد سبقت قصتهم في سورة الأعراف ، ولكن ما هنا يخالف ما هناك في السياق والأسلوب والزيادة والنقص ؛ ثم ذكر أنه بعث من بعده رسلا إلى قومهم ، فجاؤوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل ، وأنه كذلك يطبع على قلوب المعتدين ؛ ثم ذكر أنه بعث من بعدهم موسى وهارون ، إلى فرعون وقومه ، وأنهم لم يؤمنوا به فأغرقهم في البحر ، وقد سبقت هذه القصة في سورة الأعراف أيضا ، ولكن ما هنا يخالف ما هناك في السياق والأسلوب والزيادة والنقص ، وقد ختمت هنا بأنه ، سبحانه ، بوّأ بني إسرائيل مبوّأ صدق من الأرض المقدسة ، بعد أن نجّاهم من فرعون وقومه ؛ وذكر أنهم لم يختلفوا في دينهم حتى جاءهم العلم ، وأنه ، جلّ جلاله ، يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

ثم أمر النبي (ص) على سبيل التعريض إن كان في شكّ من هذا القصص أن يسأل أهل الكتاب عنه ، ونهاه أن يكون من الذين يكذّبون بآياته ؛ ثم ذكر أن الذين حقت عليهم كلمته من الأوّلين لا يؤمنون ولو

جاءتهم كل آية حتى يروا عذابه ، وأنه كان عليهم أن يؤمنوا لينفعهم إيمانهم ، ثم استثنى منهم قوم يونس (ع) ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ (٩٨).

الخاتمة

الآيات [٩٩ ـ ١٠٩]

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩) فذكر للنبي (ص) أنه لو شاء ، سبحانه ، لآمن بما أنزل إليه من في الأرض جميعا ، وأنه لا يصحّ أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، ثم أمرهم أن ينظروا في آياته في السماوات والأرض ليؤمنوا بالنظر فيها ؛ وذكر أن هذا لا يغني عنهم لأنهم لا يريدون الإيمان ، وإنما ينتظرون مثل أيام العذاب التي أهلك فيها الأولين ، ثم نجّى رسله والذين آمنوا معهم ، ثم أمره إن استمروا بعد هذا على شكهم في دينه ، أن يخبرهم بأنه لا يعبد ما يعبدون من دونه ، ولكن يعبد الذين يتوفّاهم ، وبأنه أمر أن يكون من المؤمنين ، وأن يقيم وجهه للدين حنيفا ولا يكوننّ من المشركين ؛ ثم نهاه أن يدعو من دونه ما لا ينفعه ولا يضرّه ، وذكر له أنه إن يمسسه بضرّ فلا كاشف له إلا هو ، وإن يرده بخير فلا رادّ له ، ثم أمره أن يذكر لهم أنه قد جاءهم الحق (القرآن) منه ، وأنّ من اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها ، وأنه ليس عليهم بوكيل ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾ (١٠٩).

أسرار ترتيب سورة «يونس» (١)

أقول : قد عرف وجه مناسبتها فيما تقدم في سورة الأنفال. ونزيد هنا : أن مطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف ، وأنه سبحانه قال فيها : ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الآية ٢] فقدّم الإنذار وعمّمه ، وأخّر البشارة وخصّصها. وقال تعالى في مطلع الأعراف : ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢). فخص الذكرى وأخّرها ، وقدّم الإنذار ، وحذف مفعوله ليعمّ.

وقال هنا : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الآية ٣]. وقال في الأوائل ، أي أوائل الأعراف مثل ذلك (٢).

وقال هنا : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [الآية ٣]. وقال هناك : ﴿مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف / ٥٤].

وأيضا فقد ذكرت قصة فرعون وقومه في الأعراف ، فاختصر ذكر عذابهم ، وبسط في هذه السورة أبلغ بسط (٣). فهي شارحة لما أجمل في سورة الأعراف منه.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨ ه‍ / ١٩٧٨ م.

(٢). وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ [الأعراف / ٥٤].

(٣). في عذاب فرعون قال تعالى في الأعراف : ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ﴾ (١٣٦). وقال في يونس : ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ﴾ الى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [الآيات ٩٠ ـ ٩١].

مكنونات سورة «يونس» [1]

١ . ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [الآية ٢].

قال مقاتل : هو محمد ؛ شفيع صدق. أخرجه ابن أبي حاتم

٢ . ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ [الآية ١٦].

قال قتادة : أربعين سنة. أخرجه ابن أبي حاتم.

٣ . ﴿بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ [الآية ٨٧].

قال مجاهد : بمصر الإسكندرية. أخرجه ابن أبي حاتم [2].

٤ . ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [الآية ٩٣]. قال قتادة : بالشام. أخرجه ابن المنذر [3].

٥ . ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الآية ٨٣].

قيل : الضمير لفرعون. و(الذّريّة) : مؤمن آل فرعون ، وامرأة فرعون ، وخازنه [4]. وامرأة خازنه.

٦ . ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [الآية ٩٨].

هم أهل قرية «نينوى» بشاطئ دجلة من بلاد الموصل.

أخرجه ابن أبي حاتم عن السّدّيّ وغيره.

---

(١). انتقى هذا المبحث من كتاب «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» للسيوطي ، تحقيق إياد خالد الطبّاع ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

(٢). الطبري ١١ / ٦٨.

(٣). الطبري ١١ / ١٠٧.

(٤). ١١ / ١١٤.

لغة التنزيل في سورة «يونس» [(١)]

١ ـ وقال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الآية ٢].

المراد بقوله تعالى : ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ السابقة والفضل والمنزلة الرفيعة ، وقد سمّيت السابقة «قدما» ، لأن السعي والسّبق بالقدم ، كما سمّيت النّعمة يدا ، لأنها تعطى باليد ، وباعا لأن صاحبها يبوع بها ، فقيل : لفلان قدم في الخير. وإضافته إلى ﴿صِدْقٍ﴾ دلالة على زيادة فضل ، وأنه من السّوابق العظيمة ، وقيل : مقام صدق.

٢ ـ وقال تعالى : ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ﴾ [الآية ١٥].

أراد تعالى بقوله : ﴿ما يَكُونُ لِي﴾ ، ما يتسهّل لي ، وما يمكنني أن أبدّله.

أقول : وهذا من معاني الفعل «كان» ، وهي التامّة غير الناقصة ، التي تنصرف إلى معان عدّة.

وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى﴾ تشتمل على «إن» النافية ، وهذا يدعونا إلى أن نقف على هذه الأداة النافية قليلا.

قال النحاة في باب «ليس» وعملها : إنّ النافيات : «ما» ، و «لا» ، و «لات» و «إن» ، تعمل عمل «ليس». تعمل عمل «ليس». فأما «إن» النافية فمذهب البصريين والفرّاء أنّها لا تعمل شيئا ، ومذهب الكوفيين ، خلا الفرّاء ، أنها تعمل عمل «ليس» ، وقال به من البصريّين أبو العباس المبرّد ، وأبو

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل» ، لإبراهيم السّامرّائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرخ.

بكر بن السرّاج ، وأبو عليّ الفارسي ، وأبو الفتح بن جني.

واستشهدوا مع ذلك بقول الشاعر :

إن هـــو مســـتوليا علـــى أحـــد إلّا علـــى أضـــعف المجـــانين

وقال آخر :

إن المرء ميتا بانقضاء حياته ولكن بأن يبغى عليه فيخذلا وذكر ابن جني في «المحتسب» أنّ سعيد بن جبير ، رضي الله عنه ، قرأ :

(إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) [الأعراف / ١٩٤].

أقول :

لا أريد أن أناقش عمل «إن» فتلك مسألة ضعيفة يعوزها الشاهد الآية ، والشاهد الشعري الصحيح ، ذلك بأن قراءة سعيد بن جبير قراءة خاصة ، والقراءات الكثيرة تجمع على : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ﴾ (١).

فليس في الآية «إن» النافية ، بل هي «إنّ» المشبهة بالفعل للتوكيد ، المشدّدة النون ، وعلى هذا ليس في آي القرآن «إن» النافية التي تعمل عمل «ليس».

أما البيتان اللذان ادّعي أنهما شاهدان في «إن» النافية العاملة ، فهما بيتان يتيمان لا يعرف لهما قائل.

ومجموع هذه الشواهد ، على ضعفها ، يشير إلى أن الأداة غير عاملة على النحو الذي أرادوا.

غير أنّ «إن» النافية قد وجدت في آيات القرآن داخلة على الجملة اسمية وفعلية تنفيهما ، ولكن النفي ، في جميع الشواهد الآيات ، منتقض ب «إلّا».

أقول : ولولا «إلا» هذه ، لكان السامع والقارئ في حيرة وإشكال من أمر هذه الأداة النافية «إن» ، لأن هذه الأداة على عدة أحوال فهي شرطية ، وهي مخففة وهي زائدة. غير أن وجود «إلّا» جعل القارئ والسامع يدرك أنها نافية ، ودونك طائفة من الآيات التي وردت فيها «إن» النافية :

﴿إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١) [الأنفال].

﴿إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال / ٣٤].

---

(١). وعليها رسم المصحف الشريف.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام / ١١٦].
﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [النجم / ٢٨].
﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ﴾ (٢٩) [يس].
وغيرها كثير. ومثل هذه الشواهد قد نجدها في كلام العرب وهي قليلة [١].

٣ ـ وقال تعالى : ﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا﴾ [الآية ٢١].

جواب (إذا) الشرطية الأولى هو (إذا) الثانية التي تفيد المفاجأة ، وإنما جعل «إذا» جوابا لكونها بعض الجملة لما فيها من معنى المفاجأة ، وهي ظرف مكان ، وهو كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (٣٦) [الروم].

ومعناه : وإن تصبهم سيّئة قنطوا.

ومعنى الآية المتقدمة : وإذا أذقنا الناس رحمة .... مكروا.

٤ ـ وقال تعالى : ﴿حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ﴾ [الآية ٢٢].

في هذه الآية ابتداء خطاب وبعد ذلك إخبار عن غائب ، لأنّ كلّ من أقام يخاطبه جاز له أن يردّه إلى الغائب ، قال كثير :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقليّة إن تفلّت

وقال عنترة :

شطّت مزار العاشقين فأصبحت ... عسرا عليّ طلابك ابنة مخرم

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ﴾ [الآية ٢٣].

المعنى : فلما أنجاهم بغوا [٢].

أقول : ومثل هذا الانتقال من الخطاب إلى الغيبة معروف في لغة التنزيل ، وهو غرض ترمي إليه لغة العرب في غير القرآن من كلامهم.

٥ ـ وقال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ [الآية ٢٦].

---

(١). فاتنا أن نشير إلى قوله تعالى : ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾ [يونس / ٦٨].
والمعنى : ما عندكم من سلطان ، وفي هذه الآية وردت «إن» النافية ، ولم ينتقض نفيها ب «إلا».
(٢). «مجمع البيان» للطبرسي ١٠ / ١٠١.

﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي : لا يغشى وجوههم غبرة فيها سواد ، أي : لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إذكارا بما ينقذهم منه برحمته. والفعل «رهق يرهق» ، قد جاء في أربع آيات أخرى بهذا المعنى ، ومنها :

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ﴾ (٤١) [عبس].

أقول : وليس لنا في العربية المعاصرة إلا الفعل المزيد «أرهق» ، بمعنى «عذّب» و «آذى» و «حمّله ما لا يطيق».

على أن الفعل المزيد قد جاء في ثلاث آيات منها :

﴿وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ (٧٣) [الكهف].

كما ورد «الرّهق» في آيتين من سورة الجن منهما :

﴿وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (٦)﴾ [الجن].

أي : زادوهم إثما وغيّا.

ولا بد أن نشير إلى الفعل «كان» الذي يعني «وجد» فهو مكتف بمرفوعه.

٦ ـ وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ﴾ [الآية ٢٨].

قوله تعالى : ﴿فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ﴾ أي : ففرّقنا بينهم وقطعنا أقرانهم ، والوصل التي كانت بينهم في الدنيا ، أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف [1].

وقال الفرّاء : هي ليست من «زلت» بالضم ، وإنما هي من «زلت» بالكسر وزلت الشيء فأنا أزيله إذا فرّقت ذا من ذا ، وأبنت ذا من ذا ، وقال فزيّلنا لكثرة الفعل ، ولو قلّ لقلت : زل ذا من ذا.

وقرأ بعضهم : (فزايلنا) وهو مثل قولك : لا تصعّر ولا تصاعر.

وقال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الفتح / ٢٥].

يقول : لو تميّزوا.

أقول : وهذه بعض الذخائر اللغوية التي حفظها القرآن ، ولو لا ذلك لعفا الأثر وضاعت فرائد.

٧ ـ وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ

---

(١). «الكشاف» : ٢ / ٣٤٣.

النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤).

قال الزمخشري [١] :

﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ ، أي : لا ينقصهم شيئا مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب ، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب.

أقول : هكذا درج المفسرون عامة على تفسير الظلم في هذه الآية ، بمعنى نقصهم حسناتهم.

وقد يكون «نقص الحسنات والمصالح» ظلما ، ولكني أقول : المراد ، والله أعلم ، أنهم لم يظلموا شيئا ، أي : ما كان قليلا جدا.

وأنا إن أذهب إلى هذا فدليلي ما يمكن أن يوحي به استعمال لفظ «شيء» في طائفة من آي الذكر الحكيم.

قال تعالى : ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ﴾ [البقرة / ١١٣]. ﴿عَلى شَيْءٍ﴾ أي : على شيء يصح ويعتدّ به.

وقال تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ﴾ [البقرة / ١٥٥].

﴿بِشَيْءٍ﴾ بقليل من كل واحد من هذه البلايا ، وطرف منه.

وقال تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران / ١٥٤].

يقول الكافرون بعضهم لبعض هل لنا من النصر والفتح والظفر نصيب ، قالوا ذلك على سبيل التعجب والإنكار ، أي : أنطمع أن يكون لنا الغلبة على هؤلاء ، أي : ليس لنا من ذلك شيء.

أقول : والقلّة المتضمنة في «شيء» ، يعضدها التنكير ، وزيادة «من» الجارة قبلها.

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النساء / ١١٣].

والمعنى : لا يضرّونك بكيدهم ومكرهم شيئا ، فإن الله حافظك وناصرك.

---

(١). «الكشاف» ٢ / ٣٤٩.

وقال تعالى : ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام / ٣٨].

أي : ما تركنا ، وقيل : معناه ما قصرنا ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي : مهما كان قليلا بدلالة التنكير.

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام / ١٥٩].

هذا خطاب للنبيّ (ص) وإعلام له أنه ليس منهم في شيء ، وأنه على المباعدة التامة ، من أن يجتمع معهم في معنى من مذاهبهم الفاسدة.

وليس خافيا دلالة «الشيء» على القلة في هذه الآية.

وقال تعالى : ﴿وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ [هود / ٥٧].

أي : ولا تضرّونه بتولّيكم شيئا من ضرر مّا ، لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع ، وإنما تضرّون أنفسكم.

وقال تعالى : ﴿ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف / ٣٨].

أي : ما صحّ لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله أيّ شيء كان من ملك ، أو جنّيّ ، أو إنسيّ ، فضلا عن أن نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر. وقد بقي من معنى «شيء» في إفادة القلة والصغر الكثير في نثر الأدباء وشعرهم طوال العصور إلى عصرنا هذا ، وقد نجد من ذلك شيئا في اللهجات الدارجة.

وقد يتضح هذا المعنى من القلة أن كلمة «شيء» تأتي كثيرا بعد النفي لتؤكد النفي وهي منكّرة. يقال : لا أعرف شيئا ولا أملك من شيء ، وما يغنيني عن ذلك من شيء ، والله أعلم بما أراد.

٨ ـ وقال تعالى : ﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ [الآية ٦١].

﴿وَما يَعْزُبُ﴾ (قرئ بالضمّ والكسر ، أي : وما يبعد وما يغيب.

وفي الحديث : أنهم كانوا في سفر مع النبي (ص) فسمع مناديا ، فقال : انظروه تجدوه معزبا أو مكلئا.

وهو الذي عزب في إبله أي : غاب.

والعازب من الكلأ : البعيد المطلب ، والمعزب : طالب الكلأ البعيد.

والعزيب المال العازب عن الحيّ.

أقول : أراد ب «المال» الإبل وسائر الماشية.

ومن المفيد أن أشير أن «العزيب» بهذا المعنى ما زالت معروفة لدى الرعاة في عصرنا.

٩ . وقال تعالى : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦).

في هذه الآية وردت (إن) النافية مرتين ، وكنا قد بسطنا القول فيها.

وقوله تعالى : ﴿يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦) ، أي : يحزرون ويقدّرون أن تكون شركاء تقديرا باطلا.

ومن المفيد أن نبسط القول في الفعل «خرص» ، الذي كاد أن يطوى خبره في العربية المعاصرة ، لو لا ما نسمع قليلا من استعمالهم «تخرّص» بمعنى ابتدع الكذب والأوهام ، وهي مثل ذلك في فصيح العربية كما في قوله تعالى :

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ (١٠) [الذاريات].

قال الزجاج : هم الكذّابون. وتخرّص فلان على الباطل واخترصه ، أي افتعله.

والفعل (يخرصون) في الآية بمعنى الحزر ، ولأنه من الذين يتّبعون الظن فهو أقرب إلى الوهم والباطل.

ولنعد إلى «الخرص» أيضا فنقول :

وأصل الخرص : التظنّي فيما لا تستيقنه ، ومنه خرص النخل والكرم ، إذا حزرت التّمر لأنّ الحزر إنّما هو تقدير بظنّ لا إحاطة ، والاسم الخرص ، بالكسر ، ومن هنا قيل للكذب خرص ، لما يدخله من الظنون الكاذبة.

وقد خرصت النخل والكرم أخرصه خرصا ، إذا حزرت ما عليها من الرطب تمرا ، ومن العنب زبيبا.

وفي الحديث عن النبي (ص) أنه أمر بالخرص في النخل والكرم خاصة دون الزرع القائم ، وذلك لأن ثمارها ظاهرة.

أقول : وما زال «الخرص» معروفا لتقدير ما على النخل من تمر لدى أهل البساتين في جنوبي العراق.

والذي نلاحظه أن مجموع ما يتصل بهذه اللفظة هو من العامي الدارج تقريبا ، ولا نعرفه في الفصيحة المعاصرة.

١٠ . وقال تعالى : ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ [الآية ٧٨].

أقول : والمراد بقوله تعالى : ﴿لِتَلْفِتَنا﴾ لتصرفنا.

وأكثر من «لفت» استعمالا «التفت» وتلفّت المزيدان.

قال تعالى : ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [هود / ٨١].

وفي الحديث في صفته (ص) : فإذا التفت التفت جميعا ، أراد أنه لا يسارق النظر.

وفي الحديث أيضا : «إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يلفت الكلام كما تلفت البقرة الخلى [١] بلسانها».

أقول : إن ما في الحديث يذكّر بأقوال المعاصرين مما ولّدوه متأثرين باللغات الغربية الأعجمية وهو قولهم : اللّف والدوران ، وفلان يلف ويدور أي : لا يفصح ويعمّي عن قصد ، وهي صفة تقرب من الاحتيال والخداع. ويقولون في العربية المعاصرة : وهذا يلفت النظر ، من «ألفت» وهو رباعيّ مولّد لا تعرفه الفصيحة.

وقولهم : «ألفت النظر» ، وهو ملفت للنظر في العربية المعاصرة ، جديد من المجازات التي جدّت في العربية ، والأصل فيها نقل ما في اللغات الأعجمية.

ومن المفيد أن نقف قليلا على مادة «لفت» ، لندرك سعة العربية التي جاءت بالفرائد من هذا الأصل القديم.

قالوا : واللّفوت من النساء : التي تكثر التلفّت ، وقيل : هي التي يموت زوجها أو يطلّقها ويدع عليها صبيانا ، فهي تكثر التلفّت إلى صبيانها.

وقيل : هي التي لها زوج ، ولها ولد من غيره ، فهي تلفّت إلى ولدها.

وفي الحديث : لا تتزوّجنّ لفوتا ، وهي التي لها ولد من زوج آخر ، فهي لا تزال تلتفت إليه وتشتغل به عن الزوج.

والألفت : القويّ اليد الذي يلفت من عالجه ، أي : يلويه.

والألفت والألفك في كلام تميم : الأعسر ، سمّي بذلك لأنه يعمل بجانبه الأميل.

وفي كلام قيس : الأحمق مثل الأعفت ، والأنثى لفتاء.

وفوائد أخرى قديمة أشارت إليها المعجمات.

١١ ـ وقال تعالى : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ﴾ [الآية ٨٨].

أريد بالأمر في الآية الدعاء عليهم ،

---

(١). الخلى : الرّطب من النبات.

والمراد بالطّمس على الأموال تغييرها عن جهتها إلى جهة لا ينتفع بها.

والطّموس : الدروس والامّحاء ، وطمس الطريق يطمس ويطمس طموسا : درس وامّحى أثره.

وطمسته طمسا يتعدّى ولا يتعدّى ، وانطمس الشيء وتطمّس : امّحى ودرس.

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس / ٦٦].

ومعناه : لأعميناهم.

ويكون الطموس بمعنى المسخ ، كقوله تعالى : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً﴾ [النساء / ٤٧].

وكما ورد التعبير القرآنيّ : ﴿لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ﴾ في الآية السابقة ، كذلك فقد ورد التعبير القرآنيّ : ﴿فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ﴾ في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر / ٣٧].

أي : مسحناها كسائر الوجه فلم ير لها شقّ ، فلما تغيّر المعنى صير إلى المتعدي ، ولم يأت بالخافض «على» كما في الآية.

وطمس النجم ذهاب ضوئه ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ (٨) [المرسلات].

أقول :

والذي لنا من هذا الفعل في العربية المعاصرة ، هو غير المتعدي «انطمس» ، لذهاب الأثر والامّحاء.

ولنا في اللهجات الدارجة قول العامة : طمس الرجل ، وطمس الشيء ، وهو الغطس في الماء وغيره كالوحل.

١٢ ـ وقال تعالى : ﴿فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩).

أقول : قوله تعالى : ﴿وَلا تَتَّبِعانِ﴾ ، فعل أمر مسند إلى ألف الاثنين ، وحقه أن تحذف منه نون الرفع «نون الاثنين».

وهذا يعني أن النون المكسورة المشدّدة هي نون التوكيد.

وقرئ بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ، كما قالوا تشبيها بنون التثنية ، وقرئ بتخفيف التاء أيضا.

١٣ ـ وقال تعالى : ﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها﴾ [الآية ٩٨].

﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ﴾ ، أي : فهلّا كانت قرية واحدة.

فمعنى (لولا) ، الحضّ فهي بمنزلة «هلّا» ، ومثلها قوله تعالى :

﴿وَيَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [الآية ٢٠].

١٤ ـ وقال تعالى : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣).

أقول : حذفت الياء من «ننج» لغرض صوتي ، وذلك لأن قصر المدّ والاكتفاء بالكسر مما يتطلبه إسكان اللام في ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ليكون بين الجيم واللام صوت قصير هو الكسرة لأن المد الطويل ، أي : الياء لا يجعل الكلمتين مرتبطتين على هذا النحو من الإحكام. وإلا فليس من سبب آخر نحوي ، أو ما يسمّى خط المصحف اقتضى ذلك.

المعاني اللغوية في سورة «يونس» [1]

قال تعالى : ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [الآية ٢] القدم هاهنا : التقديم ، كما تقول : «هؤلاء أهل القدم في الإسلام» أي : الذين قدّموا خيرا فكان لهم فيه تقديم [2].

وقال تعالى : ﴿وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ﴾ [الآية ٥] ثقيلة ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ ممّا يتعدى إلى مفعولين ، كأنه «وجعله منازل». وقال تعالى : ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ [الآية ٥] فجعل القمر هو النور كما تقول : «جعله الله خلقا» وهو «مخلوق» و «هذا الدرهم ضرب الأمير». وهو «مضروب». وقال جلّ شأنه : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة / ٨٣] فجعل الحسن هو المفعول كالخلق.

وقال تعالى : ﴿وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ﴾ وقد ذكر الشمس والقمر كما قال ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة / ٦٢].

وقال سبحانه : ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [الآية ١٢] و ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً﴾ [الآية ٤٥] وهذا في الكلام كثير وهي «كأنّ» الثقيلة ولكن أضمر فيها فخفّفت كما تخفف أنّ ويضمر فيها ، وإنما هي «كأنه لم» وقال الشاعر [3] [من الخفيف وهو الشاهد الثامن والعشرون بعد المائتين] :

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش ، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد ، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب ، بيروت ، غير مؤرخ.

(٢). نقله في الصحاح «قدم» والبحر ٥ / ١٣٠.

(٣). هو زيد بن عمرو بن نفيل ، الكتاب وتحصيل عين الذهب ١ / ٢٩٠ ، والخزانة ٣ / ٩٥ ؛ واللسان «ويا» ؛ وقيل هو نبيه بن الحجاج «اللسان» أيضا.

وي كـأن مـن يكـن لـه نشـب يحبب   ومـن يفتقـر يعـش عـيش ضـرّ

وكما قال [1] [من الهزج وهو الشاهد التاسع والعشرون بعد المائتين] :

[وصـدر مشـرق النّحـر]   كـأن ثـدياه حقّـان [2]

أي : كأنه ثدياه حقّان. وقال بعضهم «كأن ثدييه» فخفّفها وأعملها ، ولم يضمر فيها.

وقال تعالى : ﴿وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً﴾ [الآية ١٩] على خبر «كان» كما ﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾ [يس / ٢٩ و ٥٣]. أي «إن كانت تلك إلّا صيحة واحدة».

وقال تعالى : ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ﴾ [الآية ٩] كأن (تجري) مبتدأة منقطعة من الأوّل.

وقال تعالى : ﴿حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [الآية ٢٢] ، وإنما قيل : ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ لأنّ (الفلك) يكون واحدا وجماعة. قال تعالى : ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)﴾ [الشعراء / ١١٩ ويس / ٤١] وهو مذكر. وأمّا قوله جلّ شأنه ﴿حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ فجوابه قوله سبحانه : ﴿جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ﴾ [الآية ٢٢].

وأمّا قوله تعالى : ﴿دَعَوُا اللهَ﴾ [الآية ٢٢] فجواب لقوله سبحانه : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [الآية ٢٢] وإنما قال ﴿بِهِمْ﴾ وقد قال ﴿كُنْتُمْ﴾ بذكر الغائب ومخاطبته. قال الشاعر [3] [من الطويل وهو الشاهد العاشر بعد المائة] :

أسـيئي بنـا أو أحسـني لا ملومـة   لـدينا ولا مقليّـة أن تقلّـت

وقال تعالى : ﴿إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ [الآية ٢٣] أي : وذلك متاع الحياة الدنيا ، وأراد «متاعكم متاع الحياة الدّنيا».

وقال تعالى : ﴿كَماءٍ أَنْزَلْناهُ﴾ [الآية ٢٤] أي : كمثل ماء.

---

(١). هذا الشاهد أحد الخمسين التي لا يعرف قائلها في الكتاب.

(٢). صدره احدى صور وروده في المراجع المذكورة ، وهي الكتاب ١ / ٢٨١ و ٢٨٣ وتحصيل عين الذهب ، وشرح ابن عقيل ١ / ٣٣٤ ، وشرح الأبيات للفارقي ٢٥٢ ، والخزانة ٤ / ٣٥٨ ، واللسان «أنن» مرتين.

(٣). هو كثير بن عبد الرحمن الخزاعي المعروف ب «كثير عزة» وقد سبق الاستشهاد بهذا الشاهد.

وقال تعالى : ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ [الآية ٢٤] أي «وتزيّنت» ولكن أدغمت التاء في الزاي لقرب المخرجين ، فلمّا سكن أولها زيد فيها ألف وصل ، فصارت (وازّيّنت) ثقيلة «ازّيّنا» يريد المصدر وهو من «التزيّن» وإنما زيدت الألف بالإدغام حين أدغم ليصل الكلام ، لأنه لا يبتدأ بساكن.

وقال تعالى : ﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ [الآية ٢٦] ، لأنه من «رهق» «يرهق» «رهقا».

وقال تعالى ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [الآية ٣٨] وهذا ، والله أعلم ، «على مثل سورته» وألقى (١) السورة كما قال : ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ ([يوسف / ٨٢] يريد «أهل القرية».

وقال تعالى : ﴿جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها﴾ [الآية ٢٧] وزيدت الباء ، كما زيدت في قولك «بحسبك قول السوء».

وقال تعالى في قراءة من قرأ : ﴿كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ [الآية ٢٧] فالعين (٢) ساكنة لأنه ليس جماعة «القطعة» ولكنه «قطع» اسم على حياله (٣). وقرأ عامّة الناس ﴿قِطَعاً﴾ (٤) يريدون به جماعة «القطعة» ويستند الأول إلى قوله تعالى : ﴿مُظْلِماً﴾ لأن «القطع» واحد فيكون «المظلم» من صفته. والذين قالوا «القطع» يعنون به الجمع ، وقالوا نجعل ﴿مُظْلِماً﴾ حالا ل ﴿اللَّيْلِ﴾.

وقال تعالى : ﴿مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ﴾ [الآية ٢٨] في معنى «انتظروا أنتم وشركاؤكم».

وقال تعالى : ﴿هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ

---

(١). نقله في الهمع ١ / ١٢٧ والمغني ١ / ١١٠ وشرح المفصّل لابن يعيش ٨ / ١٣٩ و ٢ / ١١٥ وشرح الرضي على الكافية ٢٩٢ والبحر ٥ / ١٤٧ و ١٤٨.

(٢). يقصد عين الكلمة في ميزانها وهو حرف الطاء.

(٣). هي في الطبري ١١ / ١١٠ إلى بعض متأخري القراء ؛ وفي السبعة ٣٢٥ ؛ والكشف ١ / ٥١٧ ، والتيسير ١٢١ والجامع ٨ / ٣٣٣ ؛ والبحر ٥ / ١٥٠ الى ابن كثير والكسائي.

(٤). في معاني القرآن ١ / ٤٦٢ أنها قراءة العامة ، وكذلك نسب في الطبري ١١ / ١١٠ إلى عامة قراء الأمصار ، وفي السبعة ٣٢٥ إلى نافع وأبي عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة ، وفي البحر ٥ / ١٥٠ إلى السبعة ممن لم يأخذ بالسابقة ، وإلى ابن أبي عبلة ، وفي الكشف ١ / ٥١٧ والتيسير ١٢١ إلى غير ابن كثير والكسائي. وعلى هذه القراءة رسم المصحف.

ما أَسْلَفَتْ﴾ [الآية ٣٠] أي : تخبر. وقرأ بعضهم [1] تتلو أي : تتبعه.

وقال تعالى : ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ﴾ [الآية ٣١]. فإن قلت : «كيف دخلت (أم) على (من) فلأن (من) ليست في الأصل للاستفهام وانما يستغنى بها عن الألف ، فلذلك أدخلت عليها (أم) ، كما أدخل على (هل) حرف الاستفهام وإنما الاستفهام ، في الأصل الألف. و(أم) تدخل لمعنى لا بد منه. قال الشاعر [2] [من الطويل وهو الشاهد الثلاثون بعد المائتين] :

أبا مالك هل لمتني مذ حضضتني على القتل أم هل لامني لك لائم [3]

في قوله تعالى : ﴿ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠) ، إن شئت جعلت (ماذا) اسما بمنزلة (ما) وإن شئت جعلت (ذا) بمنزلة «الذي».

وقال تعالى : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ [الآية ٥٣] كأنه قال «ويقولون أحقّ هو».

وقال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨). وقرأ بعضهم (تجمعون) [4] أي : تجمعون يا معشر الكفار. وقرأ بعضهم (فلتفرحوا) [5]

---

(١). في معاني القرآن ١ / ٤٦٣ نسبت إلى عبد الله بن مسعود ، وفي الطبري ١١ / ١١٢ إلى جماعة من أهل الكوفة وبعض أهل الحجاز ، وفي السبعة ٣٢٥ والتيسير ١٢١ والجامع ٨ / ٣٣٤ إلى حمزة والكسائي ، وفي البحر ٥ / ١٥٣ الى الأخوين وزيد بن علي.

(٢). هو في الكتاب ١ / ٤٨٦ زفر بن الحارث ، وفي تحصيل عين الذهب والدرر اللوامع ٢ / ١٧٨ هو الجحّاف بن حكيم السّلمي ، وكذلك في الأغاني ١١ / ٦٠.

(٣). في الأغاني والدرر ب «إذ» «مذ» وفي الدرر «فيك» بدل «منك».

(٤). هي في الطبري ١١ / ١٢٦ الى أبي بن كعب في رواية ، والى أبي جعفر القارئ ، وفي السبعة ٣٢٧ ، والكشف ١ / ٥٢٠ ، والتيسير ١٢٢ ، والجامع ٨ / ٣٥٤ ، إلى ابن عامر ، وفي الشواذ ٥٧ إلى زيد بن ثابت ، وأبي جعفر المدني ، وأبي التناج ، كذا ، وفي البحر إلى أبي ، وابن القعقاع ، وابن عامر ، والحسن على ما زعم هارون ، ورويت عن النبي الكريم.

(٥). نسبت في معاني القرآن ١ / ٤٦٩ إلى زيد بن ثابت ، وفي الطبري ١١ / ١٢٦ الى أبيّ في رواية ، والحسن البصري ، وأبي جعفر القارئ وفي الشواذ ٥٧ إلى زيد بن ثابت ، وأبي التناج. كذا ، وأبي جعفر المدني ، وفي المحتسب ٣١٣ الى النبي الكريم ، وعثمان بن عفان ، وأبيّ بن كعب ، والحسن ، وأبي رجاء ، ومحمد بن سيرين والأعرج وأبي جعفر ، بخلاف ، والسلمي وقتادة والجحدري ، وهلال بن يساف والأعمش بخلاف ، والعباس ابن الفضل وعمرو بن فائد ، وفي الكشاف ١ / ٥٢٠ الى ابن عامر وغيره ، وفي الجامع ٨ / ٣٥٤ الى الحسن ، ويزيد بن القعقاع ، ويعقوب وغيرهم ، وفي البحر ٥ / ١٧٢ الى عثمان بن عفان ، وأبي ، وأنس ، والحسن ، وأبي رجاء ، .

وهي لغة للعرب رديئة ، لأن هذه اللام إنما تدخل في الموضع الذي لا يقدر فيه على «افعل» ؛ يقولون : «ليقل زيد» لأنك لا تقدر على «افعل». ولا تدخل اللام إذا كلمت الرجل فقلت «قل» ولم تحتج إلى اللام (١). وقوله تعالى : ﴿فَبِذَلِكَ﴾ بدل من قوله سبحانه : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾.

وقال تعالى في قراءة من قرأ : (وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) [الآية ٦١] على تقدير : «ولا يعزب عنه أصغر من ذلك ولا أكبر» بالرفع (٢). وقرأ أكثرهم (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) (٣) بالفتح أي : (ولا من أصغر من ذلك ولا من أكبر) ولكنه «أفعل» ولا ينصرف ، وهذا أجود في العربية ، واكثر في القراءة ، وبه نقرأ.

وقال تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ﴾ [الآية ٧١] تقول العرب : أجمعت أمري أي أجمعت على أن أقول كذا ، أي عزمت عليه وقرأ بعضهم (وشركاؤكم) (٤) والنصب أحسن (٥) لأنك لا تجري الظاهر

. وابن هرمز ، وابن سيرين ، وأبي جعفر المدني ، والسلمي وقتادة ، والجحدري ، وهلال بن يساف ، والأعمش ، وعمرو بن فائد ، والعباس بن الفضل الأنصاري ، ورويت عن النبي الكريم ، وأنها وردت عن يعقوب ، وكذلك نسبت إلى ابن عطية ، وابن القعقاع وابن عامر ، والحسن ، على ما زعم هارون. أما القراءة بالياء ، فنسبت في معاني القرآن ١ / ٤٦٩ ، والبحر ٥ / ١٧٢ إلى العامة ، وخصّ منهم الجامع ٨ / ٣٥٤ ابن عامر ، وكذلك في الكشف ١ / ٥٢٠ ، وفي الطبري ١١ / ١٢٦ إلى قراء الأمصار ، وإلى أبي التياح ، وأبي بن كعب في رواية.

(١). نقله في الصحاح «تا».

(٢). في الطبري ١١ / ١٣٠ هي قراءة بعض الكوفيين ، وفي السبعة ٣٢٨ إلى حمزة وحده ، كذلك في الكشف ١ / ٥٢١ والتيسير ١٢٣ ، والبحر ٥ / ١٧٤ ، وزاد في الجامع ٨ / ٣٥٦ يعقوب.

(٣). في الطبري ١١ / ١٣٠ إلى عامة القراء ، وكذلك في البحر ٥ / ١٧٤ ، وفي الكشف ١ / ٥٢١ ، والتسير ١٢٣ الى غير حمزة ، وفي السبعة ٣٢٨ إلى ابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، وعاصم وابن عامر ، والكسائي.

(٤). في معاني القرآن ١ / ٤٧٣ هي قراءة الحسن ، وكذلك في الطبري ١١ / ١٤٢ ، وفي الشواذ ٥٧ إلى الحسن ويعقوب وسلام ، وفي البحر ٥ / ١٧٩ إلى أبي عبد الرحمن والحسن وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وسلام ويعقوب. وفي الجامع ٨ / ٣٦٢ الى الحسن وابن أبي إسحاق ويعقوب وفي المحتسب ٨ / ٣٦٢ الى أبي عبد الرحمن والحسن وابن أبي إسحاق وعيسى الثقفي وسلام ويعقوب وأبي عمرو.

(٥). في الطبري ١١ / ١٤٢ إلى قراء الأمصار ، وفي البحر ٥ / ١٧٩ إلى الزهري والأعمش والجحدري وأبي رجاء والأعرج ، والأصمعي عن نافع ويعقوب بخلاف ، وفي المحتسب ٣١٤ الى الأعرج وأبي رجاء وعاصم والجحدري والزهري والأعمش ، وفي الجامع ٨ / ٣٦٢ إلى عاصم والجحدري.

المرفوع على المضمر المرفوع ، إلا أنه قد حسن ، في هذا ، للفصل الذي بينهما ، كما في قوله تعالى : ﴿أَإِذا كُنّا تُراباً وَآباؤُنا﴾ [النمل / ٦٧] فحسن ، لأنه فصل بينهما بقوله سبحانه ﴿تُراباً﴾. وقرأ بعضهم (فاجمعوا) [(١)]. وبالمقطوع نقرأ.

وفي قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [الآية ٧١]﴿يَكُنْ﴾ جزم بالنهي.

وقال تعالى : ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا﴾ [الآية ٧٧] قرئ ﴿سِحْرٌ﴾ على الحكاية لقولهم ، كما ورد في التنزيل : ﴿أَسِحْرٌ هذا﴾ ، وقول موسى (ع) ﴿أَتَقُولُونَ أَسِحْرٌ هذا﴾ [(٢)].

وقال تعالى : ﴿لِتَلْفِتَنا﴾ [الآية ٧٨] من لفت يلفت ، نحو أنا ألفته ، «لفتا» أي : ألويه عن حقّه.

وقال تعالى : ﴿ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ [الآية ٨١] أي : (الذي جئتم به السحر) وقرأ بعضهم (السحر) بالاستفهام [(٣)].

وقال سبحانه : ﴿عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ﴾ [الآية ٨٣] أي ملأ الذرّيّة [(٤)].

وقال تعالى : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا﴾ [الآية ٨٨] بنصب ﴿يُؤْمِنُوا﴾ لأنّه جواب الدعاء بالفاء.

قال تعالى : ﴿رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ [الآية ٨٨] أيّ : فضلّوا. كما قال سبحانه : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ [القصص / ٨] أي : فكان. وهم لم يلتقطوه ليكون

---

(١). قراءة وصل الهمزة هي في السبعة ٣٢٨ الى نافع ، وفي المحتسب ٣١٤ الى الأعرج ، وأبي رجاء ، وعاصم الجحدري ، والزهري ، والأعمش ، واقتصر في الجامع ٨ / ٣٦٢ على عاصم الجحدري ، وفي البحر ٥ / ١٧٩ الى الزهري ، والأعمش ، والجحدري ، وأبي رجاء ، والأعرج ، والأصمعي عن نافع ويعقوب بخلاف عنه.

(٢). نقله في إعراب القرآن ٢ / ٤٦٣ ، والجامع ٨ / ٤٦٦.

(٣). في معاني القرآن ١ / ٤٧٥ نسبت الى مجاهد وأصحابه ، وفي الطبري ١١ / ١٤٨ الى مجاهد ، وبعض المدنيين ، والبصريين ، وفي السبعة ٣٢٨ ، والكشف ١ / ٥١٦ ، والجامع ٨ / ٣٦٨ ، الى أبي عمرو ، وزاد في البحر ٥ / ١٨٢ مجاهدا وأصحابه ، وابن القعقاع. أما القراءة بلا استفهام ، ففي الطبري ١١ / ١٤٨ الى عامة قرّاء الحجاز والعراق ، وفي السبعة ٣٢٨ ، والكشف ١ / ٥٢١ ، والجامع ٨ / ٣٦٨ الى غير أبي عمرو ، وفي البحر ٥ / ١٨٣ الى غير من أخذ بالأخرى من السبعة.

(٤). نقله في المشكل ١ / ٣٥٣ ، وإعراب القرآن ٢ / ٤٦٤ ، والجامع ٨ / ٣٧٠ ، والبحر ٥ / ١٨٣ ، و ١٨٤ والبيان ١ / ٤١٩ ، والإملاء ٢ / ٣٢.

لهم عدوّا وحزنا ، وإنّما التقطوه فكان ، هذه اللام تجيء في هذا المعنى.

وقوله تعالى : ﴿فَلا يُؤْمِنُوا﴾ عطف على ﴿لِيُضِلُّوا﴾ في الآية ٨٨ نفسها ، من سورة يونس.

وقال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [الآية ٩٢] قرأ بعضهم (ننجيك) [١] وقوله سبحانه : ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي : لا روح فيه [٢].

وقال بعضهم معنى : ﴿نُنَجِّيكَ﴾ نرفعك على نجوة من الأرض. وليس قولهم : «أنّ البدن هاهنا» «الدرع» بشيء ولا له معنى [٣].

وقال تعالى : ﴿وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [الآية ٩٧] بتأنيث فعل الكل ، عند إضافته الى الآية ، وهي مؤنّثة [٤].

وقال تعالى : ﴿لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [الآية ٩٩] فجاء بقوله ﴿جَمِيعاً﴾ توكيدا ، كما في قوله سبحانه : ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل / ٥١] ففي قوله : ﴿إِلهَيْنِ﴾ دليل على الإثنين [٥].

وقال تعالى : ﴿كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) أي : «كذلك ننجي المؤمنين حقّا علينا».

وقال تعالى : ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ [الآية ١٠٥] أي : وأمرت أن أقم وجهك للدّين.

---

(١). في البحر ٥ / ١٨٩ الى يعقوب. ونقله في إعراب القرآن ٢ / ٤٦٦ ، والجامع ٨ / ٣٨٠.

(٢). نقله في الصحاح «بدن» ، ونقله في الجامع ٨ / ٣٨٠.

(٣). نقله في الجامع ٨ / ٣٨٠.

(٤). نقله في زاد المسير ٤ / ٦٤.

(٥). نقله في زاد المسير ٤ / ٦٧ ، والجامع ٨ / ٣٨٥.

لكل سؤال جواب في سورة «يونس» [1]

إن قيل : لم قال الله تعالى : ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥) ، والله تعالى فصّل الآيات للعلماء وسواهم.

قلنا : لما كان تفصيل الآيات مخصوصا بالعلماء ، وكان انتفاعهم بالتفصيل أكثر من انتفاع سواهم به ، فقد أضاف التفصيل إليهم وخصهم به.

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (١٠) ، مع أن أقوال أهل الجنة وأحوالهم لا آخر لها ، لأن الجنة دار الخلود؟

قلنا : معناه آخر دعائهم في كل مجلس ، دعاء أو ذكر أو تسبيح ، فإن أهل الجنة يسبّحون ويذكرون للتنعم والتلذذ بالذكر والتسبيح. فإن قيل : قد أنكر الله تعالى على الكفار احتجاجهم بمشيئته ، في قوله سبحانه : ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا﴾ [الأنعام / ١٤٨]. ولهذا لا يجوز للعاصي أن يحتج في وجود المعصية منه ، بقوله لو شاء الله ما فعلت هذه المعصية فلا تقيموا عليّ حدها ؛ فكيف ورد في التنزيل على لسان النبي (ص) : ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية ١٦]؟

قلنا : النبي (ص) قال هذه الجملة بأمر الله تعالى ، لأن الله عزّ وجلّ قال له : ﴿قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ وللعبد أن يحتجّ بمشيئة الله إذا أمره الله أن يحتج بها ، أما ما ليس

(١). انتقى هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

كذلك ، فليس له أن يحتجّ بمجرّد المشيئة ، وما أوردتموه كذلك.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ [الآية ٢٣].

والبغي لا يكون إلا بغير الحق ، لأن البغي هو التعدي والفساد ، من قولهم بغى الجرح إذا فسد ، كذا قاله الأصمعي ، فما فائدة التقييد؟.

قلنا : قد يكون الفساد بالحق ، كاستيلاء المسلمين على أرض الكفار ، وهدم دورهم ، وإحراق زروعهم ، وقطع أشجارهم ، كما فعل رسول الله (ص) ببني قريظة.

فإن قيل : لم شبه الله تعالى الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ﴾ [الآية ٢٤]؟

قلنا : لأن ماء السماء وهو المطر ، لا تأثير لكسب العبد فيه ، ولا حيلة للعبد في زيادته ونقصانه ، كما أن الحياة لا حيلة للعبد في زيادتها ونقصانها.

الثاني : أن ماء السماء يستوي فيه جميع الخلائق ، الوضيع والشريف ، الغني والفقير ، الحيوان وغيره أيضا كالمدر والحجر والشوك والثمر ، كما أن الحياة كذلك ، فكأن تشبيه الحياة بماء السماء أشد مناسبة ومطابقة.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ﴾ [الآية ٢٨] وقال في موضع آخر ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [البقرة / ١٧٤].

قلنا : يوم القيامة مواقف ومواطن ، ففي موقف لا يكلّمهم ، وفي موقف يكلّمهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌ﴾ (٣٩) [الرحمن] وقوله ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) [الحجر]. الثاني المراد أنه لا يكلمهم كلام إكرام بل كلام توبيخ وتقريع.

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ٣١] إلى آخر الآية ، يدل على أنهم معترفون أن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدبّر لجميع المخلوقات ، فكيف يعترفون بذلك كله ثم يعبدون الأصنام؟

قلنا : كانوا ، في عبادتهم الأصنام ، يعتقدون أنهم يتقرّبون بها إلى الله سبحانه ؛ فطائفة منهم كانت تقول نحن

لا نتأهّل لعبادة الله تعالى بغير واسطة ، لعظمة إجلاله ، ونقصنا وحقارتنا ، فجعلوا الأصنام وسائط ، كما قال تعالى : ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ [الزمر / ٣] وطائفة كانت تقول : نتّخذ أصناما على هيئة الملائكة ، ونعبدهم ، لتشفع لنا الملائكة عند الله ، ليقرّبونا إلى الله ، وطائفة كانت تقول : الأصنام قبلة لنا في عبادة الله ، كما أن الكعبة قبلة في عبادته ، وطائفة ، وهي الأكثر ، كانت تقول : على كل صنم شيطان موكل به من عند الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته ، قضى الشيطان حوائجه على وفق مراده ، بأمر الله ، ومن قصّر في عبادة الصنم أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله ؛ فكل الطوائف من عبدة الأصنام ، كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله ، والتقرب إليه ، ولكن بطرق مختلفة.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦) فحصر سبحانه شهادته على أفعالهم ، في الآخرة ، مع أنه شهيد على أفعالهم في الدنيا والآخرة؟

قلنا : ذكر الشهادة وأراد مقتضاها ونتيجتها ، وهو العقاب والجزاء ، فكأنه قال : ثم الله يعاقب على ما يفعلون ، أو مجاز على ما يفعلون ، كما قال تعالى : ﴿وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ [البقرة / ١٩٧] ونظائره في القرآن العزيز كثيرة.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿بَياتاً أَوْ نَهاراً﴾ [الآية ٥٠] ولم يقل ليلا أو نهارا ، وهو أظهر في المطابقة ، استعمالا مع النهار في القرآن العزيز وغيره؟

قلنا : لأن المعهود المألوف في كلام العرب ، عند ذكر البطش والإهلاك والوعيد والتهديد ، ذكر لفظ البيات سواء أقرن به النهار أم لم يقرن ، فلذلك لم يقل ليلا.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠) أي ما ذا يستعجلون منه ، وأول الآية للمواجهة؟

قلنا : أراد بذكر المجرمين الدلالة على موجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ، لأن من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ويفزع من مجيئه ، وإن أبطأ ، فضلا عن أن يستعجله.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [الآية ٥٨] ولم يقل فبذينك ، والمشار إليه اثنان : الفضل والرحمة.

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ﴾ [البقرة / ٦٨].

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [الآية ٦٠] تهديد ، لأن فيه محذوفا تقديره : وما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم ، فكيف يناسبه قوله تعالى بعده : ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾.

قلنا : هو مناسب ، لأن معناه أن الله لذو فضل على الناس ، حيث أنعم عليهم بالعقل ، والوحي ، والهداية ، وتأخّر العذاب ، وفتح باب التوبة ؛ فكيف يفترون على الله الكذب مع توافر نعمه عليهم؟

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ [الآية ٦١] ، فأفرد ، ثم قال في الآية نفسها ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فجمع ، والخطاب للنبي (ص)؟

قلنا : قال ابن الأنباري : إنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي (ص) في الفعلين الأوّلين. وقال غيره : المراد بالفعل الثالث أيضا النبي (ص) وحده ، وإنما جمع تفخيما له وتعظيما كما في قوله تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة / ٧٥] على قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وكما في قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ [المؤمنون / ٥١]. والمراد به النبي (ص) ، كذا قاله ابن عباس والحسن وغيرهما ، واختاره ابن قتيبة والزجّاج.

فإن قيل : لم قدّم الأرض على السماء في قوله تعالى : ﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ﴾ [الآية ٦١] وقدّم السماء على الأرض في قوله تعالى في سورة سبأ : ﴿عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ / ٣]؟

قلنا : حق السماء أن تقدم على الأرض مطلقا لأنها أشرف ، لكنه لما ذكر هنا في صدر الآية شهادته على شؤون أهل الأرض وأقوالهم وأعمالهم ، ثم أردفه بقوله سبحانه :

﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ [الآية ٦١] ناسب ذلك تقديم الأرض على السماء. الثاني أن العطف بالواو نظير التثنية وحكمه حكمها ، فلا يعطى رتبة كالتثنية.

فإن قيل : لم قال تعالى هنا : ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [الآية ٦٥] وقال في موضع آخر ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون / ٨]؟

قلنا : أثبت الاشتراك في نفس العزة التي هي في حق الله تعالى القدرة والغلبة ، وفي حق الرسول (ص) علوّ كلمته وإظهار دينه ، وفي حقّ المؤمنين نصرهم على أعدائهم ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [الآية ٦٥] أراد به العزة الكاملة التي يندرج فيها عزة الإلهية ، والخلق ، والإماتة ، والإحياء والبقاء الدائم ، وما أشبه ذلك فلا تنافي.

فإن قيل : إذا كانت السموات والأرض ، وما فيهما من المخلوقات ، وما وراءهما كل ذلك لله تعالى ملكا وخلقا ، فما فائدة التخصيص في قوله تعالى في الآية التالية : ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؟

قلنا : إنما خص العقلاء المميّزين بالذكر ، وهم الملائكة والثقلان ، ليعلم أن هؤلاء إذا كانوا عبيدا له ، وهو ربّهم ، ولا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولا للشركة معه ، فما وراءهم ممّا لا يعقل كالأصنام والكواكب ونحوهما ، أحقّ أن لا تكون له ندّا وشريكا.

فإن قيل : لم ورد قوله تعالى على لسان موسى (ع) ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا﴾ [الآية ٧٧] على طريق الاستفهام ، وهم إنّما قالوا ذلك على طريق الإخبار ، أو التحقيق المؤكّد ، بأن واللام ، لا على طريق الاستفهام ، قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧٦)؟

قلنا : فيه إضمار تقديره. أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين. ثم قال ﴿أَسِحْرٌ هذا﴾ إنكارا لما قالوه ، فالاستفهام من قول موسى (ع) لا مفعول لقولهم.

فإن قيل : لم نوّع الخطاب في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ

﴿قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧) فثنّي أولا ثم جمع ثم أفرد؟

قلنا : خوطب أولا موسى وهارون أن يتبوّءا لقومهما بيوتا ، ويختاراها للعبادة ، وذلك ممّا يفوض إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم سيق الخطاب عامّا لهما ، ولقومهما ، باتّخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خصّ موسى (ع) بالبشارة تعظيما لها أو تعظيما له عليه السلام.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما﴾ [الآية ٨٩] أضافها إليهما ، والدعوة إنما صدرت عن موسى عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ [الآية ٨٨] إلى آخر الآية؟

قلنا : نقل أن موسى (ع) كان يدعو ، وهارون (ع) كان يؤمّن على دعائه ؛ والتأمين دعاء في المعنى ، فلهذا أضاف الدعوة إليهما. الثاني : أنه يجوز أن يكون هارون دعا أيضا مع موسى ، إلا أن الله تعالى خصّ موسى بالذكر ، لأنه كان أسبق بالدعوة ، وكان أصلا فيها ، فجاء هارون ليعاونه في حملها بدعوة من موسى ، استجاب لها الله تعالى.

فإن قيل : لو كان كذلك ، لقال تعالى دعونا كما بالتثنية؟

قلنا : لما كانت الدعوة مصدرا ، اكتفي بذكرها في موضع الإفراد والتثنية والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ﴾ [البقرة / ٧].

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ﴾ [الآية ٩٤] و «إن» إنما تدخل على ما هو محتمل الوجود ، وشك النبي (ص) في القرآن منتف قطعا؟

قلنا : الخطاب ليس للنبي (ص) بل لمن كان شاكّا في القرآن ، وفي نبوة محمد (ص) ، فكأنه قال «فإن كنت أيّها الإنسان في شكّ».

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ﴾ يدل على أن الخطاب للنبي (ص) لا لغيره.

قلنا : لا يدل ، قال الله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (١٧٤) [النساء]

وقال تعالى : ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ [التوبة / ٦٤]. الثاني أن الخطاب للنبي (ص) والمراد غيره ، كما في قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ [الأحزاب / ١] ويعضده قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (٩٤) [النساء] ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعده : ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ [الآية ١٠٤]. الثالث : أن تكون «إن» بمعنى ما ، تقديره : فما كنت في شكّ مما أنزلناه إليك فاسأل. المعنى لسنا نأمرك أن تسأل أحبار اليهود والنصارى عن صدق كتابك ، لأنك في شكّ منه ، بل لتزداد بصيرة ويقينا وطمأنينة. الرابع : أن الخطاب للنبي (ص) ، مع انتفاء الشك منه قطعا ، أو المراد به إلزام الحجة على الشاكّين الكافرين ، كما يقول لعيسى (ع) ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة / ١١٦] وهو عالم بانتفاء هذا القول منه ، لإلزام الحجّة على النصارى.

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [الآية ٩٩] ما الحكمة في ذكر ﴿جَمِيعاً﴾ بعد قوله سبحانه ﴿كُلُّهُمْ﴾ وهو يفيد الشمول والإحاطة؟

قلنا : «كلّ» يفيد الشمول والإحاطة ، ولا يدل على وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع ، و «جميعا» يدل على وجوده منهم في حالة واحدة ، كما تقول جاءني القوم جميعا : أي مجتمعين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) [الحجر].

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ١٠١] كيف يصح هذا الأمر ، مع أنّا لا نعلم جميع ما فيهما ولا نراه؟

قلنا : هو عامّ أريد به ما ندركه بالبصر ممّا فيهما ، كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والمعادن والحيوانات والنبات ، ونحو ذلك ممّا يدل على وجود الصانع وتوحيده وعظيم قدرته ، فيستدلّ به على ما وراءه.

فإن قيل في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [الآية ١٠٧] ما الحكمة في ذكر المسّ في الضر ، والإرادة في الخير؟

قلنا : لاستعمال كل من المسّ والإرادة في كل من الضرّ والخير ، وأنه لا مزيل لما يصيب به منهما ، ولا رادّ لما يريده فيهما ، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ في أحدهما ، والإرادة في الآخر ، ليدلّ بما ذكر على ما لم يذكر ، مع أنه قد ذكر المسّ فيهما في سورة الأنعام ، وإنما عدل هنا عن لفظ المسّ المذكور في سورة الأنعام ، إلى لفظ الإرادة ، لأن الجزاء هنا قوله تعالى : ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [الآية ١٠٧] والرد إنما يكون في ما لم يقع بعد ، والمسّ إنما يكون في ما وقع ، فلهذا قال تعالى ثمّ : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) [الأنعام] ومعناه ، فإن شاء أدام ذلك الخير ، وإن شاء أزاله ، فلا يطلب دوامه وزيادته إلّا منه تعالى.

المعاني المجازية في سورة «يونس» (١)

قوله سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الآية ٢] وهذه استعارة. لأن المراد بالقدم هاهنا : السابقة في الإيمان ، والتقدّم في الإخلاص. والعبارة عن ذلك بلفظ القدم غاية في البلاغة ، لأن بالقدم يكون السبق والتقدم. فسمّيت قدما لذلك. وإن كان التأخّر أيضا يكون بها ، كما يكون التقدّم بخطوها ، فإنّما سمّيت بأشرف حالاتها وأنبه متصرّفاتها. وقال بعضهم : إيمانهم في الدنيا هو قدمهم في الآخرة. لأن معنى القدم في العربية : الشيء تقدّمه أمامك ليكون عدّة لك ، حتى تقدم عليه. وقال بعضهم : ذكر القدم هاهنا على طريق التمثيل والتشبيه ، كما تقول العرب : قد وضع فلان رجله في الباطل ، وتخطّى الى غير الواجب. ومعناه أنه انتقل الى فعل ذلك ، كما يتنقّل الماشي ، وإن لم يحرّك قدمه ، ولم ينقل خطاه.

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الآية ٣] وهذه استعارة. لأن حقيقة الاستواء إنّما توصف بها الأجسام التي تعلو البساط وتميل وتعتدل. والمراد بالاستواء هاهنا : الاستيلاء بالقدرة والسلطان ، لا بحلول القرار والمكان. كما يقال :

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي ، تحقيق : محمد عبد الغني حسن ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

استوى [1] فلان الملك على سرير ملكه. بمعنى استولى على تدبير الملك ، وملك مقعد الأمر والنهي. وحسن صفته بذلك ، وإن لم يكن له في الحقيقة سرير يقعد عليه ، ولا مكان عال يشار اليه. وإنما المراد نفاذ أمره في مملكته ، واستيلاء سلطانه على رعيته.

فإن قيل : فالله سبحانه مستول على كل شيء بقهره وغلبته ، ونفاذ أمره وقدرته ، فما معنى اختصاص العرش بالذكر هاهنا؟ قيل ، كما ثبت ، أنه تعالى ربّ لكل شيء. وقد قال في صفة نفسه ، ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩) [التوبة والمؤمنون / ٨٦ والنمل / ٢٦] فإن قيل : فما معنى قولنا عرش الله ، إن لم يرد بذلك كونه عليه؟ قيل كما يقال : بيت الله وإن لم يكن فيه ، والعرش في السماء تطوف به الملائكة تعبّدا ، كما أن البيت في الأرض تطوف به الخلائق تعبّدا.

وقوله سبحانه : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾ [الآية ١٠] وهذه استعارة على بعض الأقوال. كأنّ المعنى ، أنّ بشراهم بالسلامة من المخاوف عند دخول الجنّة ، تجعل مكان التحية لهم. لأن لكل داخل دارا تحيّة يلقى بها ، ويؤنس بسماعها. والسلام هاهنا من السلامة ، لا من التسليم.

وقوله سبحانه : ﴿حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها﴾ [الآية ٢٤]. وهذه استعارة حسنة ، لأن الزّخرف في كلامهم اسم للزّينة واختلاف الألوان المونقة.

وقوله سبحانه : ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها﴾. أي لبست زينتها بألوان الأزهار ، وأصابيع الرياض ، كما يقال : أخذت المرأة قناعها. إذا لبسته. وتقول لها : خذي عليك ثوبك. أي البسيه.

وقوله تعالى : ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف / ٣١] أي البسوا ثيابكم.

وقوله سبحانه : ﴿فَجَعَلْناها حَصِيداً﴾ [الآية ٢٤]. استعارة أخرى ، لأن

---

(١). ومنه قول الراجز :

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

انظر «القرطبي» ج ٧ ص ٢٢٠.

الحصيد من صفة النبات ، لا من صفة الأرض. والمعنى : فجعلنا نباتها كذلك. فاكتفى بذكر الأرض من ذكر النبات لأن النبات فيها ، ومنشأه منها.

وقوله سبحانه : ﴿كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ [الآية ٢٧]. وهذه استعارة. لأن الليل على الحقيقة لا يوصف بأن له قطعا متفرقة ، وأجزاء متنصفة. وإنما المراد ، والله أعلم ، أن الليل لو كان ممّا يتبعّض وينفصل ، لأشبه سواد وجوههم أبعاضه وقطعه. ونصب سبحانه ﴿مُظْلِماً﴾ على أنه حال من الليل. وفيه زيادة معنى. لأن الليل قد سمّي ليلا وإن كان مقمرا ، فإنما قال سبحانه : مظلما ، على أنّ التشبيه إنما وقع به أسود ما يكون جلبابا ، وأبهم أثوابا.

وقوله سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ [الآية ٦٧] وهذه استعارة عجيبة. وقد أومأنا الى نظيرها فيما تقدم. وذلك أنه سبحانه ، إنما سمّى النهار مبصرا ، لأن الناس يبصرون فيه ، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له ، على طريق المبالغة. كما قالوا : ليل أعمى وليلة عمياء. إذا لم يبصر الناس فيها شيئا لشدة إظلامها.

وقوله تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [الآية ٧١]. ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ من الإجماع. وهذه استعارة. والمعنى اشتوروا في أمركم ، وأجمعوا له بالكم ، وبالغوا في قدح الرأي بينكم ، حتى لا يكون أمركم غمة عليكم [1]. أي مغطّى تغطية حيرة ، ومبهما إبهام جهالة ، فيكون عليكم كالغمّة العمياء ، والطخية [2] الظلماء. وذلك مأخوذ من قولهم : غمّ الهلال. إذا تغطى ببعض الموانع التي تمنع من رؤيته. ثم افعلوا بي ما أنتم فاعلون.

وهذه حكاية لقول نوح عليه‌السلام لقومه. ويخرج الكلام منه على الاستقلال لكيدهم ، وقلة الحفل باستجماعهم واحتشادهم.

وقوله سبحانه : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ [الآية ٨٨].

---

(١). ومنه قول الشاعر الجاهلي طرفة :

لعمرك ما أمري عليّ بغمّة نهاري ، ولا ليلي عليّ بسرمد

(٢). الطّخية : الظلمة.

وهذه استعارة لأنّ حقيقة الطمس محو الأثر. من قولهم : طمست الكتاب. إذا محوت سطوره. وطمست الريح ربع الحيّ. إذا محت رسومه. فكأنّ موسى عليه السلام ، إنما دعا الله سبحانه بأن يمحو معارف أموالهم بالمسح لها ، حتى لا يعرفوها ، ولا يهتدوا إليها ، وتكون منقلبة عن حال الانتفاع بها ، لأن الطمس تغيّر حال الشيء الى الدّثور والدّروس.

وقوله تعالى : ﴿وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ استعارة أخرى. إما أن يكون المراد بها ما يراد بالختم والطبع. لأن معنى الشدّ يرجع الى ذلك. أو يكون المراد به تثقيل العقاب على القلوب ، بالإيلام لها ، ومضاعفة الغمّ والكرب عليها. ويكون ذلك على معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «اللهم اشدد وطأتك على مضر» [1] أي غلّظ عليهم عقابك ، وضاعف عليهم عذابك.

وقوله سبحانه : ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥) وهذه استعارة. وقد أومأنا الى مثلها فيما تقدّم. والمراد بها : استقم على دينك ، واثبت على طريقك. وخصّ الوجه بالذكر ، لأنه به يعرّف توجّه الجملة نحو الجهة المقصودة ، وقد يجوز أن يكون المراد بذلك ، والله أعلم ، أقم وجهك أي قوّمه نحو القبلة التي هي الكعبة. مستمرّا على لزومها ، وغير منحرف عن جهتها.

---

(١). هذا الحديث في مسند ابن حنبل ج ١٢ ص ٢٥٠ بتحقيق المحدّث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر. وقد ذكر الشيخ أن إسناده صحيح. وقد رواه ابن سعد في الطبقات ، ورواه مسلم والبخاري في صحيحيهما. ونص الحديث في المسند : (لما رفع النبي (ص) رأسه من الركعة الاخيرة من صلاة الصبح ، قال : اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكّة. اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف).

سورة هود

١١

أهداف سورة «هود» [١]

تمهيد عن الوحدة

الموضوعية للسورة

هود ﵇ هو أول رسول الى قوم عاد ، وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح [٢] ، وقد تحدّث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدّث عنهم من رسل الله الكرام وقد ذكر باسمه خمس مرات في هذه السورة التي سميت باسمه.

وسورة هود من السور المكّيّة ، شأنها كشأن السّور المكّيّة الأخرى : تقرير أصول الدين ، وإقامة الأدلة عليها وردّ الشّبه التي كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها ، والحديث عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وهي الموضوعات نفسها التي تحدثت عنها السورة السابقة ، سورة يونس.

عناصر الدعوة الإلهية

والمتدبّر لسورة هود يرى أنها قررت عناصر الدعوة الإلهية ـ وهي التوحيد والرسالة والبعث ـ من طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للايمان ، والنفوس النافرة منه. وقد عرضت لذلك في أربع وعشرين آية يختم بها الربع الأول منها ، ثمّ أخذت السورة تتحدّث عن جملة من الرسل السابقين لبيان وحدة الدعوة الإلهية ، وتسلية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإنذارا للمكذّبين.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها» ، لعبد الله محمود شحاته ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

(٢). محمود شلتوت ، الى القرآن الكريم ص ٧٧.

ويستغرق قصص هؤلاء الرسل الكرام معظم السورة ، فتذكر قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى (ع). وطريقة العرض هنا تختلف عنها في سورة أخرى ، والحلقات التي تعرض من كل قصة تختلف كذلك لاختلاف السياق ، فيمتنع التكرار ، فيما يخيل أنه تكرار للقارئ العابر للقرآن الكريم.

هذا القصص الذي يستغرق معظم سورة هود : مرتبط كلّ الارتباط بما قبله وما بعده من السورة ، متناسق مع السياق حتى في التعبير اللفظي أحيانا ، فالقصة والمشهد والعظة والتعقيب تتناسق كلها تناسقا عجيبا ، وتكشف عن بعض وظيفة القصة في القرآن الكريم.

تبدأ سورة هود بقوله تعالى.

﴿الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٢).

وهذا المطلع ، يقرر أن المهمة الأولى للنبي هي الدعوة إلى توحيد الله ، وينذر بالعذاب من يكذّب بدعوة الله. ويبشّر بالنعيم من آمن بها. وقصص السورة كله يساق لتوكيد هذين المعنيين ، فيرد في ألفاظ تكاد تكون واحدة يقولها كل رسول. وكأنما يقولها ويمضي ، حتّى يأتي أخوه فيقولها كذلك ويمضي ، والمكذّبون هم المكذّبون.

تبدأ قصة نوح بقوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٦).

ثمّ بقوله جلّ وعلا حكاية على لسان هود وصالح وشعيب (ع) :

﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ [الآية ٥٠].

﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ [الآية ٦١].

﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ [الآية ٨٤].

ونهايات القصص كلّها ، هلاك المكذّبين وعقوبة المعتدين ، ووعيد لجميع المتكبّرين عن الإيمان بالحق ، والانقياد للعقيدة الصحيحة ، قال تعالى :

﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢).

* * *

وتتضمّن سورة هود إثبات الوحي ، وتنزيل القرآن من عند الله سبحانه ، وتثبيت الرسول (ص) ، وتقوية يقينه مع من آمن به من المؤمنين ، حتّى لا يضيق صدرهم بالمكذّبين والمستهزئين.

ثم يختم القصص في سورة هود بقوله تعالى :

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠).

وهكذا نجد أن القصة في القرآن الكريم ، تؤدّي دورا متناسقا مع موضوع السورة وسياقها ، وتعرض بالطريقة والعبارة اللتين تحققان هذا التناسق الجميل الدقيق.

١ ـ العقيدة والايمان بالله

يتضمّن الدرس الأول من السورة : دعوة المشركين إلى توحيد الله واستغفاره والتوبة ممّا هم فيه ، ويبشّرهم إن فاءوا الى هذا بمتاع حسن وجزاء طيّب ، وينذر المعرضين عن الدعوة بعذاب كبير ، ويقرر عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، والرجعة الى الله لتحقيق البشرى والإنذار ، ثم يعرض مشهدا لهم وهم يحاولون التخفّي عن مواجهة الرسول ، وهو يجيبهم بالبيان ، يعقّب عليه بعلم الله الشامل اللطيف الذي يتابعهم وهم أخفى ما يكونون عن العيون ، ويتصل بهذا المعنى علم الله بكلّ دابة في الأرض حيث تكون. كما يتصل به الحديث عن خلق السماوات والأرض.

ثم يعرض صورا من النفس البشرية القلقة المتعجّلة في السراء والضراء. ومع ذلك فهم يستعجلون العذاب إذا ما أخّر عنهم الى حين.

ثم ينتقل الى التحدي بالقرآن الذي يقولون إنه مفترى من دون الله ، وتهديد من لا يؤمنون بالآخرة ، ومن يفترون على الله الكذب ، ويعرض مشهدا من مشاهد القيامة يتجلى فيه مصداق هذا الوعيد ، ومصداق البشرى للمؤمنين.

ومن المعالم البارزة في هذا الدرس ما يأتي :

١ ـ تقرير عقيدة التوحيد ، وسوق الأدلة على قدرة الله سبحانه الذي أبدع الكون على غير مثال سابق.

وقد تتساءل عن سر عناية القرآن بعقيدة التوحيد ، وتكرير الدعوة إليها في كثير من آياته.

والجواب أنه ما كان لدين أن يقوم في الأرض ، وأن يقيم نظاما للبشر قبل أن يقرر هذه الدعوة.

فالتوحيد مفترق الطريق بين الفوضى والنظام ، بين الخرافة والإيمان ، بين الهوى واليقين.

والاعتراف بوجود الله ضروري في الفطرة السليمة ، لأنّ الله خلق الإنسان ، وأودعه نفخة مقدسة من الروح ، ولذلك تتجه الفطرة الى الله خالقها وبارئها لتروي ظمأها اليه ، وتلبي نداء الشوق الكامن إليه في أعماقها.

٢ ـ عناية الآيات ، بأن تلفت نظر الإنسان الى ما في الكون من آيات القدرة ، ودلائل الإعجاز ، وعجائب الصنع ، ومواطن الاعتبار. فهذا الكون الفسيح الشاسع الأرجاء وما فيه من قوى منظورة لنا وغير منظورة ، وما يخضع له من نظام لا يحتمل الخلل ، ودقة لا تسمح بالعبث ، دليل على أن هذا الكون لم يوجد من طريق صدفة عمياء ، بل وجد لأنّ خالقا حكيما هو الذي أوجده.

٣ ـ إثبات علم الله بكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون ، وتقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا العالم الفسيح ، وتيسير الأسباب للسعي والحركة وعمارة الكون ، ومن الآيات المشهورة بين الناس قوله تعالى :

﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ (٦).

وهي تصور علم الله الشامل ، المحيط بكل ما يدب على الأرض ، من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة وحشرة وطير. فما من دابة من هذه الدواب إلّا وعند الله علمها ، وعلى الله رزقها ، وهو سبحانه يعلم أين تستقر وأين تكمن ، ومن أين تجيء وأين تذهب. وكل فرد من أفرادها مقيّد في هذا العلم الدقيق. إنها صورة متّصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات ، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصوّرها بخياله الإنساني ، فلا يطيق. فسبحان من أحاط بكلّ شيء علما.

٢ ـ إعجاز القرآن

يلمح القارئ لهذه السورة قوة أسلوبها وترابط أفكارها ، وتوالي حملاتها على الكفار ، حتّى كأنها جيش كامل مشتمل على عديد من الكتائب والفصائل والجنود.

إنها دعت ، في الدرس السابق ، الى التوحيد ، ولفتت الأنظار الى قدرة الله البالغة وعلمه المحيط بكل شيء.

وهي ، هنا ، تسوق دليلا آخر على صدق عقيدة التوحيد ، وصدق رسالة محمد (ص) ، هذا الدليل هو إعجاز هذا القرآن وروعته وقوته. ويتجلى هذا الاعجاز فيما يلي :

١ ـ إخباره عن الأمم الماضية التي لم يعاصرها محمد (ص) ، ولم يعرف تاريخها ولم يقرأ عنها.

٢ ـ اشتماله على أصول التشريع ، وسياسة الخلق ، وقواعد الحكم ، وآداب المعاملة ، ونظام العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة.

٣ ـ إخباره عن أنباء لاحقة تأكّد صدقها ، وتحقّق وقوعها.

* * *

لقد ادّعى كفّار مكّة أنّ محمّدا (ص) قد اختلق القرآن من عنده ، ولم ينزل عليه من السماء ، فتحدّاهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات. أي ليختلقوا كما اختلق محمد (ص) ، فهم عرب مثله ، وهم أرباب الفصاحة والبيان ، والقرآن مؤلّف من حروف وكلمات وجمل يعرفونها ويؤلفون من مثلها كلامهم ، فالعجز عن الإتيان بمثل القرآن دليل على أنه ليس من صنع بشر ، وليس من افتراء محمد (ص) ، ولكنه كلام الله العليم الخبير.

وقد سمح لهم القرآن أن يستعينوا بمن شاؤوا ، من الشركاء والفصحاء والبلغاء والشعراء والإنس والجن ، ليشاركوهم في تأليف هذه السور ، قال تعالى :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (١٣).

وقد سبق أن تحدّاهم القرآن بسورة واحدة في سورة يونس ، فلما ذا تحدّاهم بعد ذلك بعشر سور.

قال المفسرون القدامى ، إن التحدي كان على الترتيب : بالقرآن كلّه ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة.

ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور.

وترتيب الآيات في النزول ليس من

الضروري أن يتبع ترتيب السور ، فقد كانت الآية تنزل فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول ، إلّا أن هذا يحتاج الى ما يثبت هذا الترتيب ، وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود. والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز.

وقد حاول صاحب تفسير المنار ، أن يجد لهذا العدد (عشر سور) علة فأجهد نفسه طويلا ، ليقرّر أنّ المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطوّل الى وقت نزول سورة هود كانت عشرا ، فتحدّاهم بعشر سور (١) ، وهو احتمال وجيه.

ويرى بعض المفسرين المحدثين : أنّ التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن. او ائتوا بسورة. أو بعشر سور. دون ترتيب زمني ، لأنّ الغرض كان التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن ، لا بمقداره كله ، أو بعضه ، أو سورة منه على السواء ، فالتحدّي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره ، والعجز كان عن هذا النوع ، لا عن المقدار. وعندئذ يستوي الكلّ والبعض والسورة. ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة. فهو الذي يجعل من المناسب ان يقول : «سورة» ، أو «عشر سور» ، أو «هذا القرآن». ونحن اليوم ، لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن.

٣ . القصص في سورة هود

القصص في هذه السورة هو قوامها ، إذ عدد آياتها (١٢٣) مائة وثلاث وعشرون آية ، يشتمل قصص الأنبياء منها على (٨٩) تسع وثمانين آية.

لكن القصص لم يجئ فيها مستقلا ، بل جاء مصداقا للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها ، وهي التوحيد والبعث والجزاء.

وقد جال السياق جولات متعددة حول هذه الحقائق : جال في ملكوت السماوات والأرض ، وفي جنبات النفس ، وفي ساحة الحشر ، ثم أخذ

---

(١). تفسير المنار ١٢ / ٣٢ . ٤١.

يجول في جنبات الأرض ، وأطوار التاريخ مع قصص الماضين.

والقصص هنا مفصّل بعض الشيء ، لأنه يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التي وردت في مطلع السورة. والتي يجيء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذّبون هم المكذبون وكأنما طبيعتهم واحدة ، وعقليّتهم واحدة على مدار التاريخ. ويتّبع القصص ، في هذه السورة ، خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثمّ صالح ، ويلم بإبراهيم في الطريق إلى لوط ثم شعيب ثم إشارة الى موسى ؛ ويشير الى الخط التاريخي ، لأنه يذكّر التالين بمصير السالفين.

وليس من قصدنا أن نذكر قصص هؤلاء الأنبياء الكرام ، فذلك ما لا يتّسع له المجال ، ولكن واجبنا نحو سورة هود ، يحتّم علينا أن نذكر لمحات من سيرة هؤلاء الرسل.

قصة نوح (ع)

لقد ألمحت سورة يونس إلى قصة نوح فذكرت الحلقة الاخيرة منها ، وهي غرق الكافرين ونجاة المؤمنين.

ولكن سورة هود تعرضت لقصة نوح بمزيد من التفصيل خلال أربع وعشرين آية : من الآية ٢٥ الى الآية ٤٩.

تناولت دعوة نوح الى الله ، وجداله مع قومه وصنعه السفينة ، وتعرّضه لسخرية قومه ، ثم فوران التنور ، واكتساح الطوفان ، وركوب السفينة تسير بأمر الله وقدرته :

﴿بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها﴾ [الآية ٤١].

ثم تهدأ العاصفة ، وتبلع الأرض ماءها ، وتمسك السماء عن المطر ، وتعود الحياة سيرتها ، فيناجي نوح (ع) ربّه بعد غرق ولده ، قائلا :

﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [الآية ٤٥].

أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ، فيجيبه الله سبحانه :

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ [الآية ٤٦].

والمعنى : إنه عمل عملا غير صالح ، فهو من صلب نوح وذريّته ، إلا أنه منقطع الصلة به في نسب الإيمان ، وصلة العمل الصالح. وهنا يتنبه نوح الى حقيقة العدل الإلهي ، ويرى أن عقاب الله عامّ لكل الكافرين ، وأن نعيمه عام لجميع المؤمنين ، فليس بين

الله وبين أحد من عباده نسب ولا صلة ، فالخلق كلهم عباد الله ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ [الحجرات / ١٣].

ويكون التعقيب على قصة نوح معبّرا عن أهداف القصص القرآني ، مبشّرا بالنجاة والنصر للمؤمنين ، منذرا بالهلاك والعذاب للكافرين. قال تعالى :

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩).

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآني في هذه السورة ما يأتي :

١ ـ حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون. فهذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه النبي (ص) ، وما كان معلوما لقومه ، ولا متداولا في محيطة وإنّما هو الوحي من لدن حكيم خبير.

٢ ـ وحقيقة وحدة العقيدة ، من لدن نوح أبي البشر الثاني ، هي نفسها ، والتعبير عنها يكاد يكون واحدا ، مشتملا على الدعوة الى الايمان بالله ، والدعوة الى مكارم الأخلاق ، والبعد عن الرذائل والمنكرات.

٣ ـ وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحيد (والعاقبة للمتقين) ، فهم الناجون وهم المستخلفون.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) [الأنبياء].

قصة هود

تناول الدرس السابق قصة نوح عليه‌السلام ونجاته ومن معه في الفلك ، ثم هبوطه على الأرض ، مستحقّا لبركات الله عليه وعلى المؤمنين من ذريته ، أمّا المكذّبون من ذرّيته فلهم عذاب أليم ، وقد دارت عجلة الزمن ، ومضت خطوات التاريخ وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرّقوا في البلاد ، ومن بعدهم ثمود ، ممّن حقت عليهم كلمة الله.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨).

فأما عاد ، فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف ، «وال حقف كثيب الرمل المائل» في جنوب الجزيرة العربية.

وأما ثمود ، فكانت قبيلة تسكن مدائن الحجر - بين تبوك والمدينة - وبلغت كل منهما في زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع. ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممّن حقت عليهم كلمة الله ، بما عتوا عن أمر الله واختاروا الوثنية على التوحيد ، وكذّبوا الرسل شرّ تكذيب ، وفي قصّتهم هنا ، مصداق ما في مطلع السورة من بشارة للمؤمنين ، وإنذار للكافرين.

* * *

وقد ذكرت قصة هود في سورة الأعراف من الآية ٦٥ إلى الآية ٧٢ ، وفي سورة الشعراء من الآية ١٢٣ إلى الآية ١٤٠ ، ثم ذكرت هنا في سورة هود من الآية ٥٠ الى الآية ٦٠.

وقد نتساءل : لما ذا سمّيت هذه السورة بسورة هود ، مع أنها اشتملت على عدد كبير من قصص الأنبياء ، منهم نوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وموسى عليهم‌السلام ، والجواب أن قوم هود (ع) قد حباهم الله سبحانه ، نعما وافرة وخيرات جليلة ، وأرسل السماء عليهم بالمطر ، فزرعوا الأرض وأنشأوا البساتين ، وشادوا القصور ، ومنحهم الله فوق ذلك بسطة في أجسامهم وقوّة في أبدانهم. وكان الواجب عليهم أن يفكّروا بعقولهم وأن يشكروا الله على هذه النّعم ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل اتّخذوا أصناما يعبدونها من دون الله ، ثم عثوا في الأرض فسادا وظلما وعدوانا. ولما جاءهم هود يدعوهم إلى الله ، ويأمرهم بتقواه وطاعته ، ويحذّرهم من البغي والعدوان ، لم يصيخوا لدعوته ، ولم يؤمنوا برسالته.

وإذا كانت السورة تسمّى بأغرب شيء فيها ، فإن الغرابة في قصة هود هي أن قومه «عادا» كانوا أكثر فضلا ونعمة ، ولكنهم قابلوا هذه النعمة بالجحود والكنود.

وتذكر الآيات معارضتهم لهود وإنكارهم عليه ، واعتقادهم أن آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرّأ هود من آلهتهم ويتحدّاهم ، ويستنهض همتهم في أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وأنه لن يعبأ بهم ولا بجمعهم ، قال هود ، كما ورد في التنزيل :

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها) [الآية ٥٦].

وهي صورة محسوسة للقوة الإلهية. فالناصية أعلى الجبهة ، والله تعالى

وحده صاحب القهر والغلبة والتصريف في كل ناصية ، وهي صورة حسّيّة تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، حين استكبروا في الأرض بغير الحقّ :

﴿وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ (١٥) [فصّلت].

وتذكر الآيات هنا خاتمة أمر هود مع قومه ، على حسب سنة الله في نصرة أوليائه وخزي أعدائه. قال تعالى :

﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (٦٠).

* * *

وتستمرّ «سورة هود» فتعرض قصة صالح مع قومه ، ودعوته لهم إلى دين الله ، وتودّده إليهم بقوله كما ورد في التنزيل :

﴿وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ﴾ [الآية ٦٤].

وكانت ناقة ضخمة تشرب من الماء في يوم ، وتتركه فلا تذوقه في اليوم الآخر. ولكنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، فنجّى الله صالحا ومن معه من المؤمنين ، وأرسل صيحة عاتية أهلكت الكافرين ، فصاروا جثثا هامدة ، وأصبحت ديارهم خاوية خالية :

﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ (٦٨).

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «هود» [١]

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة هود بعد سورة يونس ، ونزلت سورة يونس بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة هود في ذلك التاريخ أيضا.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة هود فيها ، وتبلغ آياتها ثلاثا وعشرين ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن مثل سورة يونس ، ولهذا ذكرت بعدها لتكمل الغرض منها ، ولتستوفي جانب القصص الذي ذكر فيها ، وقد ابتدأت بإثبات تنزيل القرآن بالتنويه بشأنه وبيان حاجتهم إليه ، وبتحدّيهم به كما تحدّوا به في سورة يونس ، ثم انتقل من هذا الى القصص لتثبيت النبي (ص) على تكذيبهم له ، ثم ختمت بما يناسب هذا السياق فيها.

إثبات تنزيل القرآن

الآيات [١ ـ ٢٤]

قال الله تعالى : ﴿الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١) ، فأقسم بهذه الحروف انه كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت فصولا : حلالا وحراما ، ترغيبا وترهيبا ، ونحو ذلك ، وأنه أنزله كذلك ليعبدوه ، ويستغفروه ويتوبوا إليه. ليمتعهم متاعا

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن» ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

حسنا الى أجل مسمّى ، ثم أوعدهم ، إن تولّوا عنه ، بعذاب يوم كبير ، وذكر أن إليه مرجعهم وهو على كل شيء قدير ، وأنه يعلم ما يسرّون وما يعلنون من أعمالهم ، وما من دابة في الأرض إلا عليه رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها ، وكل ذلك عنده في كتاب مبين ؛ ثم ذكر أنه سبحانه هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ليبلوهم : أيّهم أحسن عملا ، فلا بدّ لهم من يوم يحاسبون فيه على أعمالهم ؛ ثم ذكر أن النبي (ص) إذا أخبرهم مع هذا بأنهم مبعوثون بعد الموت ، يزعمون أن هذا سحر باطل لا حقيقة له ، وأنه إذا أخّر عنهم جلّ جلاله هذا العذاب الذي يوعدهم به ، يقولون على سبيل الاستهزاء : (ما يحبسه؟). وأجابهم بأنه يوم يأتيهم لا يصرف عنهم ويحيق بهم ما كانوا به يستهزئون. ثم أراد أن يبين أنه لو عجّل لهم هذا العذاب لم يؤمنوا به ، لأن الواحد منهم إذا أذاقه رحمة ثم نزعها منه يبالغ في اليأس والكفر ، فإذا أذاقه نعماء بعد هذا ، ظنّ أن السيئات ذهبت عنه الى غير عودة وبالغ في الفرح والفخر ، ومثل هذا لا يتّعظ بنقمة ولا نعمة ، ثم استثنى منهم الذين صبروا لأنهم لا ييأسون في النقمة ولا تبطرهم النعمة ، ووعدهم مغفرة وأجرا كبيرا.

ثم عاد السياق الى الحديث عن القرآن ، فذكر تعالى للنبي (ص) أنه لعله يترك بعض ما يوحي إليه منه ويضيق به صدره لأنهم يطلبون آية تدل على أنه منزل من عنده سبحانه ، كأن ينزل عليه كنزا أو يجيء معه ملك ؛ ثم ذكر أنه ليس إلّا نذيرا لهم ، فلا يطلب منه إلّا أن يبلّغهم ، وهو على كل شيء وكيل ؛ ثم ذكر أنّهم يزعمون أنه افتراه عليه ، وأمره أن يتحدّاهم بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وأمرهم أن يدعوا من استطاعوا ليساعدوهم على الإتيان بها ، ثم أمرهم إن لم يستجيبوا لهذا التحدّي ، أن يعلموا أنه إنما أنزل بعلمه ، وأنه لا إله إلا هو ، لأنهم لم يستطيعوا هم وآلهتهم أن يأتوا بما تحدّاهم به ، وطلب منهم أن يسلموا بعد عجزهم عنه ؛ ثم ذكر أن الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الإيمان به يوفّي إليهم أجور أعمالهم فيها ، ولا يكون لهم في الآخرة إلا النار ، ويحبط ما صنعوا فيها وتبطل أعمالهم ، لأنهم

وفّوا أجورها في دنياهم ؛ ثم ذكر أن من كان على بيّنة من ربّه ـ وهو القرآن ـ ويتلوه شاهد منه ـ وهو الإنجيل ـ ومن قبله كتاب موسى ـ وهو التوراة ـ لا يمكن أن يكون جزاؤه كغيره ، أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فالنار موعده ؛ ثم نهى النبي (ص) على سبيل التعريض أن يكون في مرية منه : ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧) ثم ذكر أنه لا يوجد أظلم ممّن افترى عليه كذبا بشركهم ، وأنهم يعرضون عليه ، ويقول الأشهاد من الملائكة الذين كانوا يراقبونهم في دنياهم : ﴿هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) ثم يذكرون أنهم كانوا يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ، وأنهم لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء يمنعون عنهم ، ولكنه أراد إمهالهم ليضاعف العذاب لهم ، وأنهم ما كانوا يستطيعون سماع القرآن ، وما كانوا يبصرون هديه ، وأنهم خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ، وأنهم في الآخرة هم الأخسرون ؛ ثم أتبع هذا بوعد المؤمنين بأنهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، وضرب مثلا للفريقين فقال سبحانه : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤).

تثبيت النبي بالقصص

على تكذيبهم

الآيات [٢٥ ـ ٩٩]

ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٥) فذكر سبحانه أنه أرسل نوحا الى قومه لينذرهم قبل أن يأخذهم بعقابه. فأمرهم ألا يعبدوا إلا الله لأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم ، فأجابه الذين كفروا من قومه بأنهم لا يرونه إلا بشرا مثلهم ، ولا يرونه اتّبعه إلا أراذلهم بادي الرأي ، ولا يرون لهم عليهم من فضل. بل يظنونهم كاذبين في دعواهم ، ثم ذكر أنه أجابهم بأنه على بيّنة من ربّه وقد أتاه رحمة من عنده ، فإذا كان هذا قد عمّي عليهم فلا يلزمهم أن يؤمنوا به وهم له كارهون. وقد فصّل في قصته هنا ما فصل ، وذكر فيها ما لم يذكره في قصة يونس من الأخبار والحكم والمواعظ ؛ إلى أن ختمها ببيان ما كان من عقابه لمن

كذّبه ، وأنه سبحانه نجّاه هو ومن آمن به وبارك عليه وعلى أمم منهم يهتدون بهديهم ، ومنهم أمم سيمتّعهم في الدنيا ثم يمسهم منه عذاب أليم : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩).

ثم ذكر أنه أرسل الى عاد أخاهم هودا فأمرهم سبحانه بعبادته وحده ، وقد مضت قصته معهم في سورة الأعراف. لكن ما ذكر منها هنا يخالف ما ذكر منها هناك في السياق والأسلوب والزيادة والنقص ، وقد ذكر في ختامها أنه لما جاء أمره بهلاكهم نجّى هودا ومن آمن به ، وأنهم لا يذكرون إلا بأنهم جحدوا بآياته وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبّار عنيد : ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (٦٠).

ثم ذكر أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحا ، فأمرهم سبحانه أن يعبدوه وحده ، وقد مضت قصتهم أيضا في سورة الأعراف ، والفرق بينها في السورتين كالفرق بين قصة عاد فيهما ، وقد ذكر في ختامها أنه ، لما جاء أمره بهلاكهم نجّى صالحا ومن آمن به ، وأخذت الكافرين الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين : ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ (٦٨).

ثم ذكر أنه جاءت رسله إبراهيم بالبشرى ، وأنه قدّم لهم بعد السلام عجلا حنيذا [١] ليأكلوا منه فلم تمتدّ إليه أيديهم ، فلما رأى ذلك نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فطمأنوه وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، وكانت امرأته قائمة فضحكت فبشّروها بولد يولد لها من إبراهيم وهو إسحاق ، وبولد يكون لإسحاق يكون هو يعقوب ؛ ثم ذكر أن إبراهيم طلب منهم أن يؤخّروا عذاب قوم لوط لعلّهم يؤمنون به ، وأنهم أمروه أن يعرض عن هذا الطلب ، لأنه قد جاء أمر الله بهلاكهم ، ثم ذكر قصة قوم لوط وقد مضت في سورة الأعراف ، والفرق بينها في السورتين هو ما سبق في قصة عاد وثمود ، وقد ذكر جلّ وعلا في ختامها ، أنه أمر لوطا وأهله إلا امرأته

---

(١). اى مشويا

أن يخرجوا من قريتهم ، ثم أمطر عليها حجارة من سجّيل منضود : ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣).

ثم ذكر أنه أرسل الى مدين أخاهم شعيبا ، فأمرهم سبحانه أن يعبدوه وحده ، وقد مضت قصتهم في سورة الأعراف ، والفرق بينها في السورتين هو ما سبق في قصة عاد وثمود وقوم لوط ، وقد ذكر في ختامها ، أنه لما جاء أمره بهلاكهم نجّى شعيبا ومن آمن به ، وأخذت الكافرين الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين : ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (٩٥) ثم ذكر أنه أرسل موسى الى فرعون وقومه وقد مضت قصّتهم في سورة يونس ، ولكنه لم يفصّلها هنا كما فصّلها هناك ، وإنما ذكر تعالى أنهم خالفوه واتّبعوا أمر فرعون ، فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود : ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩).

الخاتمة

الآيات [١٠٠ ـ ١٢٣]

ثم قال تعالى : ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠) فذكر أن ما سبق من أنباء القرى يقصّه عليه وبعضها لا تزال آثاره قائمة ، وبعضها ذهبت آثاره كلّها ، وأنه لم يظلمهم بهذا ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، باتخاذهم آلهة غيره ، فلم تدفع عنهم شيئا ؛ ثم ذكر أن في هذا دليلا لمن خاف عذاب الآخرة ، وأنه يوم يجمع له الناس وما يؤخره إلا لأجل معدود ، إلى غير هذا مما ذكره من أحوال الأشقياء والسعداء فيه.

ثم نهى النبي (ص) ، على سبيل التعريض ، أن يكون في مرية ممّا يعبده قومه ، وذكر أنهم لا يعبدون إلا كما يعبد الذين قصّ أخبار هلاكهم ، وأنه سيوفّيهم نصيبهم من العذاب أيضا ؛ ثم ذكر أنه قد أنزل على موسى التوراة من قبله ، فاختلفوا فيها كما اختلف قومه فيما أنزل اليه ، وأنه لو لا أن كلمته سبقت بتأخير عذابهم لقضى به بينهم ، وأنه جلّت قدرته ، لا بد أن يوفّي كلّا من الفريقين جزاء أعمالهم : ﴿إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١١) ثم أمره أن يستمر على استقامته ، كما أمر هو ومن تاب معه ، ونهاهم أن يطغوا كما يطغى المشركون ، أو يركنوا إليهم لئلّا تمسّهم النار ، ولا يجدون من دونه أولياء ثم لا

ينصرون. وأمره أن يستمر على إقامة الصلاة في أوقاتها ، وأن يصبر على تكذيب قومه له : ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥).

ثمّ عاد سبحانه الى أولئك الذين قصّت أخبار هلاكهم ، فذكر سبحانه أنه لم يكن فيهم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممّن أنجاهم ، وأنهم اتّبعوا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ، وأنه لم يكن ليهلك تلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ، وأنه لو شاء لجعلهم مصلحين جميعا ولا يزالون مختلفين إلّا من رحمه ، ولذلك خلقهم : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩).

ثم ذكر للنبي (ص) ما قصّ من أنباء الرسل ليثبّت به فؤاده ، وأنه جاءه في هذه السورة القصص الحقّ وموعظة وذكرى للمؤمنين ، وأمره أن يخبر الذين لا يؤمنون بما جاء فيه من الوعيد بالعذاب ، أن يعملوا ما يقدرون لمنعه ، لأنه سيعمل لتحقيقه ، وأمرهم أن ينتظروه لأنه والمؤمنين ينتظرونه لهم : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣).

أسرار ترتيب سورة «هود» [1]

أقول : وجه وضعها بعد سورة يونس : أن سورة يونس ذكر فيها قصة نوح مختصرة جدا ، مجملة [2] ، فشرحت في هذه السورة وبسّطت بما لم تبسطه في غيرها من السور ، ولا في سورة الأعراف على طولها ، ولا في سورة نوح التي أفردت لقصّته. فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في سورة يونس [3]. فإن قوله هناك : ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ﴾ [يونس / ١٠٩] ، هو عين قوله هنا : ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١). [فكان أول هود تفصيلا لخاتمة يونس].

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب : «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨ ه‍ / ١٩٧٨ م.

(٢). وذلك من قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس / ٧١] إلى ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٣) [يونس].

(٣). وذلك من قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ﴾ [الآية ٢٥] إلى ﴿قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ﴾ [الآية ٤٨].

مكنونات سورة «هود» [1]

١ . ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ [الآية ١٧].

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو العالية [2] : من كان على بيّنة : محمد (ص) ؛ والشاهد : جبريل.

وقال زيد بن أسلم : من : محمّد ؛ والشاهد : القرآن.

وقال الحسين [3] بن علي : من : المؤمن ؛ والشاهد : محمد (ص). أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

وأخرج عن محمد بن الحنفية [4] قال : قلت لأبي : يا أبت : ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ إنّ الناس يقولون : إنك أنت هو.

قال : وددت أني أنا هو. لكنه لسانه [5].

وأخرج عن عباد بن عبد الله قال : قال علي : ما في قريش أحد ، إلّا وقد نزلت فيه آية.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» للسّيوطي ، تحقيق إياد خالد الطبّاع ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرخ.

(٢). هذا القول صحّحه ابن كثير.

(٣). كذا في الطبري في «تفسيره» ١٢ / ١٠.

(٤). محمد بن الحنفية : هو ابن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، لكنه نسب الى أمه ، كان ثقة عالما من أفاضل أهل بيته ، مات بعد الثمانين.

(٥). المثبت من «تفسير الطبري» ١٢ / ١٠ ؛ ووقع في «الدر المنثور» ٣ / ٣٢٤ : و «مجمع الزوائد» ٧ / ٣٧ : «لسان محمد (ص)». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه خليد بن دعلج ، وهو متروك.

قلت له : فما نزل فيك؟ قال : ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ [١].

وفي «العجائب» للكرماني :

قيل : (الشاهد) : ملك يحفظه [٢].

وقيل : أبو بكر.

وقيل : الإنجيل [٣].

٢ ـ ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهادُ﴾ [الآية ١٨].

يأتي في سورة غافر [٤].

٣ ـ ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [الآية ١٩].

قال السدّيّ : هو محمد (ص).

أخرجه ابن أبي حاتم.

٤ ـ ﴿وَفارَ التَّنُّورُ﴾ [الآية ٤٠].

أخرجه ابن أبي حاتم عن علي قال : فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة.

وأخرج عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَفارَ التَّنُّورُ﴾.

قال : العين التي بالجزيرة عين الوردة.

وأخرج عن قتادة قال : التنوّر : أشرف الأرض ، وأعلاها ، عين بالجزيرة : عين الوردة [٥].

وأخرج من وجه آخر عن ابن عباس قال : ﴿وَفارَ التَّنُّورُ﴾ بالهند.

٥ ـ ﴿وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠).

قال ابن عباس : كان معه في السفينة ثمانون رجلا ، معهم أهلوهم ، أحدهم : جرهم [٦].

أخرجه ابن أبي حاتم [٧].

---

(١). ضعّفه ابن كثير في «تفسيره».

(٢). أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٢ / ١٢ عن مجاهد ، وهو جبريل كما في روايات أخر فيه.

(٣). قال الطبري بعد أن أورد الأقوال في تفسير هذه الآية ١٢ / ١٢ : «وأولى هذه الأقوال التي ذكرها بالصواب في تأويل قوله تعالى : ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ قول من قال : هو جبريل لدلالة قوله سبحانه في الآية نفسها : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً﴾ على صحة ذلك ، وذلك أن نبي الله (ص) لم يتل قبل القرآن كتاب موسى ، فيكون ذلك دليلا على صحة قول من قال : عنى به لسان محمّد (ص) ، أو محمّدا نفسه ، أو عليّا ، على قول من قال عنى به عليّا ، ولا يعلم أن أحدا كان تلا ذلك قبل القرآن ، أو جاء به ممّن ذكر أهل التأويل أنه عني بقوله تعالى : ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ غير جبرئيل عليه‌السلام.

(٤). في الآية (٥١) وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ (٥١).

(٥). عين الوردة : موضع على مقربة من الكوفة. انظر «الروض المعطار» : ٤٢٣.

(٦). وكان لسانه عربيّا ، كما في «الدر المنثور» ٣ / ٣٣٣.

(٧). والطبري ١٢ / ٢٦ ـ ٢٧.

وأخرج في آثار عن قتادة ، وكعب الأحبار ، ومحمد بن عبّاد بن جعفر ، ومطر ، وغيرهم : أنه كان معه اثنان وسبعون مؤمنا ، وهو ، وزوجته ، وأولاده الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ؛ وزوجات الثلاثة ، وأنه ركبها في عشر خلون من رجب ، ونزل في عشر خلون من المحرم [1].

٦ . ﴿وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [الآية ٤٢].

قال قتادة : كان اسمه كنعان. أخرجه ابن أبي حاتم.

وقيل : يام. حكاه السّهيلي.

فائدة : وقع السؤال كثيرا ، هل كان ماء الطوفان عذبا ، او ملحا؟ لم نعبأ بذلك.

ثم رأيت ما يدل على أنه كان عذبا. أخرج ابن أبي حاتم ، من طريق نوح ابن المختار ، عن أبي سعيد عقيص [2] قال : خرجت أريد أن أشرب ماء المر ، فمررت بالفرات ، فإذا الحسن والحسين ؛ فقالا : يا أبا سعيد ، أين تريد؟

قلت : أشرب ماء المرّ.

قالا : لا تشرب ماء المر ، فإنه لما كان زمن الطوفان أمر الله الأرض أن تبلع ماءها ، وأمر السماء أن تقلع ، فاستعصى عليه بعض البقاع فلعنه ، فصار ماؤه مرّا ، وترابه سبخا [3] ، لا ينبت شيئا.

٧ . ﴿فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [الآية ٦٥].

قال قتادة : هي : يوم الخميس ، والجمعة ، والسبت ؛ وصبّحهم العذاب يوم الأحد. أخرجه ابن أبي حاتم.

---

(١). قال الطبري ١٢ / ٢٧ : والصواب من القول في ذلك القول أن يقال كما قال الله : ﴿وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠) يصفهم بأنهم كانوا قليلا ، ولم يحدّ عددهم بمقدار ، ولا خبر عن رسول الله (ص) صحيح. فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حد الله ، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حدّ من كتاب الله أو أثر عن رسول الله (ص)».

(٢). في «لسان الميزان» و «الميزان» : «عقيصا» وهو رجل غير ثقة في حديثه ، حتى إن الدّار قطني تركه ، ولم يوثّقه النسائي ، ولا الجوزجاني. وقال ابن عديّ : ليس له رواية يعتمد عليها عن الصحابة ، وإنما له قصص يحكيها. لذلك لا يعتمد على هذا الخبر ؛ وقول ابن عدي هذا يكفي لرده. انظر «ميزان الاعتدال» ٣ / ٨٨ و «لسان الميزان» ٢ / ٤٣٣.

(٣). سبخا : مالحا.

٨ ـ ﴿وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ﴾ [الآية ٧١].

اسمها : سارة.

٩ ـ ﴿قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي﴾ [الآية ٧٨]. سمّى السّدّيّ الكبرى : ريثا ، والصغرى : رغوثا.

أخرجه ابن أبي حاتم.

وسمى الوسطى [1].

---

(١). هذه العبارة ضرب عليها بالقلم ، وروى الطبري ١٢ / ٥١ عن مجاهد قال : لم يكنّ بناته ، لكن كنّ من أمته ، وكل نبي أبو أمته.

لغة التنزيل في سورة «هود» (١)

١ ـ وقال تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [الآية ٥].

قوله تعالى : ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ ، أي : يزورّون عن الحق وينحرفون عنه : لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره ، ومن ازورّ عنه وانحرف ، ثنى عنه صدره ، وطوى عنه كشحه.

أقول : و «ثني الصدر» من مجازات القرآن البديعة التي لم نعرفها في مجازات العرب.

٢ ـ وقال تعالى : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٢٢).

قال الزجّاج : «لا» نفي لما ظنّوا أنه ينفعهم ، كأنّ المعنى لا ينفعهم ذلك جرم ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٢٢) ، أي : كسب ذلك الفعل ، لهم الخسران. وقال غيره : معناه : لا بدّ ولا محالة أنهم.

وقيل : معناه حقا ، ويستعمل في أمر يقطع عليه ولا يرتاب فيه ، أي : لا شكّ أن هؤلاء الكفار هم أخسر الناس في الآخرة.

أقول : حين اختلفت الأقوال في معنى «لا جرم» ، أصبحت الكلمة من المسائل المشكلة ، فليس في طوق المتكلّم أن يستعملها ، ولعل من أجل ذلك لم يكتب لها البقاء كثيرا في العربية ، وقلّما نقف على شيء منها في النصوص.

لقد روي في حديث قيس بن عاصم قوله : لا جرم لأفلّنّ حدّها.

قال ابن الأثير : هذه كلمة ترد بمعنى

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل» ، لإبراهيم السامرّائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

تحقيق الشيء ، واختلف فيها فقيل أصلها التبرئة بمعنى لا بدّ ، وقد استعملت بمعنى حقّا.

وقال الخليل : إن «جرم» إنما تكون جوابا لما قبلها من الكلام ، يقول الرجل : كان كذا وكذا وفعلوا كذا ، فتقول : لا جرم أنهم سيندمون ، أو انه سيكون كذا وكذا.

٣ ـ وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ (٢٣).

قوله تعالى : ﴿وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ﴾ ، اي : اطمأنّوا إليه ، وانقطعوا الى عبادته بالخشوع والتواضع ، وهو من الخبت أي : الأرض المطمئنة.

وقيل : معناه أنابوا وتضرّعوا إليه ، وهو قول ابن عبّاس.

وعن مجاهد : المعنى خضعوا له وخشعوا اليه ، والكلّ متقارب.

وفي قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٣٤) [الحج].

أي : المتواضعين : وقيل : المطمئنّين.

وفي قوله تعالى : ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج / ٥٤]. فسّره ثعلب بأنه التواضع.

وفي حديث الدعاء : «واجعلني لك مخبتا».

أقول : وهذا من الكلم القرآني الذي نهض له أهل العلم من اللغويين والمفسّرين ، ووقفوا منه وقفات فيها جدّ وإخلاص.

٤ ـ وقال تعالى : ﴿وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ﴾ [الآية ٢٧].

قوله تعالى : ﴿بادِيَ الرَّأْيِ﴾ بمعنى أوّل الرأي أو ظاهر الرأي ، وانتصابه على الظرف ، أصله : وقت حدوث أول رأيهم ، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم ، فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه.

وقرئ بالهمز وغير الهمز.

أقول : قد يحمل على الظرف مسائل كثيرة ليست من الظرف في الدلالة الزمانية أو المكانية ، فما أضيف الى الظرف أو إلى كلّ ما يدلّ على شيء من الزمان والمكان ينصب على الظرفية ، ألا ترى أن «أثناء» جمع ثني ، و «خلال» مصدر يدل على المكان ، ولكنهما اكتسبا الظرفية من الخافض «في» كما في قولهم : «في أثناء» ،

والخافض «من» في قولهم «من خلال» ، ثم اتسع في الاستعمال ، وشاعت الظرفية في الكلمتين فأسقط الخافض فقيل : وحدث أثناء ذلك والأصل : «في أثناء ذلك» ، وقيل : وعرض خلال الأمر ، والأصل : من خلال.

٥ ـ وقال تعالى : ﴿وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ [الآية ٣٠].

المراد بقوله تعالى : ﴿مِنَ اللهِ﴾ ، أي من انتقامه ، فمن يمنعني من ذلك إن طردتهم أقول : وطيّ ، «الانتقام» ، بهذه الصورة يتبين من المعنى وسياق الآية قبلها. وفي أسلوب القرآن ، من الإيجاز بالحذف ، ما لا يدركه إلا الفطن اللبيب.

٦ ـ وقال تعالى : ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤).

أقول : إن أسلوب القرآن جرى على نسق من إحكام الجملة العربية ، فخصّها بشيء كثير من «التناسب» ، وأريد بالتناسب محاكاة الطول ، حتّى لكأنّك مع هذا النظم البديع أمام مشهد متّصل الصّور منسجم الألوان ، وهذا من لطف بديع القرآن.

وأنت إذا تلوت : ﴿يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ﴾ ، ثم عقّبت عليها بقوله تعالى : ﴿وَيا سَماءُ أَقْلِعِي﴾ ، غلب عليك جمال هذا التقطيع عن الانصراف الى السجع بين «ابلعي» و «أقلعي».

ونتابع هذا الأسلوب المحكم في وضع الفقر ، المصيب كل الإصابة للمعنى بيانا وتصويرا ، فنجد أنفسنا مأخوذين بلطف الصنعة في السّرد ، وما يشبه الحركة الفنّية ، في الخطاب والجواب الذي يقتضيه مقام سرد الخبر ، ونتلو :

﴿وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (٤٥) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ (٤٦)).

قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ (٤٧)).

﴿قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ

عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٨).

ونجتزئ بهذا القدر ، من هذه اللغة الشريفة التي أحسن الله بناءها ، فكان من ذلك سر الإعجاز.

٧ ـ وقال تعالى : ﴿أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [الآية ٦٠].

قوله تعالى : ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ، المراد به (كفروا بربهم) فحذف الباء كقولهم : أمرتك الخير ، والمعنى أمرتك بالخير ، وهذا من باب الحذف والإيصال ، وفي لغة القرآن ، وغيره ، نظائر وأشباه ، قال تعالى :

﴿أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ (٦٨).

ولا بد أن نستذكر قوله تعالى : ﴿وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ [الأعراف / ١٥٥]. وقد مرّ كلامنا على الآية.

٨ ـ وقال تعالى : ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ [الآية ٦١].

المراد بقوله تعالى : ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ ، أي : أذن لكم في عمارتها ، واستخراج قومكم منها ، وجعلكم عمّارها.

أقول : هذا هو أصل الاستعمار ، فماذا من أمره في العربية المعاصرة. لا أريد أن ادخل في موضوع «الاستعمار» بمعناه الحديث ، فهو تسلط أجانب أعداء على بلاد ليست بلادهم ، والاستيلاء عليها والإفادة من خيراتها.

ومن غير شكّ ، أن في هذا فهما جديدا لهذه الكلمة ، يدخل في باب التطور الجديد ، وكم من كلمة هبطت من عل الى الدرك الأسفل ، وليس غريبا أن تجد عكس ذلك.

٩ ـ وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الآية ٧٠].

قوله تعالى : ﴿نَكِرَهُمْ﴾ مثل أنكره واستنكره ، إلا أنّ «منكور» قليل في كلامهم ، وقال الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت منّي الحوادث إلّا الشّيب والصّلعا أقول : قولهم : إنّ «منكور» قليل في كلامهم مع وجود الفعل الثلاثي ، وهذا

مألوف في العربية ، ألا ترى انهم قالوا : الظّلام والظّلمة ، حتّى إذا أرادوا الفعل قالوا : أظلم الليل ، وليس لهم «ظلم».

١٠ ـ قال تعالى : ﴿فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (٦٩).

أقول : والحنيذ المشويّ بالرّضف في أخدود ، أي : بالحجارة.

وهذا ، مما كان معروفا في رسوم الجاهليين وغيرهم ، من أهل البوادي.

١١ ـ وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧).

قال الزمخشري [١] : كانت مساءة لوط وضيق ذرعه لأنه حسب أنهم إنس ، فخاف عليهم خبث قومه ، وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم.

أقول : جاء في كتب اللغة : أن الذرع الطاقة. وضاق بالأمر ذرعه وذراعه أي : ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصا ، ولم يطقه ولم يقو عليه ، وأصل الذّرع إنما هو بسط اليد فكأنك تريد : مددت يدي إليه فلم تنله ، قال حميد بن ثور يصف ذئبا :

وإن بات وحشا ليلة لم يضق بها ... ذراعا ، ولم يصبح لها وهو خاشع

وضاق به ذرعا مثل ضاق به ذراعا ، ... ونصب «ذرعا» ، لأنه خرج مفسّرا

محوّلا ، لأنه كان في الأصل : ضاق ذرعي به ، فلما حوّل الفعل خرج قوله ذرعا مفسّرا ، ومثله طبت به نفسا ، وقررت به عينا.

وأصل «الذّرع» ان يذرع البعير بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوه ، فإذا حملته على أكثر من طاقته حتى يبطر ، ويمدّ عنقه ضعفا عمّا حمل عليه.

١٢ ـ وقال تعالى : ﴿وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الآية ٧٨].

قال أبو عبيدة : معناه يستحثّون إليه كأنه يحث بعضهم بعضا.

وتهرّع إليه : عجل.

أقول : وأصل الهرع والهرع والإهراع شدّة السّوق ، وسرعة العدو ، قال الشاعر :

كأنّ حمولهم متتابعات ، ... رعيل يهرعون الى رعيل

وهذا الفعل «هرع» ، ومثله قولهم

(١). «الكشاف» ٢ / ٤١٣.

«ضاق به ذرعا» في الآية السابقة ، يدلان دلالة واضحة على مكانة البداوة وتأثيرها في العربية ، وكيف أنها أمدّت هذه اللغة بذخائر حوّلها الاستعمال وأبعد عنها صفة البداوة ، فصارت من مواد الحضارة. ومن المفيد أن أشير الى أن الفعل «هرع» بني في استعمالهم على ما لم يسمّ فاعله : وقالوا معناه المعلوم مثل سقط وحمّ وغمّ وغير ذلك. غير أن المعربين في عصرنا ، درجوا على بنائه على «فعل يفعل» نظير «سطع يسطع» ، وكأن التنبيه على موطن التجاوز والخطأ أفاد ، فبدأ إصلاحهم للخطأ.

١٣ ـ وقال تعالى : ﴿وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ [الآية ٨٩].

قوله تعالى : ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ ، أي : لا يكسبنّكم شقاقي إصابة العذاب.

و «جرم» مثل «كسب» في تعدّيه الى مفعول واحد والى مفعولين : تقول : جرم ذنبا وكسبه ، وجرمته ذنبا وكسبته إيّاه ، قال :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

وقرأ ابن كثير بضم الياء من «أجرمته ذنبا» إذا جعلته جارما له ، أي : كاسبا ، وهو منقول من «جرم» المتعدّي الى مفعول واحد ، كما نقل «أكسبه المال» من «كسب المال» ، وكما لا فرق بين كسبته مالا وأكسبته إيّاه ، فكذلك لا فرق بين «جرمته ذنبا» و «أجرمته إيّاه». والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما ، إلّا ان المشهورة أفصح لفظا [١].

أقول : وليس لنا شيء من هذا الفعل. بهذه الدلالة أو ما يقرب منها في عربيتنا المعاصرة.

١٤ ـ وقال تعالى : ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [الآية ٩٢].

والظّهريّ : الذي تجعله بظهر ، أي : تنساه وتغفل عنه ، والمراد بالآية أي لم تلتفتوا إليه ، وتركتم أمر الله وراء ظهوركم.

قال ابن سيده : واتّخذ حاجته ظهريّا ، استهان بها كأنّه نسبها الى الظّهر ، على غير قياس ، كما قالوا في النّسب الى البصرة بصريّ.

---

(١). «الكشاف» ٢ / ٤٢١.

وفي حديث عليّ ـ عليه السلام ـ : اتّخذتموه وراءكم ظهريّا حتى شنّت عليكم الغارات ، أي : جعلتموه وراء ظهوركم.

أقول : لم يبق من هذه المادة الجميلة إلا ما ورد على التثنية ، وهو معروف لدى القلة من أهل العربية الملتزمة بالفصاحة ، يقال : هو نازل بين ظهرانيهم ، أي : بين أظهرهم ، وأقام بينهم.

وقد ورد في الحديث الشريف أيضا ، ويقال بين ظهريهم أيضا.

وينبغي أن ننبّه الى أنّ قولهم : «بين ظهرانيهم» و «ظهريهم» ينبغي أن يكون الأول والثاني بفتح الظاء ، والأول أيضا بفتح النون. وتنبيهي هذا دليل أن الخطأ معروف ، كما أن الأقدمين نبّهوا على مثل هذا.

١٥ ـ وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (١٠١).

أي : ما زادوهم غير تخسير ، يقال : تبّ إذا خسر ، وتبّبه غيره إذا أوقعه في الخسران.

أقول : لا نعرف في العربية المعاصرة هذا الفعل ولا المصدر ، كما لا نعرف الثلاثي منه ، ولا نقرأه إلّا في لغة التنزيل.

١٦ ـ وقال تعالى : ﴿إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (١٠٨).

والمعنى : غير مقطوع.

وجذّ الشّعر معروف في عصرنا في العربية المعاصرة.

أما الجذ بمعنى القطع كما في الآية ، فهو معروف في العربية القديمة ، فالجذّ القطع ، وكسر الشيء الصّلب ، والجذاذ والجذاذ ، ما كسر منه ، وضمّه أفصح من كسره ، والواحدة جذاذة ، وقطع الفضة الصغار جذاذ ، ويقال لحجارة الذهب. والجذاذات القراضات للفضة.

وجذذت الحبل قطعته فانجذّ ، وجذّ النّخل يجذّه جذا وجذاذا وجذاذا حرمه. عن اللحيانيّ ، وهي مثل جزّ جزا وجزازا وجزازا.

ورحم جذّاء : مقطوعة.

أقول : ذهب كل هذا وليس لنا إلّا الشّعر يجذّ ، وإلّا قول المعاصرين من الباحثين في مصطلحهم «الجذاذة» لقطعة الورق ، التي يثبتون فيها فائدة خاصة ، يرجعون إليها بعد جمع ما يحتاجون إليه من فوائد ومعارف ، لتدخل في المادة التي يحرّرونها كتابا أو أي شيء آخر.

المعاني اللغوية في سورة «هود» (١)

وقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ بجعله خارجا من أوّل الكلام على معنى «ولكنّ» (٢) ؛ وقد فعلوا هذا فيما هو من أول الكلام ، فنصبوا. وقال الشاعر (٣) [من البسيط وهو الشاهد الحادي والثلاثون بعد المائتين] :

يا صاحبيّ ألا لا حيّ بالوادي إلّا عبيدا قعودا بين أوتاد

فتنشده العرب نصبا.

وقال تعالى : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً﴾ [الآية ١٧] على خبر المعرفة.

وقال تعالى : ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ [الآية ١٧] وقرأ بعضهم (مرية) (٤) تكسر وتضم وهما لغتان (٥).

وقال تعالى : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ﴾ [الآية ٢٤] أي : «كمثل الأعمى والأصمّ» (٦).

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش ، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد ، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب ، بيروت ، غير مؤرّخ.

(٢). نقله في إعراب القرآن ٢ / ٤٧١ والمشكل ١ / ٣٥٦ والجامع ٩ / ١١.

(٣). هو صخر الغي الهذلي ، شرح أشعار الهذليين ٩٣٩ والمحتسب ٢ / ٢٩٢ وديوان صخر الغي ٧١.

(٤). في الشواذ ٥٩ الى الإمام علي بن أبي طالب والحسن ، وفي البحر ٥ / ٢١١ الى السلمي وأبي رجاء وأبي الخطاب والسدوسي والحسن ، وقال هي لغة أسد وتميم والناس وأهل مكة (كذا).

(٥). الكسر لأهل الحجاز ، والضم لتميم وأسد ، المزهر ٢ / ٢٧٦ واللهجات العربية ١٨٤.

(٦). نقله في إعراب القرآن ٢ / ٤٧٤ والجامع ٩ / ٢١.

وقال تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ﴾ [الآية ٢٧] أيّ : في ظاهر الرأي. وليس بمهموز لأنّه من «بدا» «يبدو» أي : ظهر. وقال بعضهم (بادئ الرأي) أي : فيما يبدأ به من الرأي [١].

وقال تعالى : ﴿قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا﴾ [الآية ٣٢] وقرأ بعضهم (جدلتنا) [٢] وهما لغتان.

وقال تعالى : ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الآية ٤٠] بجعل الزوجين الضربين الذكور والإناث.

وزعم يونس [٣] أن قول الشاعر [من الطويل وهو الشاهد الثاني والثلاثون بعد المائتين] :

وأنت امرؤ تعدو على كلّ غرّة ... فتخطئ فيها مرّة وتصيب

يعني الذئب.

وقال : ﴿وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها﴾ [الآية ٤١] بجعلها من جريت [٤]، وقرأ بعضهم (مجراها ومرساها) إذا جعلت من أجريت [٥].

---

(١). القراءة بلا همز في الطبري ١٢ / ٢٧ نسبت الى عامة قراء المدينة والعراق ، وفي السبعة ٣٣٢ والكشف ١ / ٥٢٦ والتيسير ١٢٤ الى غير أبي عمرو.

والقراءة بالهمز في الطبري ١٢ / ٢٧ الى بعض أهل البصرة ، وفي السبعة ٣٣٢ والكشف ١ / ٥٢٦ والتيسير ١٢٤ والجامع ٩ / ٢٤ الى أبي عمرو ؛ وفي البحر ٥ / ٢١٥ زاد عيسى الثقفي.

(٢). في الجامع ٩ / ٢٨ والبحر ٥ / ٢١٨ الى ابن عباس ، وزاد الشواذ ٦٠ السختياني ، وفي الإملاء ٢ / ٣٨ أنّ الجمهور على إثبات الألف.

(٣). هو يونس بن حبيب ، وقد سبقت ترجمته.

(٤). في معاني القرآن ٢ / ١٤ أن فتح الميم الاولى إلى مسروق وعبد الله ، وفي الكشف ١ / ٥٢٨ فتح الميم الأولى إلى حفص والكسائي ، وكذلك في السبعة ٣٣٣ والتيسير ١٢٤ والبحر ٥ / ٢٢٥ ؛ وفتح الميم الى ابن مسعود وعيسى بن عمر الثقفي وزيد بن علي والأعمش.

(٥). هي في معاني القرآن ٢ / ١٤ الى ابراهيم النخعي والحسن وأهل المدينة ، وهي بضم الثانية وحدها الى مسروق وعبد الله ؛ وفي السبعة ٣٣٣ أنّ ضمّ الميم في الأولى الى ابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم في رواية ، والى أبي بكر ، وضم الميم في الثانية له القراء كلهم ، وفي الكشف ١ / ٥٢٨ ضم الميم في مجراها إلى غير حفص وحمزة والكسائي ، وضم الميم في الثانية الى الإجماع. وفي البحر ٥ / ٢٢٥ ضم الميم في الاولى إلى مجاهد والحسن وأبي حيّان والأعرج وشيبة والجمهور من السبعة والحرميين والعربيين وأبي بكر ، وضمّ الميم في الثانية الى القراء كلهم.

وقرأ بعضهم (مجريها ومرسيها) [١] لأنه أراد أن يجعل ذلك صفة لله عَزَّجَلَّ .

وقال تعالى : ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي﴾ [الآية ٤٣] بقطع (سآوى) لأنّه «أفعل» وهو يعني نفسه.

وقال : ﴿لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [الآية ٤٣] ويجوز أن يكون على «لإذا عصمة» أي : معصوم ويكون ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ رفعا بدلا من العاصم [٢].

وقال تعالى : ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾ [الآية ٤٦] منوّن [٣] لأنه حين قال ـ والله أعلم : ﴿فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الآية ٤٦] كان في معنى «أن تسألني» فقال ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾

وقال ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ [الآية ٤٨] بالرفع على الابتداء نحو قولك «ضربت زيدا وعمرو لقيته» على الابتداء [٤].

وقال : ﴿هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الآية ٦٤] بالنصب على خبر المعرفة.

وقال : ﴿قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [الآية ٧٢] فإذا وقفت قلت (يا ويلتاه) لأنّ هذه الألف خفيفة وهي مثل ألف الندبة ؛ فلطفت من أن تكون في السكت وجعلت بعدها الهاء ، ليكون أبين لها ، وأبعد للصوت. وذلك أنّ الألف إذا كانت بين حرفين كان لها صدّى كنحو الصوت يكون في جوف الشيء ، فيتردّد فيه فيكون أكثر وأبين. ولا تقف على ذا الحرف في القرآن كراهية خلاف الكتاب. وقد ذكر أنه يوقف على ألف الندبة ؛ فان كان هذا صحيحا ، وقفت على الألف.

---

(١). في معاني القرآن ٢ / ١٤ إلى مجاهد ، وفي الطبري ١٢ / ٤٤ الى أبي رجاء العطاردي ، وفي الجامع ٩ / ٣٧ الى مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدري وأبي رجاء العطاردي ، وفي البحر ٥ / ٢٢٥ الى الضحّاك والنخعي وابن وثّاب وأبي رجاء ومجاهد وابن جندب والكلبي والجحدري.

(٢). نقله في التهذيب ٢ / ٥٤ «عصم».

(٣). في معاني القرآن ٢ / ١٧ نسبت إلى عامة القراء ، وفي الطبري ١٢ / ٥٠ و ٥١ و ٥٢ إلى الحسن وابن عباس وسعيد بن جبير والضحّاك وعامة قراء الأمصار وابراهيم وقتادة ومجاهد. وفي السبعة ٣٣٤ الى ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة ، وفي الكشف ١ / ٥٣٠ والتيسير ١٢٥ الى غير الكسائي.

(٤). نقله في إعراب القرآن ٢ / ٤٨١ والجامع ٩ / ٤٨ والبحر ٢٣١.

وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ﴾ [الآية ٧٤] وهو الفزع.

ويقال : «ألقي في روعي» ويقال : «أفرخ روعك» (١) و «ألقي في روعي» أي : في خلدي. «فالروع» القلب والعقل. و «الرّوع» : الفزع.

وقال تعالى : ﴿هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [الآية ٧٨] بالرفع (٢) ، وكان عيسى (٣) يقول (هنّ أطهر لكم) (٤) وهذا لا يكون إنما ينصب خبر الفعل الذي لا يستغني عن خبر ، إذا كان بين الاسم وخبره هذه الأسماء المضمرة التي تسمى الفصل ، يعني : «هي» و «هو» و «هنّ» ، وزعموا أن النصب قراءة الحسن أيضا. وقال تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [الآية ٧٨] ف «الضيف» : يكون واحدا ويكون جماعة. تقول : «هؤلاء ضيفي» ، هذا ضيفي ، كما تقول : «هؤلاء جنب» و «هذا جنب» ، و «هؤلاء عدوّ» و «وهذا عدوّ».

وقال تعالى : ﴿قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [الآية ٨٠] وبإضمار «لكان».

وقال ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [الآية ٨١] يقول : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ بالنصب (٥). وقرأ بعضهم (إلّا أمرأتك) بالرفع (٦) وحمله على الالتفات. أي لا يلتفت منكم إلّا امرأتك. وقال : ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً﴾ بالنصب

---

(١). مثل من أمثال العرب ؛ التهذيب ٣ / ١٧٧ راع ، واللسان «روع» ، مجمع الأمثال ٢ / ٨١ مثل ٢٧٨٩ ، وفصل المقال ٥٧ و ٣٥٦.

(٢). في الطبري ١٢ / ٨٥ والجامع ٩ / ٧٦ والبحر ٥ / ٢٤٦ نسبت الى العامة والجمهور.

(٣). هو عيسى بن عمر الثقفي ، وقد مرت ترجمته.

(٤). نسبها في الطبري ١٢ / ٨٥ إلى عيسى ، وزاد عليه في الجامع ٩ / ٧٦ الحسن البصري ، وزاد في الشواذ ٦٠ محمد بن مروان وأبا عمرو بن العلاء ، وأغفل الحسن ، وفي البحر ٥ / ٢٤٧ نسبها الى الحسن وزيد بن علي وعيسى وسعيد بن جبير ومحمد بن مروان ، وفي المحتسب ٣٢٥ نسبها الى سعيد بن جبير والحسن بخلاف ، ومحمد بن مروان وعيسى وابن أبي إسحاق.

(٥). في الطبري ١٢ / ٨٩ نسبها الى عامة القراء من الحجاز والكوفة ، وفي الكشف ١ / ٥٣٦ والتيسير ١٢٥ والبحر ٥ / ٢٤٨ إلى غير ابن كثير وأبي عمرو ، وعيّن منهم في الجامع ٩ / ٨٠ ابن مسعود ، وفي السبعة ٣٣٨ الى نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي.

(٦). في معاني القرآن ٢ / ٢٤ الى الحسن ، وفي الطبري ١٢ / ٨٩ الى بعض البصريين ، وفي السبعة ٣٣٨ والكشف ١ / ٥٣٦ والتيسير ١٢٥ والجامع ٩ / ٨٠ والبحر ٥ / ٢٤٨ الى ابن كثير وأبي عمرو.

بالتنوين. ف «المنضود» من صفة «السّجّيل» ، و «المسوّمة» من صفة «الحجارة» فلذلك انتصب.

وقال تعالى : ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا﴾ [الآية ٨٧] أي «أن نترك وأن نفعل في أموالنا ما نشاء» وليس المعنى «أصلاتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء» لأنه ليس بذا أمرهم. وقرأ بعضهم (تشاء) (١) وذلك إذا عنوا شعيبا.

وقال تعالى : ﴿مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠) يريد «ومحصود» ك «الجريح» و «المجروح».

وقال سبحانه : ﴿لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الآية ١٠٥] ومعناه «تتفعّل» فكان الأصل أن تكون «تتكلّم» ولاستثقال اجتماع التاءين حذفت الآخرة منهما ، لأنها هي التي تعتل فهي أحقهما بالحذف ، ونحو (تذكّرون) (٢) يسكنها الإدغام ، فإن قيل : «فهلّا أدغمت التاء هاهنا في الذال وجعلت قبلها ألف وصل ، كما قلت : «اذّكّروا» فلأن هذه الألف إنما تقع في الأمر وفي كلّ فعل معناه «فعل» فأما «يفعل» و «تفعل» ، فلا.

وقال تعالى : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا﴾ [الآية ٥٤] على الحكاية تقول : «ما أقول إلّا» : «ضربك عمرو» و «ما أقول إلّا : «قام زيد».

وقال : ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ [الآية ٦٦] فأضاف (خزي) الى «اليوم» فجرّه ، وأضاف «اليوم» إلى «إذ» فجرّه (٣).

وقال تعالى : ﴿نَكِرَهُمْ﴾ [الآية ٧٠] تقول «نكرت الرجل» و «أنكرته».

وقال : ﴿وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (١٠١) فهو مصدر «تبّبوهم» «تتبيبا».

---

(١). في الشواذ ٦١ نسبت القراءة بالتاء إلى الإمام علي بن ابي طالب والضحاك. وأبدل في الجامع ٩ / ٨٧ السلمي بالإمام. وفي البحر ٥ / ٢٥٣ زاد ابن أبي عبلة وزيد بن علي وطلحة. أما القراءة بالنون فهي في البحر ٥ / ٢٥٣ الى الجمهور.

(٢). في الأصل تذكرون ، والكلام يشير الى ما أثبتناه ، وقد وردت هذه اللفظة في سبعة عشر موضعا من القرآن الكريم ، أولها الأنعام ٦ / ١٥٢ وآخرها الحاقة ٦٩ / ٤٢.

(٣). هي في السبعة ٣٣٦ قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة وعاصم ، والى نافع في رواية ، وفي الكشف ١ / ٥٣٢ والتيسير ١٢٥ والبحر ٥ / ٢٤٠ الى غير نافع والكسائي ، وخصّ من المستثنى منهم في الجامع ٩ / ٦١ أبا عمرو.

وقال : ﴿إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [الآية ٨] و «الأمّة» : الحين كما قال ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف / ٤٥].

وقال تعالى : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِ﴾ [الآية ١٥] ف ﴿كانَ﴾ في موضع جزم وجوابها ﴿نُوَفِ﴾.

وقال تعالى : ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ [الآية ١٧] بإضمار الخبر.

وقال ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [الآية ١٧] بجعل النار هي الموعد ، وإنّما الموعد فيها كما تقول العرب : «الليلة الهلال» ومثلها ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [الآية ٨١].

وقال : ﴿وَغِيضَ الْماءُ﴾ [الآية ٤٤] تقول «غضته» ف «أنا أغيضه» وتقول : «غاضته الأرحام» ف «هي تغيضه» وقال : ﴿وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ﴾ [الرعد / ٨]. وفي قوله تعالى : ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ﴾ [الآية ٤٤] ثقّل «الجوديّ» لأن الياء ياء النسبة ، فكأنه أضيف الى «الجود» كقولك : «البصريّ» و «الكوفيّ».

وقال : ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾ [الآية ١١٢] من «طغوت» «تطغا» مثل «محوت» «تمحا».

وقال تعالى : ﴿وَلا تَرْكَنُوا﴾ [الآية ١١٣] من «ركن» «يركن» ، وإن شئت قلت «ولا تركنوا» (١) وجعلتها من «ركن» «يركن».

وقال تعالى : ﴿طَرَفَيِ النَّهارِ﴾ [الآية ١١٤] بتحريك الياء لأنها ساكنة لقيها حرف ساكن ، لأن اكثر ما يحرّك الساكن بالكسر ، نحو ﴿يا صاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ [يوسف / ٣٩ و ٤١].

وقال تعالى : ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ [الآية ١١٤] لأنها جماعة ، تقول «زلفة» و «زلفات» و «زلف».

وقال تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣) لأنه عنى النبيّ (ص) ، أو قال له «قل لهم ﴿وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣)».

---

(١). هي في الشواذ ٦١ الى قتادة ، وفي المحتسب ٣٢٩ زاد طلحة والأشهب وأبا عمرو ، وأغفل في الجامع ٩ / ١٠٨ أبا عمرو والأشهب ، وفي البحر ٥ / ٢٦٩ كما في المحتسب.

لكل سؤال جواب في سورة «هود» [١]

إن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [الآية ٣] مع أن التوبة مقدّمة على الاستغفار؟

قلنا : المراد : استغفروا ربكم من الشرك ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة. كذا قاله مقاتل. وهذا الاستغفار مقدم على هذه التوبة. الثاني : أنّ فيه تقديما وتأخيرا. الثالث قال الفرّاء : ثمّ هنا بمعنى الواو ، وهي لا تفيد ترتيبا ، فاندفع السؤال.

فإن قيل : من لم يستغفر ولم يتب ، فإنّ الله يمتّعه متاعا حسنا الى أجله : أي يرزقه ويوسع عليه كما قال ابن عباس ، أو يعمّره كما قال ابن قتيبة ، فما الحكمة في قوله تعالى ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾؟

قلنا : قال غيرهما : المتاع الحسن ، المشروط بالاستغفار والتوبة ، هو الحياة في الطاعة والقناعة ، ومثل هذه الحياة إنما تكون للمستغفر التائب التقي.

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٦] لم لم يقل على الأرض مع أنه أشدّ مناسبة لتفسير الدابة لغة ، فإنها ما يدب على وجه الأرض؟

قلنا : «في» هنا بمعنى «على» ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه / ٧١] ، وقوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور / ٣٨]. الثاني :

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

أن لفظة «في» أعم وأشمل ، لأنها تتناول كل دابة على وجه الأرض ، وكل دابة في باطن الأرض ، بخلاف على.

فإن قيل : لم خصّ الدابة بذكر ضمان الرزق ، والطير كذلك رزقه على الله تعالى ، وهو غير الدابة بدليل قوله تعالى : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ﴾ [الأنعام / ٣٨].

قلنا : إنّما خص الدابة بالذكر ، لأن الدواب أكثر من الطيور عددا ، وفيها ما هو أكبر جثة من كل فرد من أفراد الطير ، كالفيل والحوت ، فيكون أحوج الى الرزق ، فلذلك خصّه بالذكر.

فإن قيل : لم قال الله تعالى : ﴿إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها﴾ [الآية ٦] و «على» للوجوب ، والله تعالى لا يجب عليه شيء وإنما يرزقها تفضّلا منه وكرما.

قلنا : «على» هنا بمعنى «من» ، كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ (٢) [المطفّفين]. الثاني : أنه ذكره بصيغة الوجوب ، ليحصل للعبد زيادة سكون وطمأنينة في حصوله.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك / ٢] والخطاب عامّ للمؤمنين والكافرين ، فإنه امتحن الفريقين بالأمر بالطاعة والنهي عن المعصية ، وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت الى أحسن وأحسن ، فأما أعمال الفريقين فتفاوتها الى حسن وقبيح.

قلنا : قوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ عامّ ، أريد به الخاص ، وهم المؤمنون تشريفا لهم وتخصيصا ، فصحّ قوله سبحانه : ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [الآية ١٢] ولم يقل و «ضيّق»؟

قلنا : ليدل على أن ضيقه عارض غير ثابت ، لأن النبي (ص) كان أفسح الناس صدرا ، ونظيره قولك : زيد سائد وجائد ، فإذا أردت وصفه بالسيادة والجود الثابتين المستقرين قلت زيد سيّد وجواد ، كذا قال الزمخشري.

فإن قيل : قال تعالى : ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ﴾ [الآية ١٣] أمرهم بالإتيان بمثله وما يأتون به لا يكون مثله ، لأن ما يأتون به مفترى ، والقرآن ليس بمفترى.

قلنا : أراد به مثله في البلاغة والفصاحة ، وإن كان مفترى. وقيل معناه : مفتريات ، كما أن القرآن مفترى في زعمكم واعتقادكم ، فيتماثلان.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ فأفرد في قوله ﴿قُلْ﴾ ثم جمع فقال ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾ [الآية ١٤].

قلنا : الخطاب للنبي (ص) في الكل ، ولكنه جمع في قوله عزّجلّ : ﴿لَكُمْ فَاعْلَمُوا﴾ تفخيما له وتعظيما. الثاني : أن الخطاب الثاني للنبي (ص) وأصحابه ، لأن النبي (ص) وأصحابه كانوا يتحدّونهم بالقرآن ، وقوله تعالى في موضع آخر : ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ﴾ [القصص / ٥٠] يعضد الوجه الاول. الثالث : أن يكون الخطاب في الثاني والثالث للمشركين ، والضمير في ﴿يَسْتَجِيبُوا﴾ لمن استطعتم ، يعني فإن لم يستجب لكم من تدعونه المظاهرة على معارضته ، لعجزهم ، فاعلموا أيها المشركون أنما أنزل بعلم الله ، وهذا وجه لطيف.

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها﴾ [الآية ١٦] يدل على بطلان عملهم ، فما الحكمة في قوله بعده ﴿وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية ١٦]؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها﴾ أي بطل ثواب ما صنعوا من الطاعات في الدنيا ﴿وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦) من الرياء.

فإن قيل : لم قال نوح عليه‌السلام كما ورد في التنزيل ﴿وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً﴾ [الآية ٢٩] بالواو ، وقال هود عليه‌السلام ، كما ورد في التنزيل أيضا ﴿يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٥١] بغير الواو؟

قلنا : لأن الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأول الكلام في القصتين ، ولكن في قصة نوح عليه‌السلام وقع الفصل بين الضمير وبين ما هو عائد عليه بكلام آخر ، فجيء بواو الابتداء : وفي قصة هود عليه‌السلام لم يقع بينهما فصل فلم يحتج الى واو الابتداء ، هذا ما وقع لي فيه ، والله اعلم.

فإن قيل : قوله تعالى ﴿لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الآية ٤٣] لا يناسبه

المستثنى في الظاهر ، وهو قوله سبحانه في الآية نفسها : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ لأن المرحوم معصوم ، فظاهره يقتضي [(١)] لا معصوم إلّا من رحم : أي لا معصوم من الغرق بالطوفان إلّا من رحمه الله بالإنجاء في السفينة؟

قلنا : عاصم هنا بمعنى معصوم ، كقوله تعالى : ﴿مِنْ ماءٍ دافِقٍ﴾ (٦) [الطارق] أي مدفوق ، وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ (٢١) [الحاقة] أي مرضية ، وقول العرب : سرّ كاتم : أي مكتوم. الثاني أن معناه : لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم ، أي إلا الراحم وهو الله تعالى ، وليس معناه المرحوم ، فكأنه قال : لا عاصم إلا الله. الثالث أن معناه : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مكان من رحم الله من المؤمنين ، ونجّاهم وهو السفينة ، ويناسب هذا الوجه قوله تعالى : ﴿وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) وهذا لأنّ ابن نوح عليه‌السلام ، لما جعل الجبل عاصما من الماء ، ردّ نوح عليه‌السلام ، ذلك ، ودلّه على العاصم وهو الله تعالى ، أو المكان الذي أمر الله بالالتجاء إليه ، وهو السفينة.

فإن قيل : كيف صح أمر السماء والأرض بقوله تعالى ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي﴾ [الآية ٤٤] وهما لا يعقلان ، والأمر والنهي إنما يكون لمن يفعل ويفهم الخطاب؟

قلنا : الخطاب لهما في الصورة ، والمراد به الخطاب للملائكة الموكّلين بتدبيرهما. الثاني : أن هذا أمر إيجاب لا أمر إيجاد ، وأمر الإيجاد لا يشترط فيه العقل والفهم ، لأن الأشياء كلها بالنسبة الى امر الإيجاد مطيعة منقادة لله تعالى ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) [يس] وقوله تعالى : ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ [فصّلت / ١١] كل ذلك أمر إيجاد.

فإن قيل : لم قال تعالى هنا : ﴿وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِ﴾ [الآية ٤٥] بالفاء ، وقال في قصة زكريا عليه الصلاة

---

(١). قوله (فظاهره يقتضي إلخ) لا يخفى أنه على هذا الظاهر لا ورود لصورة الإشكال ، إذ هو عين ما صدر به في الجواب عنه ؛ فكان المناسب في تقدير السؤال ، بقاء العاصم على حقيقته ، وهو الحافظ ، وجعل المراد ممّن رحم ، المرحوم لا الراحم ، وهو الله تعالى ، كما هو أحد التأويلات.

والسلام ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (٣) قالَ رَبِ﴾ [مريم] بغير فاء؟

قلنا : أراد بالنداء هنا إرادة النداء فجاء بالفاء الدالة على السببية ، فإن إرادة النداء سبب للنداء ، فكأنه قال : وأراد نوح نداء ربه فقال كيت وكيت ، وأراد به في قصة زكريا عليه الصلاة والسلام حقيقة النداء ، فلهذا جاء بغير فاء لعدم ما يقتضي السببية.

فإن قيل : هود عليه الصلاة والسلام كان رسولا ولم يظهر معجزة ، ولهذا قال له قومه : ﴿يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ﴾ [الآية ٥٣] فبأي شيء لزمتهم رسالته؟

قلنا : إنّما يحتاج الى المعجزة ، من الرسل ، من يكون صاحب شريعة لتنقاد أمّته لشريعته ، فإن في كل شريعة أحكاما غير معقولة فيحتاج الرسول الآتي بها ، الى معجزة لتشهد بصحة صدقه ، فأما الرسول الذي لا تكون له شريعة ولا يأمر إلّا بالعقليات فلا يحتاج الى معجزة ، لأن الناس ينقادون الى ما يأمرهم به لموافقته للعقل ، وهود (ع) كان كذلك. الثاني : أنه نقل أن معجزة هود كانت الريح الصرصر ، فإنها كانت سخّرت له.

فإن قيل : على الوجه الأول لو كان أمره لهم مقصورا على العقليات لما خالفوه وكذبوه ونسبوه الى الجنون ، بقولهم كما ورد في التنزيل ﴿يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ﴾ إلى ﴿بِسُوءٍ﴾.

قلنا : إنما صدر ذلك القول من قاصري العقول أو المعاندين المكابرين ، كما قيل ذلك لكل رسول بعد إتيانه بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات.

فإن قيل : هل قوله تعالى : ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا﴾ [الآية ٥٤] لتتناسب الجملتان؟

قلنا : لأن إشهاد الله تعالى على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ، مفيد تأكيد التوحيد وشده معاقده ؛ وأما إشهادهم فما هو إلا تهكّم بهم وتهاون ودلالة على قلة المبالاة ، لأنهم ليسوا أهلا للشهادة ؛ فعدل به عن اللفظ الأول ، وأتى به على صورة التهكّم والتهاون ؛ كما يقول الرجل لصاحبه إذا لاحاه : اشهد إني لأحبك ، تهكّما به واستهانة له.

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [الآية ٥٧] جعل التولّي

شرطا والإبلاغ جزاء ، والإبلاغ كان سابقا على التولّي.

قلنا : ليس الإبلاغ جزاء التولّي ، بل جزاؤه محذوف تقديره : فإن تولّوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ أو تقصير فيه ، ودلّ على الجزاء المحذوف قوله سبحانه : ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾.

الثاني : قال مقاتل تقديره : فإن تولّوا فقل لهم قد أبلغتكم.

فإن قيل : ما الحكمة من تكرار التنجية في قوله تعالى ﴿وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٨)؟

قلنا : أراد بالتنجية الأولى تنجيتهم من عذاب الدنيا الذي نزل بقوم هود ، وهو سموم أرسلها الله تعالى عليهم فقطّعتهم عضوا عضوا ، وأراد بالتنجية الثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذي استحقّه قوم هود بالكفر ، ولا عذاب أغلظ منه ولا أشدّ.

فإن قيل : ﴿بُعْداً﴾ [الآية ٤٤] معناه عند العرب الدعاء عليهم بالهلاك بعد هلاكهم.

قلنا : معناه الدلالة على أنهم مستأهلون له وحقيقون به ، ونقيضه قول الشاعر :

إخـــوتي لا تبعـــدوا أبـــدا وبلـــى والله قـــد بعـــدوا

أراد بالدعاء لهم بنفي الهلاك بعد هلاكهم الإعلام بأنهم لم يكونوا مستأهلين له ولا حقيقين به.

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ﴾ [الآية ٨٤] نهي عن النقص فيهما ، والنهي عن النقص أمر بالإيفاء معنى ، فما الحكمة في قوله تعالى في الآية التالية : ﴿وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ﴾.

قلنا : صرّح أوّلا بنهيهم عن النقص الذي كانوا يفعلونه لزيادة المبالغة في تقبيحه وتغييرهم إيّاه ، ثم صرح بالأمر بالإيفاء بالعدل الذي هو حسن عقلا ، لزيادة الترغيب فيه والحثّ عليه.

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥) والعثوّ الفساد ، فيصير المعنى : ولا تفسدوا في الأرض مفسدين؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة البقرة. وجواب آخر معناه : ولا تعثوا في الأرض بالكفر ، وأنتم مفسدون بنقص المكيال والميزان.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٨٦] فشرط الإيمان في كون البقيّة خيرا لهم ، وهي خير لهم مطلقا لأن المراد ببقيّة الله ما يبقى لهم من الحلال ، بعد إيفاء الكيل والوزن ، وذلك خير لهم ، وإن كانوا كفّارا ، لأنهم يسلمون معه من عقاب البخس والتطفيف؟

قلنا : إنما شرط الإيمان في خيرية البقيّة ، لأن خيريتها وفائدتها مع الإيمان أظهر ، وهو حصول الثواب مع النجاة من العقاب ، ومع فقد الإيمان أخفى لانغماس صاحبها في عذاب الكفر ، الذي هو أشدّ العذاب. الثاني : أن المراد إن كنتم مصدّقين ، فيما أقول لكم وأنصح.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩) ولم يقل ببعيدين والقوم اسم لجماعة الرجال ، وما جاء في القرآن الضمير العائد اليه إلا ضمير جماعة ، قال الله تعالى ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ [نوح / ١] وقال تعالى ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ [الحجرات / ١١].

قلنا : فيه إضمار تقديره : وما هلاك قوم لوط او مكان قوم لوط ، ومكان قوم لوط كان قريبا منهم ، وإهلاكهم أيضا كان قريبا من زمانهم. الثاني : أن فعيلا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع ، قال الجوهري : يقال ما أنتم منا ببعيد ، وقال الله تعالى ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٤) [التحريم] وقال سبحانه ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧) [ق].

فإن قيل : قولهم ، كما ورد في التنزيل : ﴿وَلَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ﴾ (٩١) كلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله كما ورد في التنزيل أيضا ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ﴾ [الآية ٩٢]؟

قلنا : تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله ، فحين عزّ رهطه عليهم دونه ، كان رهطه أعزّ عليهم من الله ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ [النساء / ٨٠] وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح / ١٠].

فإن قيل : قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته ، ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه ومنهم ، فكان المطابق والموافق في ظاهر الفهم أن

يقول : من يأتيه عذاب يخزيه حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إليهم ، ومن هو صادق إليه.

قلنا : القياس ما ذكرت ، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذبا قال : ومن هو كاذب ، يعني في زعمكم ودعواكم تجهيلا لهم.

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ﴾ [الآية ١٠٢] والقرى لا تكون ظالمة ، لأن الظلم من صفات من يعقل ، أو من صفات الحيوان دون الجماد؟

قلنا : هو من الإسناد المجازي ، والمراد به أهلها ، كما قال تعالى في موضع آخر ﴿أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها﴾ [النساء / ٧٥] لكن لما أمن اللبس أسند الظلم الى القرية لفظا ، كما في قوله تعالى ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف / ٨٢].

فإن قيل : كيف التوفيق بين قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الآية ١٠٥] وقوله سبحانه : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها﴾ [النحل / ١١١] وقوله عزّوجلّ ﴿هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (٣٦) [المرسلات] فإن الآية الثالثة تناقض الآية الأولى بنفي الإذن ، وتناقض الآيتين جميعا بنفي النطق؟

قلنا : أمّا التوفيق بين الآيتين ، الأوليين فظاهر ، لأن المعنى تجادل عن نفسها بإذنه فتوافقت الآيتان ، وأما الآية الثالثة فإنها لا تناقض الآية الاولى بنفي الإذن ، إن قلنا إنّ الاستثناء من النفي ليس بإثبات ، لأنّ الآية الاولى لا تقتضي وجود الإذن حينئذ ، بل تقتضي نفي الكلام عند انتفاء الإذن ؛ فأما إن قلنا إن الاستثناء من النفي إثبات ناقضت الآية الثالثة الأولى ، ولا تناقض الآيتين بنفي النطق ، لأن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف ومواطن ، ففي بعضها يكفّون عن الكلام فلا يؤذن لهم فيه ، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلّمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلّم أيديهم وتشهد أرجلهم ، وهذا جواب عام عن مثل هذه الآيات ، ويرد على هذا أن يقال قوله تعالى : ﴿هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) نفى النطق عنهم يوم القيامة ، ما يوجب انتفاءه في جميع أجزاء ذلك الزمان عملا بعموم النفي ، كما يعم النفي جميع أجزاء المكان في قولنا ، لا وجود لزيد في الدار ، فاندفع الجواب باختلاف المواقف والمواطن ؛

فيكون الجواب ، أن الآية الثالثة أريد بها طائفة خاصة ، غير الطائفتين الأوليين فلا تناقض.

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (١٠٥) وكلمة «من» للتبعيض ، ومعلوم أن الناس كلهم إما شقي أو سعيد ، فما معنى التبعيض؟

قلنا : التبعيض هنا على حقيقته ، لأنّ أهل القيامة ثلاثة أقسام : قسم شقيّ ، وقسم سعيد ، وهم أهل النار والجنة كما ذكر في هذه الآية مفصّلا ؛ وقسم لا شقي ولا سعيد وهم أهل الأعراف. الثاني أنّ معنى الكلام : فمنهم شقيّ ومنهم سعيد ، وهذا يقتضي أن يكون الشقيّ بعض الناس والسعيد بعض الناس ، والأمر كذلك ، ولا يقتضي أن يكون الشقي والسعيد كلاهما بعض الناس ، بل كل واحد منهما بعض ، وكلاهما كلّ ، كما تقول من الحيوان إنسان ، ومن الحيوان غير إنسان ، وكل الحيوان إما إنسان أو غير إنسان.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ﴾ [الآية ١٠٨] وأراد به بيان دوام الخلود ، مع أنّ أهل الجنة وأهل النار مخلّدون فيهما خلودا لا نهاية له ، والسموات والأرض ودوامهما منقطع ، لأنهما يوم القيامة ينهدمان ، قال الله تعالى : ﴿كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٢١) [الفجر] وقال تعالى : ﴿إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١) [الانفطار] وقال تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء / ١٠٤] ونظائره كثيرة ممّا يدل على خراب السموات والأرض؟

قلنا : للعرب في معنى الأبد ألفاظ تعبر عن إرادة الدوام دون التأقيت ، منها هذا ؛ يقولون : لا أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار ، وما دامت السماء والأرض ، وما أطمت الإبل ، ويريدون بذلك لا أفعله أبدا مع قطع النظر عن كون المؤقّت به له نهاية أو لا نهاية له. الثاني : أنه خاطبهم على معتقدهم أن السموات والأرض لا تزول ولا تتغير. الثالث : أنه أراد به كون الفريقين في قبورهم إما منعّمين أو معذّبين ، كما جاء في الحديث «إن القبر إمّا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» ومن كان في روضة من رياض الجنة فهو في الجنة ، ومن كان في حفرة من حفر النار فهو في النار ، فعلى هذا يكون المراد بالتأقيت بدوام السماوات والأرض مدة الخلود الى

يوم القيامة. الرابع : أن المراد بها سماوات الآخرة وأرضها ، قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ﴾ [ابراهيم / ٤٨] وتلك دائمة لا تزول ولا تفنى ، ولأنه لا بد لأهل الجنة ممّا يقلّهم ويظلّهم ، إمّا سماء يخلقها الله تعالى ، أو العرش ، كما جاء في الأخبار ، أنّ أهل الجنة تحت ظل العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء ؛ وجاء في الأخبار أيضا في صفة الجنة ، أنّ ترابها من زعفران ، فدل أنّ لها أرضا ؛ والمراد تلك السموات ، وتلك الأرض.

فإن قيل : إذا كان المراد بهذا التأقيت دوام الخلود دواما لا آخر له ، فكيف صحّ الاستثناء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ﴾ [الآية ١٠٧]؟

قلنا : قال الفرّاء : «إلّا» هنا بمعنى «غير» و «سوى» ، فمعناه : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، سوى ما شاء الله تعالى من الخلود والزيادة ؛ فكأنه قال : خالدين فيها قدر مدة الدنيا ، غير ما شاء الله من الزيادة عليها إلى غير نهاية ، وهذا الوجه إنّما يصح إذا كان المراد سموات الدنيا وأرضها. قال ابن قتيبة : ومثله في الكلام قولك : لأسكّنك في هذه الدار حولا إلا ما شئت ، يريد سوى ما شئت أن أزيدك على الحول. الثاني : أنه استثناء لا يفعله كما تقول : لأهجرنّك إلّا أن أرى غير ذلك ، وعزمك على هجرانه أبدا ، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما. إلا ما شاء ربّك ، وقد شاء أن يخلدوا فيها. قال الزجّاج : وفائدة هذا الاستثناء ، إعلامنا أنه ، لو شاء سبحانه أن لا يخلّدهم لما خلّدهم ، ولكنه ما شاء إلّا خلودهم. الثالث : أنه استثناء لزمان البعث والحشر والوقوف للعرض والحساب ، فإنّ الأشقياء والسعداء في ذلك الزمان كلّه ، ليسوا في النار ولا في الجنة. الرابع : أن «ما» بمعنى من ، والمستثنى من يدخل النار من الموحّدين فيعذّب بقدر ذنوبه ، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة ، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من الأشقياء فقط. الخامس : أنّ المستثنى زمان كون أهل الأعراف على الأعراف قبل دخولهم الجنة ؛ وهذا الوجه يختص بالاستثناء من السّعداء ، لأنهم لم يدخلوا النار لأنّ مصيرهم الى الخلود في الجنة. السادس : أنه استثناء من الخلود في عذاب النار ، ومن الخلود في نعيم الجنة ؛ الأشقياء لا يخلدون

في عذاب النار بل يعذّبون بالزمهرير وغيره من أنواع العذاب ، سوى النار ، وهو سخط الله عليهم فإنه أشد ؛ وكذلك السعداء لهم سوى نعم الجنة ما هو أجلّ منها ، وهو الزيادة التي وعدهم الله تعالى إيّاها ، بقوله سبحانه : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾ [يونس / ٢٦] ورضوان الله كما قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة / ٧٢] وقوله تعالى : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة / ١٧] فهو المراد بالاستثناء ، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى ، بعد ذكر الاستثناء : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ﴾ (١٠٧) وقوله تعالى بعد ذكر السعداء : ﴿عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (١٠٨) يعني أنّه يفعل بأهل النار ما يريد من أنواع العذاب ، ويعطي أهل الجنة أنواع العطاء الذي لا انقطاع له ، فاختلاف المقطعين يؤكّد صرف الاستثناء إلى ما ذكرنا ، فتأمّل كيف يفسّر القرآن بعضه بعضا.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ (١٠٩) بعد قوله سبحانه ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [الآية ١٠٩] والتوفية والإيفاء إعطاء الشيء وافيا : أي تامّا ، نقله الجوهري وغيره ، والتامّ لا يكون منقوصا؟

قلنا : هو من باب التأكيد.

فإن قيل : قوله تعالى ﴿وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [الآية ١١٩] إشارة إلى ماذا؟

قلنا : هو إشارة إلى ما عليه الفريقان من حالي الاختلاف والرحمة ، فمعناه أنّه خلق أهل الاختلاف للاختلاف ، وأهل الرحمة للرحمة ؛ وقد فسّره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، فقال : خلقهم فريقين : فريقا رحمهم فلم يختلفوا ، وفريقا لم يرحمهم فاختلفوا.

وقيل : هو إشارة إلى معنى الرحمة وهو الترحّم ، وعلى هذا يكون الضمير في «خلقهم» للذين رحمهم فلم يختلفوا.

وقيل : هو إشارة الى الاختلاف والضمير في «خلقهم» للمختلفين ، واللام على الوجه الأول والثالث لام العاقبة والصيرورة ، لا لام كي ، وهي التي تسمى لام الغرض والمقصود ، لأن الخلق للاختلاف في الدين لا يليق بالحكمة ، ونظير هذه اللام قوله تعالى :

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ [القصص / ٨] وقول أبي العتاهية :

لـدوا للمـوت وابنـوا للخـراب   فكلّكـم يصـير الى الـتّراب

وقيل : إنها لام التمكين والاقتدار ، كما في قوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس / ٦٧] وقوله تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها﴾ [النحل / ٨] والتمكّن والاقتدار حاصل ، وإن لم يسكن بعض الناس في الليل ولم يركب بعض هذه الدواب ؛ ومعنى التمكين والاقتدار هنا ، أنه سبحانه وتعالى أقدرهم على قبول حكم الاختلاف ومكّنهم منه. وقيل : اللام هنا ، بمعنى «على» كما في قوله تعالى : ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١٠٣) [الصافات] وقوله تعالى : ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً﴾ (١٠٧) [الإسراء].

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ﴾ [الآية ١٢٠] وقوله تعالى ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾ (١٦٤) [النساء].

قلنا : معناه وكلّ نبأ نقصّه عليك من أنباء الرسل هو ﴿ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ [الآية ١٢٠] ف ما في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف ، فلا يقتضي اللفظ قصّ أنباء جميع الأنبياء ، فلا تناقض بين الآيتين. الثاني : أنّ المراد بالكلّ هنا البعض ، كما في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً﴾ [البقرة / ٢٦٠] وقوله تعالى : ﴿وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ﴾ [يونس / ٢٢] وقوله تعالى ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل / ٢٣] وقوله تعالى ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء / ١٣] وقول لبيد الشاعر :

ألا كـلّ شـيء مـا خـلا الله باطـل   وكـلّ نعـيم لا محالـة زائـل

وكثير من الأشياء غير الله تعالى حق ، كالنبي عليه الصلاة والسلام والإيمان والجنة وغير ذلك ، وكذلك نعيم الجنة والآخرة ليس بزائل ، ولبيد صادق في هذا البيت لقوله (ص) : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ، ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل.

فإن قيل : ما فائدة تخصيص هذه السورة بقوله تعالى ﴿وَجاءَكَ فِي هذِهِ

﴿الْحَقُّ﴾ [الآية ١٢٠] مع أن الحقّ جاء في كلّ سور القرآن؟

قلنا : قالوا فائدة تخصيص هذه السورة بذلك ، زيادة تشريفها وتفضيلها مع مشاركة غيرها إيّاها في ذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن / ١٨] وقوله تعالى : ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ﴾ بعد قوله سبحانه ﴿وَمَلائِكَتِهِ﴾ [البقرة / ٩٨] وقوله تعالى : ﴿وَالصَّلاةِ الْوُسْطى﴾ بعد قوله ﴿الصَّلَواتِ﴾ [البقرة / ٢٣٨] ووجه المشابهة بينهما ، أنه حمل قوله تعالى : ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ﴾ على التشريف والتفضيل ، عند تعذّر حمله على تعليق العداوة به ، لئلّا يلزم تحصيل الحاصل ؛ وكذا في المثال الأخير تعذّر حمله على إيجاب المحافظة لما قلنا ؛ وهنا تعذر حمله على حقيقته ، وهو الجنس بأن حقيقته انحصار كل حق في هذه السورة وهو منتف ، أو حمل الحق على معهود سابق ، وهو منتف ، وحمله على بعض الحق ، يلزم منه وصف هذه السورة بوصف مشترك بينها وبين كل السور ، وأنه لا يحسن ، كما لو قال : وجاءك في هذه الحق آيات الله أو كلام الله أو كلام معجز ، فجعل مجازا عن التفضيل والتشريف.

وقيل : الإشارة بهذه إلى الدنيا لا إلى السورة ، والجمهور على القول الأول. ولا يقال إنّما خصّت هذه السورة بذلك لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾ [الآية ١١٢] والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين ، لأنّا نقول الأمر بالاستقامة جاء أيضا في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾ [الشورى / ١٥] ولا يصلح هذا علّة للتخصيص ، والله أعلم.

المعاني المجازية في سورة «هود» [1]

قوله تعالى : ﴿الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١) وهذه استعارة. لأن آيات القرآن لما ورد في بعضها ذكر الحلال والحرام ، واستمرت على ذلك بين وعد مقدّم ، ووعيد مؤخّر ، ونذارة مبتدأ بها ، وبشارة معقّب بذكرها شبّهها القرآن ، لذلك ، بالنظائم المفصّلة ، التي توافق فيها بين الأشكال تارة ، وتؤلف بين الأضداد تارة ليكون ذلك أحسن في التنضيد ، وأبلغ في الترصيف. وهذه من بدائع الاستعارات.

وقوله سبحانه : ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ﴾ [الآية ٥] وهذه استعارة. لأن حقيقة الشيء لا تتأتّى في الصدور. والمراد بذلك. والله أعلم. أنهم يثنون صدورهم على عداوة الله ورسوله (ص). وذلك كما يقول القائل : هذا الأمر في طيّ ضميري. أي قد اشتمل عليه قلبي. فيكون قوله تعالى : ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ بمنزلة قوله يطوون صدورهم. ولفظ يثنون أعذب استماعا وأحسن مجازا.

وقيل أيضا : بل معنى ذلك أن المنافقين كانوا إذا اجتمعوا تخافتوا بينهم في الكلام ، وحنوا ظهورهم تطامنا عند الحوار ، خوفا من رمق العيون ، ومراجم الظنون ، لوقوع ما يتفاوضونه في أسماع المسلمين. فإذا

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش ، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد ، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب ، بيروت ، غير مؤرّخ.

انحنت ظهورهم ، انثنت صدورهم. فأعلمنا الله سبحانه أنهم ، وإن أغلقوا أبوابهم ، وأسدلوا ستورهم ، واستغشوا ثيابهم ـ بمعنى اشتملوا بها ، وبمعنى أدخلوا رؤوسهم فيها على ما قاله بعضهم ـ فإنه تعالى يعلم غيب صدورهم ، ودخائل قلوبهم ، ومرامز أعينهم ، ومحاذف [1] ألسنتهم.

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ﴾ (٩) وهذه استعارة لأن إذاقة الرحمة ونزعها ليسا بحقيقة هاهنا. وإنما المراد بذلك أنّا إذا رحمنا الإنسان بعد توبته من مواقعة [في] [2] بعض الذنوب فقبلنا متابه ، وأسقطنا عقابه ، ثم واقع بعد ذلك ذنبا آخر ، واستحق أن نعاقبه وأن نزيل رحمتنا عنه ، يئس من الرحمة وقنط من المغفرة. وليس الأمر كذلك ، لأنه إذا عاود الإقلاع ، أمن الإيقاع.

وقد أخرج هذا الكلام مخرج الذم لمن يواقع المعصية ، فيقنط من قبول التوبة. فمعنى أذقنا الإنسان منّا رحمة. أي عرّفناه أنّا قد رحمناه. إذ قد أوجبنا قبول التوبة إذا أخلص العبد فيها ، وأتى بها على شروطها وحدودها.

ومعنى ﴿ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ﴾ أي أزلنا عنه رحمتنا لأجل اقترافه المعصية التي اقترفها في الثاني [3]. وقد يجوز أن يكون المراد بالرحمة هاهنا ـ والله أعلم ـ النعمة والسرّاء. ويكون انتزاعها منه بمعنى إبداله بها الشدّة والضرّاء ، إجراء له في مضمار الابتلاء والاختبار ، أو مصلحة يكون معها أقرب الى الإصلاح [4] والرشاد. ومما يقوّي ذلك قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (١٠).

وقوله سبحانه : ﴿وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية ٢٨]. وهذه استعارة. لأن الرحمة لا توصف بالعمى وإنما يوصف الناس بالعمى عن تمييز مواقعها. وإدراك مواضعها. فلما

---

(١). هكذا بالأصل. ولعلّها مرامي الألسنة بالكلام ، كما يحذف بالحجر أي يرمى به.

(٢). هذه اللفظة بالأصل. ولعلّها زائدة لأن المعنى يستقيم بدونها ، ولهذا وضعناها بين حاصرتين.

(٣). هكذا بالأصل ، ولم نهتد الى تصويب لها.

(٤). في المتن : الإصلاح ، وقد غيرت في الهامش الى «الصلاح» بدلا منها.

وصفوا بالعمى عنها حسن أن يوصف بذلك في القلب [1]. كما يقال : أدخلت الخاتم في إصبعي ، والمغفر في رأسي. وإنما الأصبع دخلت في الخاتم ، والرأس دخل في المغفر. وقد يجوز أن يكون قوله سبحانه : ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ ، بمعنى خفيت عليكم ، كما يقول القائل : قد عمي عليّ خبرهم. وعمي عليّ أثرهم. أي خفي عني الأثر والخبر.

وقوله سبحانه : ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾ [الآية ٣١]. وهذه استعارة. كما يقول القائل : اقتحمت فلانا عيني ، واحتقره طرفي. إذا قبح في منظر عينه خلقه ، وصغر دمامة. ليس أن العين على الحقيقة يكون منها الاحتقار ، أو يجوز عليها الاستصغار.

وقوله سبحانه : ﴿وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [الآية ٣٤] وذكر الإغواء هاهنا من قبيل الاستعارة ، وإن لم يكن من صريحها. وكذلك لفظ المكر ، والاستهزاء ، وما يجري هذا المجرى. لأن المراد بمعاني هذه الألفاظ غير المراد بظواهرها. فالمتعارف من الإغواء هو الدعاء الى الغيّ والضلال. وذلك غير جائز على الله سبحانه ، لقبحه وورود أمره بضده. والمراد إذن بالإغواء هاهنا تخييبه سبحانه لهم من رحمته ، لكفرهم وذهابهم عن أمره. ومن الشاهد على ذلك قوله تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (٥٩) [مريم] ، أي خيبة من الرحمة ، وارتكاسا في النقمة. وقد جاء لفظ الإغواء ، والمراد به التخييب في كثير من منثور كلامهم ، ومنظوم أشعارهم.

ويجوز أن يكون الإغواء هاهنا بمعنى الإهلاك لهم. ويجوز أن يكون بمعنى الحكم بالغواية عليهم.

وقوله سبحانه : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا﴾ [الآية ٣٧]. وهذه استعارة. ومعناها : واصنع الفلك بأمرنا ، ونحن نرعاك ونحفظك. ليس أنّ هناك عينا تلحظ ، ولا لسانا يلفظ. وذلك كما يقول القائل : أنا بعين الله. أي بمكان من حفظ الله. ومن كلامهم للظّاعن

(١). ليس القلب هنا بمعنى الجارحة التي في الجسم ، ولكنه القلب اللفظي والمعنوي ، كما نقول : أدخلت الخاتم في الإصبع بدلا من أدخلت الإصبع في الخاتم.

المشيّع والحميم المودّع : صحبتك عين الله. أي رعاية الله وحفظه.

وقوله سبحانه : ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الآية ٤٤] ، وهذه استعارة. لأن الأرض والسماء لا يصح أن تؤمرا وتخاطبا. لأن الأمر والخطاب لا يكونان إلا لمن يعقل ، ولا يتوجّهان إلا لمن يعي ويفهم. فالمراد إذن بذلك : الإخبار عن عظيم قدرة الله سبحانه ، وسرعة مضيّ أمره ، ونفاذ تدبيره. نحو قوله : ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل]. وهذا إخبار عن وقوع أوامره من غير معاناة ولا كلفة ، ولا لغوب ولا مشقة.

وفي هذا الكلام أيضا فائدة أخرى لطيفة. وهو أن قوله سبحانه : ﴿يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ﴾. أبلغ من قوله : يا أرض اذهبي بمائك. لأن في الابتلاع دليلا على إذهاب الماء بسرعة. ألا ترى أن قولك لغيرك : ابلع هذا الطعام ، أبلغ من قولك له : كل هذا الطعام ، إذا أردت منه إيصاله الى جوفه بسرعة؟ وكذلك الكلام في قوله سبحانه : ﴿وَيا سَماءُ أَقْلِعِي﴾ : لأن لفظ الإقلاع هاهنا أبلغ من لفظ الانجلاء. لأن في الإقلاع أيضا معنى الإسراع بإزالة السحاب ، كما قلنا في الابتلاع. وذلك أدلّ على نفاذ القدرة ، وطواعية الأمور ، من غير وقفة ولا لبثة ، هذا الى ما في المزاوجة بين اللفظين من البلاغة العجيبة ، والفصاحة الشريفة. إذ يقول سبحانه : يا أرض ابلعي ، ويا سماء أقلعي : ومثل هذا في القرآن أكثر من أن يشار إليه.

وقوله سبحانه : ﴿وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٨). وهذه استعارة. لأن العذاب في الحقيقة لا يوصف بالغلظ ، والدقة ، لأنه الألم الذي يلحق الحي في قلبه أو جسمه. وإنما وصفه تعالى بالغلظ على طريقة كلام العرب ، لأنهم يصفون الأمر الهيّن بالضؤولة والدقة ، كما يصفون الأمر الشاق بالغلظ والشدة ، حملا لذلك على عرفهم في المراعاة للشيء الغليظ الكثيف ، وقلة الحفل بالشيء الدقيق الضئيل. ألا ترى إلى قولهم : عرض فلان دقيق ، وقدره ضئيل؟ وإلى قولهم في مقابلة ذلك : لقي فلان فلانا بكلام غليظ ، وقول ثقيل.

وقد يجوز أيضا ـ والله أعلم ـ أن يكون المراد بعذاب غليظ هاهنا الصفة

لعذاب الآخرة. والعذاب إنما يقع بالآلات المستعظمة والأعيان المستفظعة ، مثل مقامع الحديد ، والحجارة المحماة بالجحيم. فوصف سبحانه العذاب الغليظ ، لأنه واقع بالأشياء الغليظة ، والآلات الثقيلة ، فيكون ذلك مجازا من هذا الوجه.

وممّا يقوّي أن المراد بقوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٨) عذاب الآخرة ، قوله تعالى في الآية نفسها : ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [الآية ٥٨] وهذه النجاة من عذاب الدنيا. ثم قال تعالى : ﴿وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ فدلّ على أن النجاة من العذاب الأول غير النجاة من العذاب الآخر. وأن الأول عذاب الدنيا ، والثاني عذاب الآخرة ، لأن العطف بالواو يقضي بذلك ، وإلّا كان وجه الكلام : فلمّا جاء أمرنا نجّينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا من عذاب غليظ ، ولم يكن لقوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْناهُمْ﴾ ثانيا معنى ؛ وهو محال.

وقوله سبحانه حاكيا عن لوط عليه‌السلام : ﴿قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠) وهذه استعارة والمراد بها : لو كنت آوي الى كثرة من قومي ، وعدد من أهلي. وجعلهم ركنا له ، لأن الإنسان يلجأ الى قبيلته ، ويستند الى أعوانه ومنعته ، كما يستند الى ركن البناء الرصين ، والنضد الأمين [١].

وجاء جواب «لو» هاهنا محذوفا. والمعنى : لو أنني على هذه الصفة لحلت بينكم وبين ما هممتم به من الفساد وأردتموه من ذنوب فحشاء. والحذف هاهنا أبلغ ، لأنه يوهم المتوعّد بعظيم الجزاء ، وبغليظ النكال ، ويصرف وهمه الى ضروب العقاب ، ولا يقف به عند جنس من أجناس المخوفات المتوقّعات.

وليس مخرج هذا الكلام من لوط عليه‌السلام ، على ما ظنّه من لا معرفة له ، وقدح فيه بأن قال : ألم يكن يأوي الى الله سبحانه؟ فما معنى القول الذي قاله؟ وذلك أن لوطا على ما ذكرنا إنّما أراد الأعوان من قومه ، والأركان المستند إليهم من قبيلته ، وهو يعلم أن له من معونة الله سبحانه أشد الأركان ،

(١). النّضد من الجبل : ما تراكم منه. والجمع أنضاد.

وأعز الأعوان ، إلا أن من تمام إزاحة العلّة في التكليف حضور الناصر ، وقرب المعاضد والمرافد.

وقوله سبحانه في صفة الحجارة المرسلة على قوم لوط : ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣) وهذه استعارة. لأن حقيقة التسويم هي العلامات التي يعلّم بها الفرسان والأفراس في الحرب ، للتمييز بين الشعارات ، والتفريق بين الجماعات.

قال الله سبحانه : ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (١٢٥) [آل عمران]. وقال الله سبحانه : ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران / ١٤] والمعنى أنه سبحانه لما جعل تلك الحجارة حربا لهم وأعوانا عليهم ، وصفها بوصف رجال الحرب وخيولهم ، فكأنها مرسلة من عند الله ، أي من عند ملائكة الله الذين تولّوا الرمي بها ، إرسال الخيول المسوّمة على أعدائها ، وإن لم يكن هناك تسويم على الحقيقة.

وقد قال بعضهم : إن تلك الحجارة كانت على الحقيقة معلّمة بعلامات تدل على أنها أعدّت للعذاب ، وأفردت للعقاب. وذلك أملأ للقلوب ، وأعظم في الصدور.

وقوله سبحانه : ﴿وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (٨٤).

وهذه استعارة من وجهين : أحدهما وصف اليوم بالإحاطة ، وليس بجسم فيصح وصفه بذلك. والوجه الآخر : أن لفظ محيط هاهنا كان يجب أن يكون من نعت العذاب ، فيكون منصوبا. فجعله ـ سبحانه ـ من نعت اليوم فجاء مجرورا ، فأمّا وصف اليوم بالإحاطة ـ وان لم يتأتّ فيه ذلك ـ فالمراد به ـ والله أعلم ـ أن العذاب لما كان يعمّ المستحقّين له في يوم القيامة حسن وصف ذلك اليوم بأنه محيط بهم ، أي أنه كالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب والإفلات من العقاب. وأما نقل نعت العذاب الى نعت اليوم ، فالوجه فيه أن العذاب لما كان واقعا في ذلك اليوم ، كان ذلك اليوم كالمحيط به ، لأنه ظرف لحلوله ، ووقت لنزوله.

وقوله سبحانه : ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٨٦] وهذه استعارة. لأن حقيقة البقية تركة شيء من شيء قد مضى ، ولا يجوز إطلاقه

على الله سبحانه. فإذن يجب أن يكون المراد غير هذه الحقيقة. وقد قيل في معنى ذلك وجوه : أحدها بقية الله من نعمته خير لكم. وقد قيل : بقيّة الله طاعة الله ، وذلك لأنها تبقي رضاه وثوابه أبدا ما بقيت. وقيل بقيّة الله أي عفو الله عنكم ورحمته بكم بعد استحقاقكم العذاب ، كما يقول العرب المتحاربون بعضهم لبعض ، إذا استحرّ فيهم القتل ، وأعضلهم الخطب : البقية! البقية! أي نسألكم البقية علينا والمكافأة لنا. والبقية هاهنا والإبقاء بمعنى واحد.

وقوله سبحانه : ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا﴾ [الآية ٨٧] وهذه استعارة. لأن الصلاة لا يصح منها الأمر على الحقيقة ، وإنما أطلق عليها ذلك ، لأنها بمنزلة الآمر بالخير ، والناهي عن الشر.

وقيل : المراد بذلك : أدينك يأمرك بهذا؟ أي في شريعتك ودينك الأمر بهذا؟ فإذا كان ذلك في عقد الدين حسن أن يضاف الأمر به الى الدين :

وفي هذه الآية أيضا مجاز آخر. وهو أنه تعالى قال : ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ [الآية ٨٧] وليس يصح على ظاهر الكلام أن يؤمر شعيب بأن يترك قومه شيئا هم عليه ، وإنما المعنى ـ والله أعلم ـ أصلاتك تأمرك أن تأمرنا بترك ما يعبد آباؤنا؟ فاكتفى بذكر الأمر الأول عن ذكر الأمر الثاني ، لأنه كالمعلوم من فحوى الكلام. وهذا من غوامض أسرار القرآن.

وقوله سبحانه : ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [الآية ٩٢]. فهذه استعارة. لأن الله سبحانه لا يجوز عليه أن يجعل ظهريّا على الحقيقة. فالمراد أنّكم جعلتم أمر الله سبحانه وراء ظهوركم. وهذا معروف في لسان العرب ، أن يقول الرجل منهم لمن أغفل قضاء حاجته ، أو ثنى عطفا على عذله وعتابه : جعلت حاجتي وراء ظهرك ، وتركت مقالي دبر أذنك. أي لم تعن بحاجتي ، ولم تصغ إلى معاتبتي.

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [الآية ٩٤]. وهذه استعارة ، لأن حقيقة الأخذ إنما يوصف بها الأجسام. والصيحة عرض من الأعراض ، لأنها بعض الأصوات ، إلا أنها أقوى للأسماع صكّا وقرعا ، وأبلغ

في القلوب وجلا وروعا .. والمراد أن هلاكهم لما كان عن الصيحة حسن أن يقال : إنها أخذتهم بمعنى ذهبت بنفوسهم ، وأتت على جمعهم.

وقوله تعالى : ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩) فقوله تعالى : ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨) و ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩) استعارتان. لأنه تعالى جعل فرعون في تقدمة قومه الى النار بمنزلة الفارط [1] المتقدم للوارد الى الورد ، كما كان في الدنيا متقدّمهم الى الضلالة ، وقائدهم الى الغواية ، وجعل النار بمنزلة الماء الذي يورد ، ثم قال تعالى : ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨) لأنه ورد لا يجيز الغصة ، ولا ينقع الغلة.

وقد اختلف العلماء في [فهم] قوله تعالى : ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (٩٨). وهل ذلك ذم لنار جهنم على الحقيقة أو المجاز ، فقال أبو علي [2] محمد بن عبد الوهاب الجبائي : ذلك على طريق المجاز ، والمعنى بئس وارد النار. وقال أبو القاسم البلخي [3] : بل ذلك على طريق الحقيقة.

فأمّا قوله سبحانه : ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (٩٩) فإنما قلنا إنه استعارة ، لأن حقيقة الرفد العطية. يقال رفده يرفده رفدا ورفدا بفتح الراء وكسرها. ولكن اللعنة لما جعلت بدلا من الرّفد لهم عند انتقالهم من دار الى دار ، على عادة المنتجع المسترفد او الرجل المتزوّد ، جاز أن يسمّى رفدا ، على طريق المجاز ، كما قال تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١) [آل عمران] والبشارة في الأعم ، الأغلب ، إنما تكون بالخير لا بالشرّ. ولكن لما جعل إخبارهم باستحقاق

---

(١). الفارط : اسم فاعل من فرط بمعنى سبق وتقدم.

(٢). أبو علي محمد الجبّائي كان رأسا من رؤوس المعتزلة ، وشيخ علماء الكلام في عصره. وتنسب إليه طائفة «الجبّائية» ، والجبائي نسبة الى «جبّى» من قرى البصرة. توفي سنة ٣٠٣ ه‍. وذكر ابن حوقل في «المسالك والممالك» أنّ جبّى مدينة ورستاق عريض مشتبك العمائر بالنخل وقصب السكر وغيرهما ؛ ومنها أبو علي الجبّائي ، الشيخ الجليل ، إمام المعتزلة ، ورئيس المتكلّمين في عصره.

(٣). أبو القاسم البلخي هو عبد الله بن أحمد الكعبي ، كان رأس طائفة من المعتزلة ، يقال لهم الكعبيّة. والكعبي نسبة الى بني كعب ؛ والبلخي نسبة الى بلخ ، إحدى مدن خراسان. توفي سنة ٣١٧ ه‍.

العذاب في موضع البشارة لغيرهم باستحقاق الثواب ، جاز أن يسمّى في ذلك بشارة.

وقوله سبحانه : ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠) وهذه استعارة. والمعنى : منها قائم البناء ، خال من الأهل ، ومنها منقوص الأبنية ، ملحق بالأرض ، تشبيها بالزرع المحصود. الى هذا المعنى يومئ قوله تعالى : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ (٤٥). وقوله سبحانه : ﴿وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾ [البقرة / ٢٥٩] والعروش الأبنية. أي خالية من أهلها ، على ما فيها من بواقي أبنيتها.

وقد يجوز أن يكون ذلك كناية عن أهل القرى ، فكأنه سبحانه شبّه الأحياء الباقين بالزرع النامي ، وشبه الأموات الهالكين بالزرع الذاوي. وذلك أحسن تمثيل ، وأوقع تشبيه.

وقوله سبحانه : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩). وهذه استعارة. والمراد هاهنا بتمام كلمة الله سبحانه صدق وعيده ، الذي تقدّم الخبر به ، وتمام وقوع مخبره مطابقا لخبره.

سورة يوسف

١٢

أهداف سورة «يوسف» (١)

سورة يوسف سورة مكّيّة كلّها ، وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط ، وقيل إن الآيات الثلاث الأولى مدنيّات ، وهو رأي ضعيف ، لأن السورة كلّها قصة واحدة.

ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء في المصحف المطبوع في مصر ، ويزاد عليه الآية السابعة ، قال السيوطي في الإتقان وهو رأي واه جدّا ، فلا يلتفت إليه.

* * *

وحين نستعرض سورة يوسف ، نجد أنها سورة فريدة من نوعها من بين سور القرآن الكريم.

فهناك قصص متعدد مبثوث في ثنايا سور القرآن ، لكن القرآن كان يكتفي أحيانا بذكر حلقة أو حلقات محدودة من القصة ، كحلقة قصة مولد عيسى ، أو حلقة قصة نوح والطوفان ، لأن هذه الحلقات تفي بالمقصود منها.

أما قصة يوسف ، فتقتضي أن تتلى كلها متوالية الحلقات والمشاهد ، من بدئها إلى نهايتها ، وصدق الله العظيم ، إذ قال :

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ (٣).

* * *

وسورة يوسف ، هي قصة يوسف مطوّعة في سردها ، وطريقة أدائها ،

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها» ، لعبد الله محمود شحاته ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

وخصائصها الفنية كلها ، للقضية الكبرى التي جاء القرآن ليعالجها ويوضحها ، ويثبتها في القلوب ، وهي قضية العقيدة وما يقوم عليها في حياة الناس من روابط ونظم وصلات ، تسبقها في السورة مقدمة تشير إلى الوحي بهذا القرآن ، وبقصصه الذي هو أحسن القصص ، والذي لم يكن محمد (ص) ، يعرف عنه شيئا من قبل.

وتتلوها تعقيبات شتّى ، تفيد أن القصص القرآني غيب من عند الله سبحانه يثبّت به الرسول (ص) ، ويعظ به المؤمنين ، قال تعالى :

﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١).

كذلك تضم السورة جناحيها على لفتات ولمسات أخرى في صفحة الكون ، وفي أغوار النفس ، وفي آثار الماضين ، وفي ضمير الغيب المطوي ، لا يدري البشر ما هو مخبوء خلف ستاره الرهيب ؛ وكل هذه العظات المبثوثة في حنايا السورة ، تتناسب مع القصة ، والقصة تتكامل معها ، لتحقيق القضية الكبرى التي جاء بها هذا القرآن للبشرية ، وجاءت بها رسالات الأنبياء في العصور المتلاحقة.

* * *

وقد ساق القرآن دعوة صريحة إلى العقيدة السليمة ، والإيمان بالله تعالى على لسان يوسف (ع) حين مكث في السجن يدعو إلى الله ، ويأخذ بيد الضعفاء ، ويواسي المحزونين ، ويفسّر الأحلام ، ويشرح لهم سر معرفته وإيمانه ، فيقول كما ورد في التنزيل :

﴿ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٠).

وبذلك نجد السورة تربط بين رسالات السماء جميعها برباط أساسي وهدف مشترك هو الدعوة إلى توحيد

الله ونبذ الشركاء والأنداد ، وبيان أن الإيمان بالله هو الطريق الواضح ، والدين القيّم الذي يسمو بصاحبه ويعصمه من الفتنة ، ويمنعه من الرذيلة ، ويجعله يقف ثابت اليقين ، يقاوم الإغراء ، ويردّ المنحرف إلى طريق الصواب ، قال تعالى :

﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ٢٣).

قصة يوسف

قصة يوسف أطول قصة في القرآن ، تجتمع حلقاتها كلّها في سورة واحدة ، وتلحظ فيها الخصائص الفنية البحتة للقصة ، خصائص الموضوع وخصائص العرض والأداء.

فالقصة غنية بالعنصر الإنساني ، حافلة بالانفعال والحركة ؛ وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازا قويا ، فضلا عن خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثّرة.

في القصة يتجلّى عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات متنوّعة ، واضحة الخطوط والمعالم ، في حبّ يعقوب ليوسف وأخيه ، وحبّه لبقيّة أبنائه ، وفي استجاباته للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها.

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات ، بحسب ما يرون من تنوّع صور الحب الأبوي.

وعنصر التفاوت في الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد في نفوس الإخوة ، فبعضهم يقوده هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجبّ تلتقطه بعض القوافل السيّارة ، وفي قصة يوسف نجد عنصر المكر والخداع في صور شتّى ، من مكر إخوة يوسف به ، إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة.

وعنصر الشهوة ونزواتها ، والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام ، وبالإعجاب والتمنّي والاعتصام والتأبّي.

وعنصر الندم في بعض ألوانه ، والعفو في أوانه ، والفرح بتجمّع المتفارقين. وذلك إلى بعض صور المجتمع المتحضّر في البيت والسجن والسوق والديوان ، في مصر يومذاك ، والمجتمع العبراني ، وما يسود العصر من الرؤى والتنبّؤات.

وقد بدأت القصة بالرؤيا يقصّها يوسف على أبيه ، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم ، وينصحه بألّا يقصّها على إخوته ، كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به ، فيكيدون له. ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هي تأويل للرؤيا ، ولما توقّعه يعقوب من ورائها ، حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى السياق القصة ، ولم يسر فيها كما سار كتاب (العهد القديم) ، بعد هذا الختام الفني الدقيق الوافي بالغرض كل الوفاء.

* * *

وما يسمى بالعقدة الفنية في القصة الحديثة واضح في قصة يوسف ، فهي تبدأ بالرؤيا ، ويظل تأويلها مجهولا ، ينكشف قليلا قليلا ، حتّى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلا فنيّا طبيعيّا ، يرضي الذوق الفنّي الخالص ، ويرضي الوجدان الدينيّ ، ويفي بدوره للقضية الكبرى التي سيقت القصة لها من الأساس.

والقصّة مقسّمة إلى حلقات ، كل حلقة تحتوي على جملة من المشاهد ، والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد ، بحيث يترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملأها الخيال ، ويكمل فيها ما حذف من حركات وأقوال ، ويستمتع بإقامة الصلات بين المشهد السابق والمشهد اللاحق ، فيمنح القصة بعض خصائص التمثيلية ، ويملأها بالحركة والحيوية.

وهذه الطريقة متّبعة في جميع القصص القرآني ـ على وجه التقريب ـ وهي شديدة الوضوح في القصص الكبيرة ، خصوصا قصّة يوسف الصديق.

* * *

يوسف بين إخوته وأبيه

أكرم الله عزّوجلّ نبيّه يوسف (ع) بأصل كريم ، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وقد رزق يعقوب اثني عشر ابنا هم الأسباط. كان يوسف وبنيامين من أم تسمى راحيل ، وبقية الأسباط من أمهات أخرى.

وقد ماتت راحيل أم يوسف وتركته في الثامنة عشرة من عمره أشد ما يكون حاجة إلى قلب الأم وعطفها ، ولهذا آثر يعقوب يوسف وبنيامين بالحب والحنان ، فسرى داء الحسد بين بقية الإخوة ، وقال قائل منهم : ألا ترون أن

يوسف وأخاه أحبّ إلى أبينا منّا ، وأقرب إليه منا جميعا.

وقال الثاني : إن حبّ يوسف قد تمكّن من قلب يعقوب ، ولا شفاء ليعقوب من هذا المرض إلا بإبعاد يوسف عنه ، فيجب أن نقتل يوسف ، أو نتركه في أرض نائية مقطوعة حتى يموت.

وقال يهوذا : إن القتل لا يقرّه العقل ولا الدين ، فلا تقتلوا يوسف ، وإنما ألقوه في البئر العميق بجوار بيت المقدس ، فهذا البئر ملتقى الغادي والرائح ، وسيأخذه بعض القوافل ويبعدون به عنكم ، فوافقوا جميعا على رأي يهوذا ، وبيّتوا أمرهم عليه.

رؤيا يوسف

أصبح يوسف ، فأخبر أباه أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدين له ، فعلم الأب أن ابنه سيكون له شأن عظيم ، وأنّ أسرته ستأتي له خاضعة معترفة بفضله ، فيسجد بين يديه يعقوب أبوه [سجود تحيّة] ، وخالته ليا وهي بمنزلة أمه ، وأخوته الأحد عشر ، ولكن يعقوب خشي على يوسف من حسد إخوته ، فأمره أن يكتم هذه الرؤيا وألّا يخبر بها أحدا ؛ ولأمر ما تسرب خبر هذه الرؤيا إلى الإخوة فأشعل نار الغيرة بينهم ، واستأذنوا أباهم في مصاحبة يوسف يوما إلى المرعى حيث الهواء الطلق والمنظر الجميل ، فأذن لهم بعد تردّد ، وأخذوا يوسف وألقوه في ظلام البئر بعد أن استغاث بهم فلم يغيثوه ؛ وألقى الله على يوسف السكينة ، فاطمأنّ لمصيره ، وجاءت قافلة تريد الماء ، وألقت بدلوها إلى البئر ، فتعلّق يوسف بالدلو وفرحت القافلة بمنظر الغلام الجميل ، وقدموا به إلى أرض مصر ، فباعوه إلى عزيز مصر بثمن بخس زهيد ، ولمح العزيز في يوسف كرم الأصل وشرف العنصر وجمال الخلق وطيب المنبت ، فقال العزيز لامرأته أكرمي مثوى هذا الغلام وأحسني معاملته ، وحاشاك أن تزجريه زجر الخدم أو تضربيه ضرب العبيد ، فإني لأرجو إذا اكتمل عوده ونضجت سنه ، أن ينفعنا أو نتّخذه ولدا.

وانصرف يوسف إلى العمل في بيت العزيز في جد وأمان ، فمكّن الله له في الأرض وأودع محبته في قلوب الجميع ، فلما وصل إلى سن الرشد

والقوة ، وهي تقع عادة بين العشرين والثلاثين ، آتاه الله حكما وعلما ، وصوابا في الحكم على الأمور ، ومعرفة بمصائر الأحاديث وتأويل الرؤيا.

وهكذا أراد إخوة يوسف به أمرا ، وأراد الله له أمرا ؛ ولكن أمر الله غالب ، ومشيئته نافذة ، فقد زادت ثقة العزيز في يوسف ، وظهر له مكنون حزمه وعقله ، وأمانته ونزاهته ، فأدخله فيما بين نفسه وأهله ، وبوّأه مكان الأشراف الأحرار ، ووضعه من قلبه موضع الأبناء الأبرار.

يوسف وامرأة العزيز

نما يوسف وترعرع وبلغت سنه خمسا وعشرين سنة ، وصار أمينا في بيت العزيز. وكانت امرأة العزيز في سن الأربعين ، ولها سلطان الملك وقدرة الأمر والنهي ، وسيطرة النفوذ والجاه ؛ ولكن سلطان الحب قد ملك قلبها ، وسيطر على فؤادها.

وحاولت إغراء يوسف مستغلة فنون الإغراء كلها ، قال تعالى :

﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [الآية ٢٣].

فكلمة (راودته) من راد يرود بالإبل إذا ذهب بها ، وجاء ؛ وهي تشير إلى فنون الأنثى مقبلة إلى فن ، مدبرة عن فن ، من فنون الإغراء الصامتة التي تحاول بها أن تثير يوسف ، فلما يئست من الصمت (غلّقت الأبواب) بتشديد اللام ، كأنها أرادت أن تجعل الأبواب حيطانا ، ثم عرضت نفسها على يوسف (وقالت هيت لك) : قد تهيأت لك راغبة فيك ؛ وهنا وقد خلعت المرأة ثياب الملك والعظمة والسيادة ، ولبست ثوب الإغراء والتولّه والرغبة ؛ وقف يوسف في عزّة وإباء وإيمان ، يقول ، كما ورد في محكم التنزيل :

﴿مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) [الآية ٢٣].

فالمرأة في العصور كلها أكثر عاطفة من الرجل وأكثر تدينا وإيمانا ، وأكثر مراعاة لحرمة الزوجية ، وأكثر نفورا من الظلم.

ولهذا عمد يوسف إلى عاطفة الايمان بالله ، فقال : ﴿مَعاذَ اللهِ﴾ أستعيذ بالله من الفحشاء والمنكر ، إن زوجك أكرمني وجعلني أمينا على بيته

وعرضه ، فهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان :

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾.

وهناك عين الله التي ترى وتعلم السر وأخفى ، وهذا ظلم وعدوان ، وإنه ﴿لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣).

ولكن المرأة كانت قد صمّت أذنيها عن سماع كل موعظة ، وأغمضت عينيها عن رؤية الحق ، ولم يبق في ذهنها إلا فكرة واحدة في مكان .. في رجل .. فهمّت به صائلة عليه لتنتقم لنفسها وكرامتها ، أو لترغمه على طاعتها ، وهمّ بها ليضربها أو يقتلها دفاعا عن الفضيلة والشرف ، ولكن الله ألهمه أن الفرار خير من القتال ، والمسالمة خير من المواثبة ، وفتحت الأبواب أمامه فأسرع هاربا منها ، ولكنها عدت وراءه ، طمعا في تنفيذ رغبتها ، أو خوفا من افتضاح أمرها.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ [الآية ٢٥].

ونتيجة جذبها له لترده عن الباب ، وقعت مفاجأة ، فقد كان العزيز يمرّ في تلك اللحظة ، فرأى يوسف واقفا وقميصه ممزّقا ، وكان موقفا يبعث على الرّيبة ويثير الاتهام ، فاتهمت المرأة يوسف ، بأنه راودها عن نفسها ؛ وهجم عليها في مخدعها ، ولا بدّ من سجنه ، أو إذاقته مرّ العذاب.

ولم يجد يوسف بدّا من وصف الواقع وإيضاحه ، فقال هي التي راودتني عن نفسي وجذبتني من ثوبي ، وهذا قميصي شاهد على صدقي ، وأمام تضارب الأقوال ، استدعى الملك ابن عمها وكبير أسرتها ، وكان فطنا لبيبا ، فسمع القضية من أطرافها ، وفطن لما وراء قصّتها فقال : إن كان قميصه قدّ من الأمام فذلك إذا من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها ، فهي صادقة وهو من الكاذبين ؛ وإن كان قميصه قدّ من الخلف ، فهو إذا من أثر هروبه منها ، ومطاردتها له حتى الباب ، فهي كاذبة وهو من الصادقين.

فلما رأى الملك بعينه أن القميص قد مزّق من الخلف ، وضح الحق وظهرت براءة يوسف أمامه ، والتفت العزيز إلى امرأته وقال : إنّ هذا من كيد النساء ومكرهنّ ، فاستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ، وأنت يا يوسف أمسك لسانك عن الخوض في هذا الحديث ، واكتم أمره عن الناس أجمعين.

تعرض يوسف لحلقات متتابعة من الإغراء والوعد والوعيد ، وتوالت عليه حملات زليخا ، ونساء من وجوه المدينة ، فدعا يوسف ربه أن ينجيه من كيدهن ومكرهن ، بقوله كما ورد في القرآن الكريم :

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [الآية ٣٣].

ورأى العزيز أن يضحي بهذا البريء النزيه ، حتى تسكت الألسنة وتخف عن زوجته التهمة ، فأدخل يوسف السجن.

وكان يوسف في السجن ، مثالا كريما في الدعوة إلى الإيمان وتفسير الأحلام وإرشاد الناس إلى الحق ؛ ثم رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف ، وفسّر يوسف هذه الرؤيا بأن البلد مقبلة على سبع سنين مخصبة يجود فيها النيل بالماء ، ثم تأتي بعدها سبع سنين مجدبة يجف فيها ماء النيل ، ويعقب ذلك عام طيّب مثمر ، فأمر الملك بالعفو عن يوسف ، ولكنه أبى أن يخرج من السجن إلا بعد التثبّت من براءته ونزاهته ، فاعترفت النسوة بنزاهته وفي ذلك ، يقول الله تعالى :

﴿حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٥١).

فخرج يوسف من السجن بريئا نزيها ، ثم نال إعجاب الملك والحظوة عنده.

وعلم يوسف أن مصر قادمة على مجاعة ، فالنيل سيجود بالماء سبع سنين ثم يمتنع عن الفيضان سبع سنين أخرى ، ورأى يوسف ثقة الملك فيه وإعجابه بنزاهته وأمانته فقال كما ورد في التنزيل :

﴿قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٥).

واستطاع يوسف بحكمته أن ينجي مصر من المجاعة ، وأن يدّخر القمح في سنابلها ، والذرة في كيزانها ، وأن يدير التموين والأموال ، وأن يحفظ لمصر مكانتها وفضلها فاستطاعت أن تساعد نفسها ، وأن تمديد العون لما حولها من البلاد.

ووصل خبر يوسف إلى البلاد

المجاورة ، وإلى أرض كنعان حيث يقيم نبيّ الله يعقوب وأبناؤه الأسباط.

فقال يعقوب لبنيه : يا بنيّ إن الجدب عمّنا والقحط يكاد يأتي علينا ، فاقصدوا هذا العزيز ، وأحضروا من عنده القمح والطعام ، واتركوا عندي أخاكم بنيامين أتعزّى ببقائه عن فراقكم ، فرحل أبناء يعقوب إلى مصر ، قاصدين مقابلة العزيز.

واستأذن الحاجب على يوسف ، فقال إن بالباب عشرة رجال تتشابه وجوههم ، وكأنهم غرباء عن هذه الديار يستأذنون في الدخول عليك ، فأذن يوسف لإخوته وعرفهم ، ولكنهم لم يعرفوه ، فقد تركوه في الجب ذليلا فريدا ، فأين منه هذا الأمير العزيز الذي يأمر فيطاع ، ويقول فيمتثل الجميع أمره. وأكرم يوسف وفادتهم ، وترك نقودهم داخل التموين الذي أمدّهم به ، وطلب منهم أن يحضروا أخاهم بنيامين معهم في المرة الثانية ، ولما حضر بنيامين مع إخوته استطاع يوسف أن يستبقيه معه ، ثم ذهب الإخوة إلى أبيهم ، فاشتدّ حزنه لفراق يوسف وبعده بنيامين ، وجلس حزينا في محرابه يبكي أشد البكاء ، ويقول كما أخبرنا القرآن الكريم ﴿يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ﴾ [الآية ٨٤].

ثم قال الأب لأبنائه ، إني أحس في قرارة نفسي بوجود يوسف على قيد الحياة ، فاذهبوا إلى مصر وتحسّسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من فضل الله ورحمته ؛ ودخل الإخوة على يوسف ، وقد اشتدّ بهم الضرّ والحاجة ، فطلبوا من يوسف أن يرفق بهم ، وأن يتصدّق عليهم ، وهنا فاض قلب يوسف حنانا وعطفا على إخوته ، وسألهم عمّا فعلوه بيوسف في زمان جهلهم ، فقالوا إنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخي بنيامين :

﴿قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠).

لقد اتقى يوسف ربّه ، وصبر عن الفحشاء ، وتحمّل السجن في طاعة الله ، فلم يضع أجره ، وجعله الله على خزائن الأرض ، عزيزا كريما ، فالله يتولى الصالحين.

وصفح يوسف عن إخوته وقال لهم :

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٣).

وعاد الإخوة إلى أبيهم ، فأحسّ رائحة القميص من مسافة بعيدة ، ولما وضع القميص على وجهه عاد بصيرا ، ورحل يعقوب مع أسرته قادمين إلى مصر ، ودخلوا على يوسف ، وخرّوا له جميعا ساجدين [سجود تحيّة] ، الأب والأم والإخوة ، فقال يوسف :

﴿يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾ [الآية ١٠٠].

وشكر يوسف ربّه إذ أخرجه من السجن ، وجاء بإخوته من البادية ، وجمع شمل الأسرة ، ثم مكّن الله ليوسف في الأرض ، وآتاه الملك والحكمة ، ليكون في قصته دليلا للعاملين ونبراسا للمخلصين ؛ وكأنه سبحانه يمهد الأسباب والمقدمات بلطفه وحكمته ، لتكون العاقبة للمتّقين ، ومد يوسف (ع) يده لله تعالى طالبا منه حسن الخاتمة والسير في موكب الصالحين فقال ، كما ورد في التنزيل :

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١).

* * *

ترابط الآيات في سورة «يوسف» [١]

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «يوسف» بعد سورة «هود» ، وقد نزلت سورة «هود» بعد «الإسراء» وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة «يوسف» في ذلك التاريخ أيضا.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم ، لأنها نزلت في قصة يوسف مع أبيه وإخوته ، وتبلغ آياتها إحدى عشرة ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن ، كما يقصد من سورتي «يونس» «وهود» ، ولهذا ذكرت بعدهما ، وتختلف طريقة إثباته فيها عن طريقة إثباته فيهما ، لأن طريقة إثباته فيهما ، كانت بتحدّيهم أن يأتوا بسورة أو عشر سور مثله ؛ أما طريقة إثباته في هذه السورة ، فبأنه يقصّ عليهم من تفصيل أخبار يوسف (ع) ، ما لا يمكن أميّا مثله أن يعرفه.

وقد جاءت هذه السورة في هذا الغرض على ثلاثة أقسام : أولها في مقدمة ، يقصد منها التمهيد لقصة يوسف ، وثانيها ، في قصة يوسف ، وثالثها ، في خاتمة تناسب ما سيقت له هذه القصة.

المقدمة

الآيات (١ ـ ٣)

قال الله تعالى ﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن» ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب بالجمايز. المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

الْمُبِينِ﴾ (١) فأقسم بهذه الحروف ، أن ما أنزله هو آيات الكتاب المبين ، وذكر أنه أنزله قرآنا عربيّا ، ليعقلوه ويفهموه ، وأنه يقصّ عليه فيه أحسن القصص ، وقد كان من قبله لا يعلم شيئا منه ، فلا يمكن إلا أن يكون منزّلا من عنده.

قصة يوسف (ع)

الآيات (٤ . ١٠١)

ثم قال تعالى ﴿**إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ**﴾ (٤) كان ليعقوب اثنا عشر ولدا : ستة من ليا بنت ليان ، وأربعة من سريّتين له ، واثنان من راحيل بنت ليان ، وكان قد تزوجها بعد وفاة أختها ، فولدت له بنيامين ويوسف. فذكر تعالى أن يوسف رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له ، فقصّ ما رآه على أبيه ، فنهاه أن يقصّه على إخوته ، لئلا يحملهم الشيطان على الكيد له ، وكان يحبه هو وأخوه بنيامين أكثر منهم ، ثم أوّله له بأن ربه يجتبيه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتمّ نعمته عليه ، وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق ؛ ثم ذكر سبحانه أن في قصة يوسف آيات وعبرا للسائلين ، ثمّ فصّلها ، فذكر تعالى أن إخوة يوسف ذكروا فيما بينهم أن يوسف وأخاه أحبّ إلى أبيهم منهم ، وحكموا بتخطئته في إيثارهما بزيادة حبّه عليهم ، وتآمروا على قتله أو إبعاده في أرض عن أبيه ؛ فأشار بعضهم بإلقائه في جبّ ليلتقطه بعض السّيّارة الذين يمرون به ، فاتفقوا على هذا الرأي ، ثم احتالوا على أبيهم ، حتى يرسله ليرتع ويلعب معهم ، فذكر أنه يخاف أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون ، فتعهّدوا له ألّا يغفلوا عنه ، فلمّا ذهبوا به ألقوه في ذلك الجبّ ، واتفقوا على أن يرجعوا إلى أبيهم ، فيخبروه بأن الذئب أكله وهم في غفلة عنه ، وأوحى الله إليه لينبّئنّهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون.

ثم ذكر سبحانه أنهم رجعوا إلى أبيهم يبكون ، وأخبروه بأنهم ذهبوا يستقون ، وتركوا يوسف عند متاعهم ، فأكله الذئب ، وأتوه بقميصه وعليه دم لطّخوه به ، فنظر إلى القميص فوجده لا تمزيق فيه. فعرف كذبهم وأخبرهم بأن أنفسهم سوّلت لهم فيه أمرا ، وصبر

على فقد يوسف صبرا جميلا ، واستعان الله على ما يصفون من الكذب ، ليظهر أمره له ، ويعلم ما فعلوه به.

ثم ذكر تعالى ، أن سيارة كانت ذاهبة من مدين إلى مصر ، أرسلوا واردهم ليطلب لهم الماء، فسار حتى وصل إلى ذلك الجبّ ، فأدلى دلوه فتعلق يوسف به ، فلمّا رآه فرح به لجماله وحسنه ، واتفق هو ومن معه على أن يخفوا أمره عن سيارتهم ، ويخبروهم بأن أهل الماء جعلوه بضاعة عندهم ، على أن يبيعوه لهم بمصر ، ثم ذكر أنهم باعوه بثمن بخس لأنهم لم يغرموا فيه شيئا ، وكان الذي اشتراه عزيز مصر ، فأمر امرأته أن تكرم مثواه ، عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولدا ؛ ثم ذكر جلّ شأنه أنه لما بلغ أشدّه ، آتاه حكمة وعلما ، وجزاه بذلك على إحسانه وطاعته ، وأنّ امرأة العزيز راودته عن نفسه ، فاستعاذ بالله ممّا تطلبه منه ، وخرج هاربا إلى الباب فخرجت وراءه لتمنعه ، وتعلّقت بقميصه فقدّته من دبر ، فلما وصلا إلى الباب ، وجدا بعلها عنده ، فرمته بأنه كان يريد بها سوءا ، وذكر له أنها راودته عن نفسه فأبى ؛ وجاء شاهد من أهلها ، فذكر أن قميصه إن كان قدّ من قبل ، تكون هي الصادقة ، وإن كان قدّ من دبر يكون هو الصادق ، فلما رآه قدّ من دبر علم أن اتهامها له من الكيد الذي عرفن به ، وأمره أن يعرض عن هذا ، لئلّا يظهر للناس ، وأمرها أن تستغفر من ذنبها ، ولا تعود إليه.

ثم ذكر تعالى أن نسوة في المدينة عرفن ذلك ، فلمنها عليه ، فلما سمعت بما حصل منهن ، دعتهنّ إليها ، وأحضرت لهن طعاما ، وآتت كل واحدة منهن سكينا لقطع الطعام ، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن ، فلمّا رأينه أكبرنه ، ودهشن ، فوقعت سكين كل واحدة على يدها ، فجرحتها ، ثم أخبرتهن بأنه هو الذي لمنها فيه ، وأنه إن لم يفعل ما تأمره به ، فلا بدّ من أن تسعى في سجنه ، فآثر السجن على ما دعته إليه ، ولم يجبها إلى ما أرادته ، فذهبت إلى بعلها ، فشكته أنه فضحها في الناس ، وأنه يخبرهم بأنها راودته عن نفسه ، فرأى أن يحبسه ، حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر ذلك الحديث.

ثم ذكر سبحانه ، أنه دخل معه السجن فتيان : أحدهما صاحب طعام

الملك ، وثانيهما كان صاحب شرابه ، فقصّ عليه صاحب الشراب ، أنه رأى أنه يعصر خمرا ، وقصّ عليه صاحب الطعام أنه رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ، وطلبا منه أن يؤوّل لهما رؤياهما ، فأخبرهما بأنه سيؤوّل لهما ذلك قبل أن يأتيهما طعامهما ، وأن علمه بتأويل الرؤيا ممّا علّمه ربّه ، لأنه ترك ملّة من لا يؤمنون به ولا باليوم الآخر ، واتّبع ملّة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ثم بيّن لهما بطلان ما يعبدانه من دون الله ، وأوّل لصاحب الشراب رؤياه بأنه سيعود إلى عمله عند الملك ، وأوّل لصاحب الطعام رؤياه ، بأنه سيصلب فتأكل الطير من رأسه ، وطلب من صاحب الشراب أن يذكره عند الملك ، إذا عاد إلى عمله ، فلما عاد إلى عمله نسي أن يذكره عند الملك ، فلبث في السجن بضع سنين.

ثم ذكر تعالى أن الملك رأى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ؛ وسبع سنبلات خضر وأخرى يابسات ، وطلب من قومه أن يؤوّلوا له هذه الرؤيا ، فعجزوا عن تأويلها له ، فطلب منهم صاحب الشراب ، أن يرسلوه إلى يوسف ليؤوّلها ، فلما قصّها عليه ، أخبره بأنهم يزرعون سبع سنين متوالية ، وأوصاهم أن يتركوا ما يحصدونه في سنبله ، لئلّا يأكله السوس ، ولا يأكلوا إلا قليلا منه ؛ ثم أخبره بأنه سيأتي بعد ذلك سبع سنين مجدبات ، يأكلون فيها ما ادّخروه لها ، ثم يعودون إلى الخصب كما كانوا قبل الجدب ، فلما عاد صاحب الشراب إلى الملك ، وأخبره بهذا التأويل ، طلب أن يأتوه بيوسف من السجن ، فلمّا جاءه الرسول أمره أن يرجع إلى الملك ، فيسأله عن حال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن ، لينكشف أمرهن وتعلم براءته ممّا اتهمنه به ، فسألهن الملك عن خطبهن ، إذ راودن يوسف عن نفسه ، فأجبن بأنهن لم يعلمن عليه من سوء ، واعترفت امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه.

ثم ذكر تعالى ، أن الملك أمر أن يأتوه به ليستخلصه لنفسه ، فلمّا أتاه وكلّمه ، أخبره بأن قد صار عنده مكينا أمينا ؛ فطلب منه يوسف أن يجعله أميرا على خزائن أرض مصر ، ليدبّر أمورها في سني الجدب ، فأجابه الملك إلى ما طلب من ذلك ، ثم ذكر تعالى أن إخوة

يوسف جاءوا إليه يبتاعون ميرة لأهلهم ، فعرفهم ولم يعرفوه ، ولما جهّزهم بجهازهم ، سألهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، وأخبرهم بأنهم إن لم يأتوه به لم يعطهم شيئا ، فأخبروه بأنهم سيراودون عنه أباه ، لعلّه يرسله معهم ، ثم أمر يوسف فتيانه ، أن يجعلوا بضاعتهم التي ابتاعوا الميرة بها في رحالهم ، ليعرفوها إذا انقلبوا الى أهلهم ، فيرجعوا إليه ثانية ، فلمّا رجعوا إلى أبيهم ، أخبروه بأنهم لا يعطون شيئا ، إذا لم يرسل معهم أخاهم بنيامين ، وطلبوا منه أن يرسله معهم ، وتعهدوا له بحفظه ؛ فأجابهم بأنهم قد تعهدوا قبل ذلك بحفظ يوسف ، ولم يحفظوه ، وذكر لهم أن الله خير حافظ وهو أرحم الراحمين ، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم ، فأخبروا أباهم بذلك ، وأنهم إذا ذهبوا ثانيا يميرون أهلهم ويحفظون أخاهم ، ويزدادون كيل بعير له ، فطلب منهم أن يؤتوه موثقا من الله ليأتنّه به ، فلما آتوه موثقهم ، أرسله معهم ، وأشهد الله عليهم ؛ ثم ذكر سبحانه أنهم لما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه بنيامين ، وعرّفه أنه أخوه ، ونهاه أن يبتئس بما كانوا يفعلون ؛ فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل صواع الملك في رحل بنيامين ، ثم أمهلهم حتى انطلقوا ، فأرسل وراءهم رسولا اتهمهم بأنهم سرقوا صواع الملك ، فرجعوا إلى يوسف وأصحابه ، وأقسموا بالله أنهم ما جاءوا ليفسدوا في الأرض ، وما كانوا سارقين ؛ فسألوهم عن جزائه إن ظهر أنه منهم ، فأجابوهم بأن جزاءه استرقاق من وجد في رحله ، وكان هذا هو حكم السارق في شريعة ملك مصر ، وقد فعل يوسف ذلك ليأخذ أخاه منهم ؛ ففتّش أوعيتهم حتى وجد الصواع في وعاء أخيه ، فحكم باسترقاقه ، وأخذه منهم.

ثم ذكر تعالى ، أنهم أخبروا يوسف بأنّ لأخيهم أبا شيخا كبيرا ، وسألوه أن يأخذ أحدهم مكانه ، فأبى أن يأخذ إلّا من وجد الصواع عنده ، فلمّا يئسوا منه ، تناجوا في أمرهم ، وما يقولونه لأبيهم ، فذكر كبيرهم أنه لن يبرح أرض مصر حتى يأذن له أبوه ، أو يمكّنه الله من خلاص أخيه ، وأمرهم أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويخبروه بما فعله ، بنيامين ؛ فلما رجعوا إليه ، وأخبروه بذلك لم يصدقهم ، واتهمهم بأنه دبّروا له أمرا ، كما دبّروا لأخيه من

قبل ، وصبر على فقده أيضا صبرا جميلا. ورجا من الله أن يأتيه بأبنائه جميعا ، ثم أعرض عنهم ، وأظهر أسفه على يوسف ، وصار يبكي عليه حتى ذهب بصره ، فأشفق عليه أبناؤه ، وأخبروه بأنه لا يفتأ يذكر يوسف حتّى يمرض أو يهلك ؛ فأجابهم بأنه إنما يشكو أمره إلى الله ، ويعلم منه ما لا يعلمون ، ثم أمرهم أن يذهبوا إلى مصر ، فيفتشوا عن يوسف وأخيه ، ولا ييأسوا من رحمة الله ، فأطاعوا ، وذهبوا إلى مصر يمتارون ويفتشون عن أخويهم ؛ فلما دخلوا على يوسف شكوا إليه ما مسّهم وأهلهم من الضر ، وأنهم جاءوا ببضاعة رديئة يرجون أن يقبلها منهم ، وأن يعطيهم بدلها كيلا وافيا ، ويتصدق بذلك عليهم ؛ فلمّا شكوا إليه ذلك رقّ لهم ودمعت عيناه ، وسألهم عمّا فعلوه بيوسف وأخيه ، وهم في جهل الشباب ، فقالوا له ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠).

ثم ذكر تعالى ، أنهم لما عرفوه ، اعترفوا له بالمزيّة والفضل ، وأقرّوا بأنهم أخطئوا فعفا عنهم ، ورجا من الله أن يغفر لهم ، وأمرهم أن يذهبوا بقميصه ، فيلقوه على وجه أبيه ليأتي إليه بصيرا ، ويأتوا بأهلهم أجمعين ؛ ثم ذكر سبحانه ، أنهم رجعوا إلى أبيهم ، وألقوا عليه القميص فارتدّ إليه بصره ، وأنهم أتوا بأهلهم ، فلما دخلوا على يوسف ، ضمّ إليه أبويه ، ورفعهما إلى سريره الذي يجلس عليه ، وأنهم خرّوا له سجّدا سجود تكريم ، وأن يوسف أخبر أباه ، بأن هذا هو تأويل رؤياه من قبل ، قد جعلها ربّه حقا ، وقد أحسن به إذ أخرجه من السجن ، وجاء بهم إليه ، من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته ، إنه لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١).

الخاتمة

الآيات (١٠٢ ـ ١١١)

ثم قال تعالى ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢) فذكر سبحانه ،

أن قصة يوسف (ع) من غيب الماضي الذي يوحيه إليه ، وما كان يعلمه ، وأن أكثر الناس لا يؤمنون بالقرآن ، ولو حرص على إيمانهم لتعنّتهم ، وأنه لا يسألهم عليه أجرا ، حتّى يعرضوا عنه ، وإنما هو تذكير للناس وعظة لهم ؛ ثم ذكر تعالى ، أن هذا الإعراض شأنهم في آياته في السماوات والأرض ، وأن أكثرهم لا يؤمن به إلّا وهم مشركون ؛ ثم أنكر عليهم ، أنهم لا يحذرون أن يؤاخذهم على تعنّتهم ، بغاشية من عذابه ، أو تأتيهم الساعة بغتة ، وهم لا يشعرون.

ثم أمر النبي (ص) أن يذكر لهم ، أن هذا سبيله يدعو إليه على بصيرة ، هو ومن اتّبعه ، ولا يأتيهم بما يقترحونه من الآيات على سبيل التعنّت ، ثم ذكر سبحانه ، أنه لم يرسل من قبله إلّا رجالا مثله ، من أهل القرى ، فلم يرسل ملائكة كما يقترحون ، وأمرهم أن يسيروا في الأرض ، لينظروا كيف كانت عاقبة المكذّبين قبلهم ؛ وذكر تعالى ، أن دار الآخرة خير للمتقين ، من دنياهم التي أعمتهم ؛ ثم ذكر جلّ شأنه أنه لم يهلك المكذبين قبلهم ، إلا بعد أن استيأس الرسل ، وظنّوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا به من هلاكهم ، وأنّ نصره جاءهم بعد هذا ، فنجّى من يشاء من المؤمنين ، ولم يردّ أحد عذابه عن القوم المجرمين ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١).

أسرار ترتيب سورة «يوسف» (١)

أقول : وجه وضعها بعد سورة «هود» زيادة على الأوجه الستة السابقة ، أن قوله تعالى في مطلعها : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [الآية ٣] مناسب لقوله سبحانه في مقطع تلك : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ [هود / ١٢٠].

وأيضا فلما وقع في سورة هود : ﴿فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١). وقوله تعالى : ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود / ٧٣].

ذكر هنا حال يعقوب مع أولاده ، وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته ، فكان كالشرح ، لإجمال ذلك.

وكذلك قال تعالى في سورة «يوسف» : ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ﴾ [الآية ٦]. فكان ذلك كالمقترن بقوله تعالى في هود : ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الآية ٧٣].

وقد روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول : أن «يونس» نزلت ، ثم «هود» ، ثم «يوسف» (٢). وهذا وجه آخر ، من وجوه المناسبة في ترتيب هذه السور الثلاث ، لترتيبها في النزول هكذا.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب : «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨ ه‍ / ١٩٧٨ م.

(٢). الإتقان : ١ / ٩٧ ، نقلا عن محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه.

مكنونات سورة «يوسف» (١)

١ . ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ [الآية ٤].

هي الخرثان ، وطارق ، والذيال ، والكتفان ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرع ، كما ورد في حديث مرفوع أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٢).

٢ . ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ [الآية ٨].

قال قتادة : هو بنيامين ، شقيقه.

أخرجه ابن أبي حاتم.

٣ . ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [الآية ١٠].

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» للسّيوطي ، تحقيق إياد خالد الطبّاع ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرخ.

(٢). يبدو أن هذا الحديث سقط من مطبوعة «المستدرك» ، حتى إن الشيخ أحمد شاكر صرح في تعليقه على «تفسير الطبري» بأنه لم يجده فيه. وللعلماء كلام في هذا الحديث المرويّ عن جابر رضي الله عنه. قال الحافظ البوصيري : «رواه أبو يعلى بسند ضعيف ومنقطع ، ورواه البزار بتمامه إلا أنه قال : «التمردان» بدل «العمودان» ، والحاكم قال : صحيح على شرط مسلم ، وليس كما زعم». من هامش «المطالب العالية» ٣ / ٣٤٤.

وأورده ابن عراق الكناني في «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة» ١ / ١٩٣ ، وزاد في عزوه إلى سعيد بن منصور ، والعقيلي في «الضعفاء» وابن مردويه. وقد حاول ابن عراق إزالة تهمة الوضع عن الحديث. لكن تعقبه معلقا عليه الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري ، فقال : «تقتضي نكارته الحكم بوضعه جزما. وهو في الحقيقة مأخوذ عن الإسرائيليات».

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧ / ٣٩ : «رواه البزار ، وفيه الحكم بن ظهير وهو متروك».

وهناك اختلاف بين النسخ التي روت هذا الحديث في أسماء هذه الكواكب ، انظر «تفسير الطبري» ١٢ / ٩٠ و «مجمع الزوائد» ٧ / ٣٩ ، و «كشف الأستار» ٣ / ٥٣ ، و «المطالب العالية» ٣ / ٣٤٤ ، و «تاريخ جرجان» لحمزة السهمي : ٢٤٤ ، و «تنزيه الشريعة المرفوعة» لابن عراق ١ / ١٩٣ ، و «ميزان الاعتدال» للذهبي ١ / ٥٧٢.

قال قتادة : كنا نحدّث أنه روبيل ، وهو أكبر إخوته وهو ابن خالة يوسف [1].

وقال السّدّي : هو يهوذا.

وقال مجاهد : هو شمعون. أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

٤ . ﴿غيابَتِ الْجُبِ﴾ [الآيتان ١٠ و ١٥].

قال قتادة : بئر بيت المقدس.

وقال ابن زيد : بحذاء طبريّة [2] ، بينه وبينها أميال.

أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

وأخرج عن أبي بكر بن عيّاش : أنّ يوسف أقام في الجبّ ثلاثة أيّام.

٥ . ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [الآية ١٨].

قال ابن عباس : كان دم سخلة [3].

أخرجه ابن أبي حاتم [4].

٦ . ﴿فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ﴾ [الآية ١٩].

هو : مالك بن ذعر [5]. ٧ . ﴿وَقالَ الَّذِي اشْتَراهُ﴾ [الآية ٢١].

قال ابن عبّاس : كان اسمه : قطيفير [6].

وقال ابن إسحاق : أطيفير [7].

أخرجه ابن أبي حاتم.

٧ . ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾ [الآية ٢١].

قال ابن إسحاق : اسمها راعيل بنت رعائيل. أخرجه ابن أبي حاتم.

وقيل : زليخا.

٨ . ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها﴾ [الآية ٢٦].

قال ابن عباس : صبيّ في المهد.

وقال مجاهد : ليس من الإنس ، ولا من الجنّ ، هو خلق من خلق الله.

وقال الحسن : رجل له فهم وعلم.

وقال زيد بن أسلم : كان ابن عمّ لها حكيما.

---

(١). أخوه لأبيه. والأثر في «تفسير الطبري» ١٢ / ٩٣.

(٢). رواه الطبري ١٢ / ٩٣ ١٥ / ٥٦٦ ط شاكر.

(٣). السّخلة : ولد الشاة من المعز والضأن ، ذكرا كان أو أنثى.

(٤). والطبري في «تفسيره» ١٢ / ٩٧.

(٥). انظر «تفسير الطبري» ١٢ / ١٠٤.

(٦). «تفسير الطبري» ١٢ / ١٠٤ : «قطفير». والمثبت موافق ل «الإتقان» ٢ / ١٤٦.

(٧). في «الدر المنثور» ٤ / ١١ : «أظفير» ، وفي «تفسير الطبري» : «أطفير بن روحيب». والمثبت موافق ل «الإتقان».

أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

وفي «العجائب» للكرماني : قيل : هو رجل من خاصة الملك ، له رأي.

وقيل : هو زوجها.

وقيل : هو سنّور [1] في الدار [2].

٩ . ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ﴾ [الآية ٣٦].

قال ابن عباس : أحدهما ، خازن الملك على طعامه ، والآخر ، ساقيه على شرابه. أخرجه ابن أبي حاتم.

وأخرج عن مجاهد ، وابن إسحاق : أن اسم الأول ، مجلث [3] ، والساقي ، نبو [4] ، وفي «المسالك» لأبي عبيد البكري [5] : أن اسم الأوّل : راشان ، والثاني : مرطش.

وقيل : الأول : بشرهم ، والثاني : شرهم.

حكاه السّهيلي.

١٠ . ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ﴾ [الآية ٤٢].

هو السّاقي. قاله مجاهد ، وغيره.

أخرجه ابن أبي حاتم [6].

١١ . ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الآية ٤٢].

قال مجاهد : أي الملك الأعظم : الريّان بن الوليد. أخرجه ابن أبي حاتم.

١٢ . ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢).

قال أنس بن مالك : سبع سنين [7].

---

(١). السّنّور : الهر.

(٢). قال الطبري في «جامع البيان» ١٢ / ١١٦ : «والصواب من القول في ذلك ، قول من قال : كان صبيا في المهد. للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله (ص) أنه ذكر من تكلّم في المهد فذكر أنّ أحدهم صاحب يوسف». والثلاثة المتكلمون في المهد هم : عيسى ، وصاحب يوسف ، وصاحب جريج.

(٣). «تفسير الطبري» ١٢ / ١٢٧ ؛ ووقع في «الدر المنثور» ٤ / ١٨ : «مجلب» بالباء الموحدة ، وفي الإتقان ٢ / ١٤٧ : «محلت».

(٤). «انظر تفسير الطبري» ١٢ / ١٢٧ ، وفي «الإتقان». أن اسمه : «بنوء».

(٥). أبو عبيد البكري : عبد الله بن عبد العزيز ، مؤرخ جغرافي ، ثقة ، أديب ، له مصنفات كان الملوك يتهادونها منها : «المسالك والممالك» ، مخطوط غير كامل ، طبع جزء منه باسم «المغرب في ذكر أفريقية والمغرب» وقطع خاصة ببلاد الروس والصقلب ومصر ، وله أيضا «معجم ما استعجم» و «شرح أمالي القالي» ، توفي سنة (٤٨٧) هـ.

(٦). انظر «تفسير الطبري» ١٢ / ١٣١.

(٧). أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد». «الدر المنثور» ٤ / ٢٠.

وقال ابن عباس : اثنتي عشرة سنة.

وقال طاوس ، والضّحّاك : أربع عشرة سنة. أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

وفي «العجائب» للكرماني : أنه لبث بكلّ حرف من قوله : (اذكرني عند ربّك) سنة.

١٣ ـ ﴿وَقالَ الْمَلِكُ﴾ [الآية ٤٣].

هو ريّان السابق [١].

١٤ ـ ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ﴾ [الآية ٥٩].

قال قتادة : هو بنيامين. وهو المتكرّر [٢] في السورة.

١٥ ـ ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية ٧٧].

وقال ابن عباس : يعنون يوسف.

أخرجه ابن أبي حاتم [٣]. ١٦ ـ ﴿قالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [الآية ٨٠].

قال مجاهد : هو شمعون الذي تخلّف ، أكبرهم عقلا.

وقال قتادة : هو روبيل ، أكبرهم في السن. أخرج ذلك ابن أبي حاتم [٤].

١٧ ـ ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها﴾ [الآية ٨٢].

قال قتادة : هي مصر ، أخرجه ابن أبي حاتم [٥] ، وأخرجه ابن جرير عن ابن عباس.

١٨ ـ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [الآية ٩٤].

قال ابن عبّاس : وجدها من مسيرة ستّة أيّام.

وفي رواية عنه [٦] : ثمانية. وفي أخرى : عشرة. وفي أخرى : من مسيرة

---

(١). انظر الآية (٤٢) من هذه السورة في هذا الكتاب ؛ و «تفسير الطبري» ١٣ / ٤.

(٢). المثبت موافق لما في «الإتقان» ٢ / ١٤٧ ؛ وانظر «تفسير الطبري» ١٣ / ٦.

(٣). قال الحافظ البوصيري بعد ما ذكر أثرا عن ابن عباس : رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» ، بتعبير يوسف عليه‌السلام بالسرقة : «رواه الحارث. بسند ضعيف لضعف خصيف ، ولا سيما فيما رواه في حق الأنبياء ، وهم معصومون قبل البعثة وبعدها. هذا هو الحق». من هامش «المطالب العالية» ٣ / ٣٤٥.

(٤). انظر «تفسير الطبري» ١٣ / ٢٣.

(٥). «تفسير الطبري» ١٣ / ٢٥.

(٦). انظر «تفسير الطبري» ١٣ / ٣٨.

ثمانين فرسخا. أخرج ذلك ابن أبي حاتم [1].

١٩ ـ ﴿الْبَشِيرُ﴾ [الآية ٩٦].

قال مجاهد : هو ابنه يهوذا. أخرجه ابن جرير.

٢٠ ـ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [الآية ٩٨].

قال ابن مسعود : أخّرهم إلى السّحر. أخرجه ابن أبي حاتم.

وفي حديث مرفوع : إلى ليلة الجمعة. أخرجه الترّمذي من حديث ابن عباس.

٢١ ـ ﴿آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [الآية ٩٩].

هما أبوه ، وأمه : راحيل. أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة. وأخرج عن السّدّي قال : خالته ، واسمها : ليّا.

٢٢ ـ ﴿هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية ١٠٠].

قال سلمان : كان بين رؤياه وتأويلها أربعون عاما.

وقال قتادة : خمسة وثلاثون عاما. أخرجه ابن أبي حاتم.

وأخرج عن الحسن : أن يوسف ألقي في الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة ، وعاش في العبودية والملك ثمانين سنة ؛ ثم جمع الله له شمله بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة.

٢٣ ـ ﴿وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [الآية ١٠٠].

قال عليّ بن أبي طلحة : من فلسطين. أخرجه ابن أبي حاتم.

---

(١). المصدر نفسه ١٣ / ٤١.

قلت : وقد روى الحديث أيضا الحاكم في «المستدرك» ١ / ٣١٦ في كتاب الصلاة ، وتعقّبه الذهبي فقال : «هذا حديث منكر شاذ ، أخاف أن يكون موضوعا». وقال الذهبي أيضا في «سير أعلام النبلاء» ٩ / ٢١٨ في ترجمة الوليد بن مسلم ، بعد أن أورد الحديث : «قلت : هذا عندي موضوع ، والسلام».

لغة التنزيل في سورة «يوسف» [(١)]

١ ـ قال تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ﴾ [الآية ٣].

قال الزمخشري :

القصص على وجهين : يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص ، وتقول : قصّ الحديث يقصّه قصصا ، كقولك شلّه يشلّه شللا ، إذا طرده ، ويكون «فعلا» بمعنى «مفعول» ، كالنّفض والحسب. ونحوه النّبأ والخبر : في معنى المنبأ به والمخبر به.

ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر ، كالخلق والصّيد.

وإن أريد المصدر فمعناه : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ﴾ ، أي : بإيحائنا إليك هذه السورة ، والمقصوص محذوف لأنّ قوله تعالى : ﴿بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ﴾ مغن عنه.

ويجوز أن ينتصب «هذا القرآن» ب «نقصّ» ، كأنه قيل : نحن نقصّ عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك.

والمراد بأحسن الاقتصاص : أنه اقتصّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب. ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتصّ في كتب الأوّلين ، وفي كتب التواريخ ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقاربا لاقتصاصه في القرآن؟

وإن أريد بالقصص المقصوص ، فمعناه : نحن نقصّ عليك أحسن ما يقصّ من الأحاديث.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل» ، لإبراهيم السامرّائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

واشتقاق «القصص» من قولهم : قصّ أثره إذا أتبعه ، لأن الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه ، شيئا فشيئا.

والقصّة الخبر ، وهو القصص ، وقصّ عليّ خبره ، والخبر هو المقصوص.

والقصّة : الأمر والحديث ، واقتصصت الحديث : رويته على وجهه.

والقصّ : البيان ، والقصص الاسم.

والقاصّ : الذي يأتي بالقصّة على وجهها ، كأنّه يتتبّع معانيها وألفاظها.

والقصص : جمع القصّة ، (بالكسر) التي تكتب.

أقول : ولما كانت القصة الخبر ، أو الأمر يقصه صاحبه أو يكتبه ، توصّل المعربون في العصر العباسيّ إلى أن تكون القصّة لديهم ما يكتبه صاحب الحاجة ، على رقعة يقدّمها إلى الخليفة ، أو الأمير ، أو صاحب المظالم وغيرهم من أولي الأمر ، يطلب فيها حقا له اغتصب مثلا ، أو ظلامة أخرى لحقته. وهذه الرقعة دعيت قصّة ، فكان صاحب الأمر ينظر في جلسة خاصة ، أو يوم مخصوص في القصص بين يديه ، ويوقّع فيها الجواب.

ويحسن بنا أن نقول : إن المعاصرين قد اصطلحوا على القصّة الجديدة ، فاتّخذوها مقابلا لـRoman عند الإفرنج ، وهي نمط أدبيّ شاع في عصرنا الحاضر ، منذ أواخر القرن الماضي ، تقليدا ومحاكاة لما عند الغربيين من هذا الفن.

وقد يقال : إنه كان للعرب حكايات ومقامات ، فهل هي أصل هذا الفن الجديد؟ أو أن المعاصرين اتخذوها بداية يستوحون منها؟

الجواب : ليس شيئا من هذا اعتمده أهل هذا العصر ، الذين يكتبون «القصة المعاصرة».

وقد نشأت لديهم القصة القصيرة ، وربما أقصر منها ، أي : القصرى ، والقصة الطويلة ، أي : الرواية.

٢ ـ وقال تعالى : ﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ (٤).

وقوله تعالى : ﴿يا أَبَتِ﴾ قرئ بالحركات الثلاث.

ولنبسّط القول في هذه المسألة

اللغوية التاريخية ، فنسرد أقوال المفسّرين ، واللغويين الأقدمين ، كما جاء بها الزّمخشري في الكشاف» ، ثم نعقّب القول فيها ، وما يبدو لنا من هذه المواد التاريخية.

قال الزمخشري [1] : التاء في «يا أبت» ، تاء تأنيث وقعت عوضا من ياء الإضافة ، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف.

فإن قلت : كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكّر؟ قلت : كما جاز نحو قولك : حمامة ذكر ، وشاة ذكر ، ورجل ربعة ، وغلام يفعة. فإن قلت : فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟

قلت : لأن تاء التأنيث والإضافة يتناسبان ، في أنّ كلّ واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره.

فإن قلت : فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء ، وتبقى التاء ساكنة؟

قلت : امتنع ذلك فيها ، لأنّها اسم ، والأسماء حقّها التحريك لأصالتها في الإعراب ، وإنّما جاز تسكين الياء ، وأصلها أن تحرّك تخفيفا ، لأنها حرف لين. وأما التاء ، فحرف صحيح نحو كاف الضمير ، فلزم تحريكها.

فإن قلت : يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة ، الجمع بين العوض والمعوّض منه ، لأنها في حكم الياء ، إذا قلت : يا غلام ، فكما لا يجوز «يا أبتي» لا يجوز «يا أبت».

قلت : الياء والكسرة قبلهما شيئان ، والتاء عوض من أحد الشيئين وهو الياء ، والكسرة غير متعرّض لها ، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه ، إلّا إذا جمع بين التاء والياء لا غير. ألا ترى إلى قولهم : «يا أبتا» مع كون الألف فيه بدلا من التاء ، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء ، ولم يعدّ ذلك جمعا بين العوض والمعوّض منه ، فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قلت : فقد دلّت الكسرة في يا «غلام» على الإضافة ، لأنّها قرينة الياء ولصيقتها.

فإن دلّت على مثل ذلك في : «يا أبت» ، فالتاء المعوّضة لغو ، وجودها كعدمها. قلت : بل حالها مع التاء

---

(١). «الكشاف» : ٢ / ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

كحالها مع الياء ، إذا قلت : يا أبي. فإن قلت : فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمّها؟ قلت : أمّا من فتح فقد حذف الألف من «يا أبتا» ، واستبقى الفتحة قبلها ، كما فعل من حذف الياء في «يا غلام» ، ويجوز أن يقال : حرّكها بحركة الياء المعوّض منها في قولك : «يا أبي».

وأمّا من ضمّ ، فقد رأى اسما في آخره تاء تأنيث ، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء ، فقال : «يا أبت» كما تقول : «يا تبّة» ، من غير اعتبار لكونها عوضا من ياء الإضافة.

أقول : هذا النمط من المعالجة يكثر عند اللغويين ، حينما يعرضون لمسائل صرفية ، فيرتكبون من الشطط ما يرتكبون ، ويتعسّفون تعسفا في سبيل الوصول إلى ما يريدون.

قالوا : إنّ «التاء» في «يا أبت» عوض من ياء الإضافة في قولهم : «يا أبي».

أقول : ولم كانت التاء وهي صوت ساكن CONSONNE في علم الأصوات ، عوضا من صوت مصوّت هو الياء الليّنة الممدودة ؛ وطبيعة هذه ، تختلف كل الاختلاف عن طبيعة تلك؟

وإذا كانت هذه التاء ، كما زعموا ، عوضا من ياء الإضافة ، فهلّا قالوا في التاء في «ربّت» ، و «ثمّت» أنها عوض من صوت آخر هو الياء أو غيره؟ لم يقولوا شيئا من ذلك ، وإنما أشاروا إلى زيادتها في تلك المواد.

وقالوا في التاء من «لات» في قوله تعالى : ﴿وَلاتَ حِينَ مَناصٍ﴾ (٣) [ص].

إنها تاء التأنيث ، وقيل ، للمبالغة ، وقيل لهما جميعا (١).

أقول : إذا كانت التاء للتأنيث فكيف تلزم الكسر؟ وما رأينا تاء للتأنيث تلزم الكسر. وتاء التأنيث يوقف عليها بالهاء ، وقالوا إنّ «أبت» يوقف عليها فتكون التاء هاء ، فهل وقف على هذه التاء فصارت هاء؟ لم يؤثر شيء من ذلك.

وماذا نقول في جواز فتحها وضمّها؟ ولم يؤثر عن بعضهم أنه قرأ بالفتح او

---

(١). كيف تكون التاء في «لات» للتأنيث وللمبالغة؟ هذا منطق غريب. وقد أدرك ضعف هذا القول اللغويون ، فنظروا إلى المسألة نظرا آخر ، فقالوا : تزاد التاء في أول كلمة «حين» فتصبح «تحين» وكأن التاء أداة تعريف ، وعلى هذا تكون «لات حين» هي «لا تحين». ومثل حين «الآن» فقالوا : تلان.

الضم. وإذا كسرت أو ضمّت فهل تكون للتأنيث؟ ولم نعرف لهذا الضرب من تاء التأنيث نظائر.

وإذا كان الأب مذكرا فما فائدة تاء التأنيث؟ وإذا قالوا لنا إن «أبت» مع التاء نظير : حمامة ذكر ، ورجل ربعة ، فالردّ عليهم أن التاء في «حمامة» هي للتأنيث ، ولكنها وصفت بذكر لإبعاد التأنيث الحقيقي. أما التاء في «ربعة» ، فهي ليست تاء تأنيث وإن كان اللفظ مؤنثا ، وهو كالتأنيث في «حمزة» ، و «عرفة» من أعلام الذكور ، وعلى هذا فقولهم : إن «أبت» والتاء فيها مثل حمامة ذكر ، ورجل ربعة ، قول متهافت.

وأما قولهم : إن «يا أبت» هي مثل «يا أبي» ، ولكن الياء امتنعت ، لأنّ التاء عوض منها ، ولا يجتمع عوض ومعوّض منه.

قلت : إن التاء ليست عوضا ، وأشرت إلى اختلاف الصوتين طبيعة ومخرجا وحيّزا ، ولكني أقول الآن : إن الياء كأنها موجودة ، اجتزئ منها بالكسرة ، فلم تحذف. ومثل هذا قولنا : يا قوم ويا ربّ ، فحذفنا الياء ، أي : المدّ الطويل ، واجتزأنا منه بالحركة القصيرة ، التي هي شيء من الياء الليّنة ، وهذا يعني أن «يا قوم» هي «يا قومي» ؛ وقصر المدّ يؤدّي غرضا صوتيا ، هو تخفيف الطول.

إذن فكيف نقول الآن في «يا أبت» ، بعد أن بينّا ضعف الأقوال الصرفية ، المتكلّفة التي يرفضها العلم اللغوي من نواح عدة.

أقول : إن «التاء» في «يا أبت» زيادة ، وهذه الزيادة قد كانت من إحساس العربي القديم ، أن الأسماء الثنائية أسماء ناقصة ، فلا بد من أن تكون ثلاثية ، ألا ترى أنهم في الجمع والنسب والتصغير جعلوا : «شفة» ، و «سنة» ، و «أب» ، و «أم» ، كلمات ثلاثية ، فجاءوا بالواو تارة ، وبالهاء تارة أخرى ، فقالوا : سنوات ، وسنهات ، وسنويّ ، وسنيّة ، وشفويّ ، وشفهيّ ، وشفاه ، وشفهية ، وآباء ، وأمّهات ، وأبويّ ، وأمويّ.

وإذا زيدت التاء في «أب» على هذا النحو في اللغة القديمة ، فقد زيدت في «ربّ» ، و «ثمّ» ، و «ثمّ» ، على أنها صارت ثلاثية بالتضعيف. وإلى هنا ، آمل أن تكون المسألة قد اكتسبت الإيضاح الكافي.

٣ ـ وقال تعالى : ﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ [الآية ٤].

القول في «رأيت» ، أي : رأى في نومه حلما.

الفعل رأى في العربية ، يكون رؤية ورأيا بالعين ، ويكون رأيا بالعقل ، بمعنى علم واعتقد ، كقولهم : فلان يرى العقل خير سلاح ، ويكون رأى رؤيا في النوم ، كما في الآية. ويفرّق بينها في المصدر. كما بيّنا.

٤ ـ وقال تعالى : ﴿وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾ [الآية ٦].

ما التأويل؟

التأويل في الآية هو «تأويل الأحاديث» ، والأحاديث الرؤيا ، وتأويلها عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف (ع) أعبر للرؤيا وأصحّهم عبارة لها ؛ ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث ؛ معاني كتب الله وسنن الأنبياء.

وفي التنزيل : ﴿هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ﴾ [الآية ١٠٠] ، أي : عبارتها.

وقال أهل اللغة : التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء ، وقد أوّلته تأويلا وتأوّلته بمعنى.

وأمّا قول الله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف / ٥٣].

فقال أبو إسحاق : معناه ، هل ينظرون إلّا ما يؤول إليه أمرهم من البعث.

وهذا التأويل هو قوله تعالى : ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ [آل عمران / ٧] ، أي : لا يعلم متى يكون أمر البعث.

أقول : هذا هو التأويل في القرآن ، فأين نحن منه الآن؟

التأويل في لغة عصرنا يعني التفسير والشرح بشيء خاص ، وهذا الشيء الخاص قد يجعل للمسألة تفسيرين أو أكثر ، وإن منها ما فيه افتئات على الحقيقة.

وكأن التأويل أحيانا في استعمال المعاصرين ، ضرب من التحريف والتزوير المقبول على علّاته ، ولم يفطن المعاصرون إلى أن «التأويل» ، هو الرجوع إلى «الأوّل».

٥ ـ وقال تعالى : ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [الآية ٩].

قوله تعالى : ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي : يقبل عليكم إقبالة واحدة ، لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمراد سلامة محبّته لهم ، ممّن يشاركهم فيها وينازعهم إيّاها.

أقول : وهذا من مجازات القرآن البديعة ، واستعمال الوجه وخلوّه ، لمعنى الإقبال من كون الرجل يقبل بوجهه ، وهو كقوله تعالى : ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن / ٢٧].

٦ ـ وقال تعالى : ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ (١٠).

المعنى : بعض السيارة ، أي : بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق. بالتاء على المعنى ، لأن بعض السيّارة سيارة.

وقرئ : «تلتقطه» بالتاء على المعنى ، لأن بعض السيارة سيارة.

أقول : وعلى هذا تكون «بعض» دالة على الجمع ، وليس الواحد ، كما ذهب غير واحد من أهل عصرنا.

ثم إن «السيارة» اسم جمع ، وبناء «فعّالة» من أبنية الجمع القديم ، كالبغّالة ، والجمّالة ، والحمّارة لأصحاب البغال والجمال والحمير ، ومنه الرجّالة ، والجلّابة ، والميّارة.

أقول : وهذا بناء من أبنية الجمع القديم ، ولا سيما لأصحاب الحرف كالطّحّانة ، والدّهّانة ، والصّبّاغة ، وغيرهم ، للعاملين في حرف الطحن للحبوب ، والعاملين في بيع الدهان ، والعاملين في الصباغة.

وما زال هذا الجمع واسع الاستعمال في العربية السائرة ، كالسّمّاكة لباعة السّمك ، والسقّانة للعاملين في السفن ، والحصّانة لأصحاب الخيل ، وغير ذلك كثير.

٧ ـ وقال تعالى : ﴿وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا﴾ [الآية ١٧].

والمعنى : وما أنت بمصدّق لنا.

أقول : وهذا غير بعيد من «المؤمن» ، وهو واحد المؤمنين ، كالمؤمن بالله فهو مصدّق لله ، مقرّ بحقيقته ، وعدله ، ووحدانيته ، وسائر صفاته ، جلّ شأنه.

٨ ـ وقال تعالى : ﴿وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [الآية ١٨].

والمعنى : بدم ذي كذب. أو وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب

وعينه ، كما قالوا للكذّاب : هو الكذب بعينه والزّور بذاته [1].

أقول : وقولهم : شاهد عدل ، هو من هذا الباب ، أي شاهد ذو عدل ، أو من باب الوصف بالمصدر مبالغة ، كما قلنا في الآية.

٩ ـ وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [الآية ٢٢].

أي : آتيناه حكمة وعلما.

ودلالة الحكم على الحكمة ، ممّا أثبتته لغة التنزيل ، وذلك لأن «الحكم» في غير لغة القرآن قد يفيد الحكمة ، ولكنّه نادر كل النّدرة ؛ والغالب فيه مصدر الفعل «حكم» ، وهذا الفعل مشهور معروف في دلالته الكثيرة.

١٠ ـ وقال تعالى : ﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ [الآية ٢٣].

المراودة : مفاعلة من «راد يرود» ، إذا جاء وذهب ، كأنّ المعنى : خادعته عن نفسه ، أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء ، الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ، ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التحمّل ، لمواقعته إيّاها.

أقول : وغلبت «المراودة» على محاولة خداع المرأة ، لأجل النيل من شرفها وعفّتها ، وذلك لأن المعربين لم يعرفوا استعمالات راود الأخرى ، التي تبتعد عن هذه المحاولة الدنيئة ، وهذا الضيق في المعنى من سمات لغة العصر.

ومن هذه الدلالات لهذا الفعل ، قوله تعالى : ﴿قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ﴾ (٦١).

والمراودة هنا هي المخادعة أيضا ، ولكنها لا تتصل بالاعتداء على العفة والشرف ، كما رأينا في الآية : ٢٣.

والمراودة هنا في هذه الآية الأخيرة ، هي ضرب من الاجتهاد والاحتيال ، لانتزاع إخوة يوسف لأخيهم ، الذي سأل عنه يوسف ، وهو أخو يوسف وشقيقه «بنيامين».

وقوله تعالى : ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ﴾ قيل : كانت سبعة ، ومن أجل كثرة الأبواب استعمل الفعل المضاعف ، فالتضعيف يفيد الكثرة.

---

(١). «الكشاف» : ٢ / ٤٥١.

و «هيت» قرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء ، وبناؤه كبناء أين وعيط.

و «هيت» كجير. وهيت كحيث. وهئت بمعنى تهيّأت ، ويقال : هاء يهيء ، مثل جاء يجيء : إذا تهيّأ. وهيّئت لك.

وأما في الأصوات فللبيان ، كأنه قيل : لك أقول هنا ، كما تقول : هلمّ لك.

أقول : لعلّي أميل إلى تفسير من يقول هئت بمعنى تهيّأت ، فهذا تفسير يؤيد ما نعرف من معاني الفعل «هيا» ، فهو يفيد «الكون» و «الوجود» كما في مادة «هيئة» في العربية ، وهي بهذا المعنى في اللغة العبرانية ، ومعنى «هئت» ، أي : كنت ووجدت أي : «ها أنا ذا».

١١ ـ وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ﴾ [الآية ٢٤].

همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه ، قال :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

ومنه قولك : لا أفعل ذلك ولا كيدا ولا همّا ، أي ولا أكاد أن أفعله كيدا ، ولا أهمّ بفعله همّا.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ، أي : همّت بمخالطته ، ﴿وَهَمَّ بِها﴾ أي وهمّ بدفعها عنه.

أقول : إن فعل الهمّ بالنسبة إلى امرأة العزيز في هذه الآية يعني القصد والعزيمة على فعل الشرّ ، ولعل انصراف «الهم» إلى القصد إلى الشر في هذه الآية ، قد حمل الضيم على «الهمّ» في معناه العام ، وهو القصد دون أن يعيّن مسراه ، أشرّ أريد به أم خير. وهذا الانصراف لم يكن إلا لدى غير العارفين بمعاني العربية.

وفي اللغة المعاصرة ، الكثير من هذا النوع الذي تنصرف فيه المادة اللغوية إلى شيء خاص لم يكن لها في الحقيقة ، ألا ترى أن قول المعاصرين : إن هذا الشيء ممتاز ، يريدون به الجيد والغاية في الجودة ، وهو في الحقيقة ممتاز بصفة أو بشيء ، قد يكون حسنا وقد يكون غير حسن.

١٢ ـ وقال تعالى : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبابَ﴾ [الآية ٢٥].

والمعنى : وتسابقا إلى الباب على

حذف الجار وإيصال الفعل ، كقوله تعالى : ﴿وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف / ١٥٥] على تضمين «استبقا» معنى «ابتدرا».

أقول : وليس لنا في العربية المعاصرة الفعل «استبق» ، أي : تسابق ، والثاني هو المتداول المتعالم.

١٣ . ﴿وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا﴾ [الآية ٣٠].

قالوا : النّسوة اسم مفرد لجمع المرأة ، وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللّمّة ، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث.

أقول : لا أرى أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة ، والذي أراه أنه جمع ؛ وهو على أبنية الجمع نظير نساء سواء بسواء.

وأما مسألة عدم لحوق تاء التأنيث للفعل ، فهذا يتصل بلغة القرآن التي ورثت خصائص العربية. ومن خصائص العربية التاريخية ، أنّ علامة التأنيث فيها لم تأخذ مكانها الثابت ، ومن أجل إثبات هذه الحقيقة التاريخية ، تعالوا معنا لنستقري كلمة «طائفة» في لغة التنزيل لنتبيّن لحوق تاء التأنيث وعدمه ؛ قال تعالى : ﴿وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران / ٦٩].

﴿وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا﴾ [آل عمران / ٧٢].

﴿فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ [النساء / ١٠٢].

﴿وَلْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا﴾ [النساء / ١٠٢].

﴿وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأعراف / ٨٧].

﴿فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة / ١٢٢].

﴿وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنا﴾ [الأعراف / ٨٧].

﴿وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران / ١٥٤].

فأنت تجد أن التاء لحقت الفعل في آيات ، وعرّي الفعل عنها في آيات أخرى ، كما تجد آيات أخرى أسند الفعل فيها إلى ضمير الجمع المذكر ؛ وهو من غير شكّ ، مراعاة للمعنى ، على جهة التغليب للمذكر.

وإذا قرأنا قوله تعالى :

﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما﴾ [الحجرات / ٩].

فالمراعاة في هذه الآية لجمع الذكور في قوله تعالى : ﴿اقْتَتَلُوا﴾ ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما﴾ فعاد ضمير الاثنين مراعاة للفظ المثنى ، وهو «طائفتان».

أقول : هذا كله من خصائص هذه اللغة الشريفة ، التي سجّلت الكثير من خصائص هذه اللغة التاريخية.

١٤ ـ وقال تعالى : ﴿قَدْ شَغَفَها حُبًّا﴾ [الآية ٣٠].

قوله تعالى : ﴿شَغَفَها﴾ ، أي خرق حبّه شغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد ، والشّغاف حجاب القلب ، قال قيس بن الخطيم :

إنّي لأهواك غير ذي كذب ... قد شفّ منّي الأحشاء والشّغف

وقال النابغة :

وقد حال همّ دون ذلك والج ... مكان الشّغاف تبتغيه الأصابع

وقرئ : شغفها بمعنى تيّمها ، وشغفه الهوى إذا بلغ منه ، وفلان مشغوف بفلانة ، وقراءة الحسن : شعفها ، بالعين المهملة ، هو من قولهم : شعفت بها ، كأنه ذهب بها كلّ مذهب.

وشعفه الحبّ : أحرق قلبه ، وقيل : أمرضه.

وقال الليث : وشعفة القلب : رأسه عند معلّق النّياط.

أقول : إذا كان الفعل بالغين المعجمة ، فأصله من «شغاف القلب» أي : حجابه ، وإذا كان بالعين المهملة ، فأصله من «شعفة القلب» أي رأسه ، وفي كلا الوجهين ، برعت العربية في توليد الأفعال ، ذات الدلالات المعنوية العقلية ، من الأصول الحسّية.

١٥ ـ وقال تعالى : ﴿ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (٣٥).

قوله تعالى : ﴿بَدا لَهُمْ﴾ فاعله مضمر ، لدلالة ما يفسّره عليه ، وهو : ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ ، والمعنى :

بدا لهم بداء ، أي : ظهر لهم رأي فقالوا ليسجننّه ، والضمير في «لهم» للعزيز وأهله.

ومن هذا قولهم : وبدا لي بداء ، أي : تغيّر رأيي على ما كان عليه.

أقول : وليس من هذا قول المعاصرين : وبدا لي أن أفعل كذا وكذا ، ويبدو لي أنّ الأمر كذا وكذا ، فالفاعل فيها ظاهر ، وهو المصدر من أن والفعل ، وأن واسمها وخبرها.

١٦ ـ وقال تعالى : ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآية ٣٨].

قوله تعالى : ﴿ما كانَ لَنا﴾ أي : ما صحّ لنا معشر الأنبياء ، أن نشرك بالله.

أقول : وهذا من معاني «كان» ، وقد مرّ بنا نظيره في آيات أخرى.

١٧ ـ وقال تعالى : ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ [الآية ٤٠].

قوله تعالى : ﴿ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ أي : ما أنزل الله بتسميتها من حجّة.

أقول : أساء المعاصرون استعمال هذه الآية ، واقتباسها في مواطن يمتنع اقتباسها امتناعا مطلقا ، فيقولون مثلا : هذه أخبار ما أنزل الله بها من سلطان ، أي : محض كذب وباطل.

والكذب والباطل لا يمكن بأي حال أن ينزل بها حجة من الله ، وليس هذا كحال الأمم السالفة ، التي أشار إليها الله في آياته ، فقد كانوا يعبدون أصناما وأوثانا ، ما أنزل الله بها حجّة ، توجب عبادتها ، فليس هذا مثل ذاك.

١٨ ـ وقال تعالى : ﴿وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ﴾ [الآية ٤٣].

القول في هذه الآية على «البقرات والسنبلات واليابسات» فكلّها جمع مؤنث بالألف والتاء ، وهذا الجمع من الجموع التي تنصرف إلى القلة في الغالب. أقول في الغالب ، لأنه قد يأتي من الأسماء المؤنّثة وغيرها ، ما لا يجمع إلّا بالألف والتاء ، فلا يمكن في هذه الحالة أن ينصرف إلى القلة إلّا بقرينة كالعدد وغيره ، فإذا قلنا مثلا : حمامات ، فهي جمع كثرة إلّا إذا قلنا : سبع حمامات. أمّا الجموع في الآية ، فهي للقلة من غير أن تكون مقيّدة بالعدد «سبع» ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا﴾ [البقرة / ٧٠].

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما﴾ [الأنعام / ١٤٦].

ولو أريد الكثرة أيضا لقيل «سنابل» ،

إلّا أن تقيد «السنابل» بعدد كما جاء في الآية :

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ﴾ [البقرة / ٢٦١].

١٩ ـ وقال تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣).

و : «تعبرون» للرؤيا.

قالوا : عبر الرؤيا يعبرها عبرا وعبارة ، وعبرها : فسّرها ، وأخبر ما يؤول إليه أمرها.

وعدّي الفعل باللام في الآية ، كما في : ﴿قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل / ٧٢]. أي : ردفكم.

وقال الزجّاج : هذه اللام أدخلت على المفعول للتبيين ، والمعنى إن كنتم تعبرون وعابرين ، وتسمّى هذه اللام لام التعقيب ، لأنّها عقّبت بالإضافة.

وقال الجوهري : أصل الفعل باللام ، كما يقال : إن كنت للمال جامعا.

أقول : وجيء بهذه اللام ، لأن المفعول قد تقدّم الفعل ، وهذا يحسن في كل جملة ، حصل فيها هذا التقديم ، ألا ترى أنك تقول : إنّي للخبز آكل ، وعلى هذا يكون ما قاله الجوهري سديدا ؛ ولعل اللام قد جيء بها ، لأن المفعول معرّف بالألف واللام ، وهذه اللام تقوّي المفعولية.

٢٠ ـ وقال تعالى : ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [الآية ٤٥].

قرئ : ﴿وَادكَرَ﴾ بالدال.

قال الزمخشري ، وهو الفصيح [(١)].

وكان ينبغي أن يكون جواب الزمخشري : أن «ادّكر» بالدال هي القراءة المشهورة ، والقراءة سنّة متّبعة ، فقد تخرج عن المشهور الشائع من الأبنية والأقيسة.

وقال الزمخشري : إن أصل «اذّكر» هو «تذكّر» ، والصحيح أن الأصل هو «اذتكر» أي : أن الفعل «ذكر» قد بني على «افتعل» ، فيكون «اذتكر» ، فيبدل من التاء دالا ، فيكون «اذدكر» ، كما تقول في «زحم» ازدحم. وقد يحصل الإدغام ، أي : إدغام الذال في الدال ، فيكون «اذّكر» ، كما تقول «ادّعى» ، والأصل «ادتعى». فأما أن يدغم «الدال» الذي أصله التاء في الذال ،

---

(١). «الكشاف» ٢ / ٤٧٥.

ويكون «ادّكر» فهو شيء لا نعرفه إلّا في «ادّخر» ، والأصل «ذخر».

وقوله تعالى : ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ ، أي : بعد مدّة طويلة ، وكما تكون الأمّة قوما وتكون زمنا ، ومثله القرن والجيل ، وغير ذلك.

٢١ ـ وقال تعالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٤٩).

قوله تعالى : ﴿يُغاثُ النَّاسُ﴾ من الغوث أو من الغيث ، يقال غيثت البلاد إذا مطرت. هذا هو قول الزمخشري.

ولنبسط القول في هذه الكلمة المفيدة.

يقال : غاث الغيث الأرض : أصابها ، ويقال : غاثهم الله ، وأصابهم غيث ، وغاث الله البلاد يغيثها غيثا إذا أنزل بها الغيث.

ومنه الحديث : فادع الله يغيثنا (بفتح الياء).

وغيثت الأرض ، تغاث غيثا ، فهي مغيثة ومغيوثة : أصابها الغيث. وغيث القوم : أصابهم الغيث.

قال الأصمعي : أخبرني أبو عمرو بن العلاء ، قال : سمعت ذا الرّمة يقول : قاتل الله أمة بني فلان ، ما أفصحها! قلت لها : كيف كان المطر عندكم؟ فقالت : غثنا ما شئنا.

أقول : هذا هو معنى الغيث ، وهو المطر يراد به الرحمة والخير والحياة ، ومن هنا صارت العربية إلى الغوث ومنه الإغاثة ، والغوث بمعنى النجدة والمعونة والمساعدة. وكأنّ التحوّل من الياء إلى الواو ، وسيلة ، لاستحداث معنى جديد ، بينه وبين الأصل القديم وشيجة رحم. ألا ترى أن من هذا بين وبون ، وعين وعون ، وغير هذا.

أمّا قوله تعالى : ﴿يَعْصِرُونَ﴾ ، فقد ذكر الزمخشري ، أنهم يعصرون العنب والزيتون والسّمسم.

أقول : ومن قرأ «يعصرون» بالبناء إلى المفعول كانت قراءته وجيهة ، وهو من عصره إذا أنجاه ، وهو مطابق للإغاثة. ويجوز أن يكون المبني للفاعل بمعنى ينجون ، كأنّه قيل : يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم ، أي : يغيثهم الله ، ويغيث بعضهم بعضا.

وقيل : «يعصرون» يمطرون ، من

أعصرت السّحابة. وفيه وجهان : إمّا أن يضمّن أعصرت معنى مطرت ، فيعدّى تعديته ، وإما أن يقال : الأصل أعصرت عليهم ، فحذف الجارّ ، وأوصل الفعل.

أقول : وبين قوله تعالى : ﴿يُغاثُ﴾ ، وقوله : ﴿يَعْصِرُونَ﴾ على الوجهين حسن مناسبة فيها إصابة للمعنى.

٢٢ ـ وقال تعالى : ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُ﴾ [الآية ٥١].

وقوله تعالى : ﴿حَصْحَصَ الْحَقُ﴾ أي : ثبت واستقرّ.

٢٣ ـ وقال تعالى : ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي﴾ [الآية ٥٣].

قالوا في قوله تعالى : ﴿إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي﴾ ، إلّا البعض الذي رحمه ربّي بالعصمة ، كالملائكة.

ويجوز أن يكون «ما رحم» في معنى الزمن ، أي : إلّا وقت رحمة ربي ، يعني أن النفس أمّارة بالسوء في كل وقت وأوان.

أقول : وهذا الوجه الأخير حسن ، وهو أن يثبت أنه قد يلمح إلى وجه من وجوه استعمال «ما» ، هذا الوجه المبهم الذي يفيد الزمن.

٢٤ ـ وقال تعالى : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤).

وقوله تعالى : ﴿مَكِينٌ﴾ أي : ذو مكانة.

وهذه من باب الاشتقاق من الاسم ، فكلمة «مكان» هي الأصل الذي جاء منه هذا الوصف ، وجاء منه جميع ما يتصل بهذه الكلمة من فعل واسم مثل : مكن ، ويمكن ، وأمكن ، وإمكان ، ومكنة ، ومكّن ، وتمكين وغير ذلك.

أقول : إن «المكان» أصل في جميع ما يتصل بهذه المادة ، لمنزلة «المكان» في العربية فكرا ، وواقعا ، وسلوكا.

ومن المفيد أن نشير إلى أن «المكان» جاء من «الكون» ، بمعنى الوجود والهيئة ، ولمنزلته التي أخذها في تفكير العرب ، صار أصلا لحاجات كثيرة.

٢٥ ـ وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ [الآية ٥٩].

أقول : أراد الجهاز عدّة السفر من الزاد ، وما يحتاج إليه المسافرون من الميرة. والجهاز بهذا المعنى غير معروف في العربية الفصيحة المعاصرة ، ولكن شيئا منه معروف في عامية

[بعض البلاد العربية] ، فهم يقولون : جهاز العروس لما تزوّد به من أمتعة ، وأثاث ، ورياش ، وملبس وغير ذلك ، وكأن الكلمة أوشك أن يمحي ظلّها. ولكننا في عصرنا نقول : الجهاز الإداري ، والجهاز الفني في الحكومة وغير ذلك ، وهذا كله من العربية الجديدة. على أن «الجهاز» بكسر الجيم من أسماء الأدوات والآلات في العصر الحديث ، فالجديد من المخترعات الميكانيكية يسمى كله جهازا ، وجمعه أجهزة.

وهذا مولّد جديد بني على «فعال» جريا على كثير من آلاتهم وأدواتهم.

٢٦ ـ وقال تعالى : ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنا﴾ [الآية ٦٥].

والميرة الطعام يمتاره الإنسان. وجلب الطعام للبيع.

وقالوا : وهم يمتارون لأنفسهم ، ويميرون غيرهم ميرا.

أقول : وقد ورث العراقيون أصولا عربية في العصر الحديث ، ممّ استعمله الأتراك في الشؤون العسكرية ، فكان في تنظيمات الجيش العراقي مديرية الميرة.

٢٧ ـ وقال تعالى : ﴿قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ﴾ [الآية ٦٦].

أقول : اجتزئ بكسرة النون عن الياء في «تؤتوني» ، وذلك أحفل في السماع في التلاوة المستجادة ، من المدّ الطويل الذي يكون في الياء.

لقد مرت بنا نظائر لهذا الاجتزاء بالكسرة ، وكان آخرها قوله تعالى :

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٠).

ولكن السبب في هذا الاجتزاء بالكسرة ، في هذه الآية ، أنّها فاصلة ، وآخر كلمة في الآية يحسن الوقف عليها ، فتطوى الكسرة ، ويبقى النون ساكنا.

ومثل هذا كثير في الوقف.

٢٨ ـ وقال تعالى : ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩).

قوله تعالى : ﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾ معناه فلا تحزن ولا تستكن.

ابتأس الرجل ، إذا بلغه شيء يكرهه.

وليس بعيدا أن يكون الفعل ابتأس بهذه الدلالة ، إذا كان البأس هو الشدة والعذاب والحرب ، والبأساء كالبؤس أيضا.

٢٩ . وقال تعالى : ﴿قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ﴾ [الآية ٧٢].

قالوا : الصّواع هو السّقاية التي وردت في الآية التي قبلها في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (٧٠) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (٧١) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ﴾. والسّقاية ، هي المشربة التي كان يشرب منها الملك ، ثم جعل صاعا في السنين الشّداد القحاط ، يكال به الطعام.

وقرأ أبو هريرة : نفقد صاع الملك.

وقرأ يحيى بن يعمر : صوغ الملك.

وقرأ سعيد بن جبير : صواغ الملك.

أقول : والقراءة بالعين مرة وبالغين أخرى ، دليل تعاقب الصوتين في طائفة من كلمات العربية ، مسايرة للّغات الخاصة ، وهو ما ندعوه ب «اللهجات» في عصرنا ، وسيأتي من هذا الباب قراءات في آيات أخرى سنشير إليها.

المعاني اللغوية في سورة «يوسف» (١)

قال تعالى : ﴿إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [الآية ٥١] وقال بعض أهل العلم : «إنّهن راودنه لا امرأة الملك» ، وقد يجوز ، وإن كانت واحدة أن تقول (راودتنّ) كما ورد في التنزيل : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران / ١٧٣] ها هنا واحد ، يعني بقوله تعالى ﴿لَكُمْ﴾ النبيّ (ص) «أبا سفيان» فيما ذكروا.

وقال تعالى : ﴿وَهَمَّ بِها﴾ [الآية ٢٤] ، فلم يكن همّ بالفاحشة ، ولكن دون ذلك ممّا لا يقطع الولاية.

وقال تعالى : ﴿بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ [الآية ٣] أي ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [الآية ٣] بوحينا ﴿إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ﴾ [الآية ٣] (٢) بجعل (ما) اسما للفعل وجعل (أوحينا) صلة.

وقال تعالى : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ (٤) [الآية ٤] بتكرير الفعل وقد يستغنى بأحدهما. وهذا على لغة الذين قالوا «ضربت زيدا ضربته» ، وهو توكيد مثل قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) [الحجر وص / ٧٣].

وأمّا قوله تعالى ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ (٤) فإن السياق لما جعلهم كمن يعقل في السجود والطواعية ، جعلهم كالإنس في تذكيرهم ، إذا

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش ، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد ، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب ، بيروت ، غير مؤرّخ.

(٢). نقله في إعراب القرآن ٢ / ٤٩٩.

جمعهم ، كما في قوله تعالى ﴿عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل / ١٦]. وقال الشاعر [من الخفيف ، وهو الشاهد الثالث والثلاثون بعد المائتين] :

صــدّها منطــق الــدّجاج عــن القصــد وضـــــرب النـــــاقوس فاجتنبـــــا

وقال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ﴾ [النمل / ١٨] إذ تكلمت نملة فصارت كمن يعقل وقال سبحانه ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٣) [الأنبياء / ٣٣ ويس / ٤٠] لما جعلهم يطيعون ، شبّههم بالإنس ، مثل ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ (١١) [فصّلت / ١١] على هذا القياس ، بالتذكير ، وليس مذكرا كما يذكر بعض المؤنث. وقال قوم : إنّما قال تعالى : ﴿طائِعِينَ﴾ لأنهما أتتا وما فيهما ، فتوهّم بعضهم «مذكّرا» أو يكون كما قال سبحانه ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [الآية ٨٢] وهو يريد أهلها. وكما تقول «صلى المسجد» وأنت تريد أهل المسجد ، إلّا أنّك تحمل الفعل على الآخر ، كما قالوا : «اجتمعت أهل اليمامة» وقال تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصّلت / ٣٧] لأنّ الجماعة ، من غير الإنس مؤنثة. وقال بعضهم «للّذي خلق الآيات» ولا أراه قال ذلك ، الا لجهله بالعربية. قال الشاعر [١] [من البسيط ، وهو الشاهد الرابع والثلاثون بعد المائتين] :

إذ أشــرف الــديك يــدعو بعــض أســرته إلى الصّـــياح وهـــم قـــوم معازيـــل [٢]

فجعل «الدجاج» قوما في جواز اللغة. وقال الآخر وهو يعني الذيب [من الطويل ، وهو الشاهد الثاني والثلاثون بعد المائتين] :

وأنـــت امـــرؤ تعـــدو علـــى كـــلّ غـــرّة فتخطـــئ فيهـــا مـــرّة وتصـــيب

وقال الآخر [من الرجز ، وهو الشاهد الخامس والثلاثون بعد المائتين] :

---

(١). هو عبدة بن الطبيب ؛ شعر عبدة بن الطبيب ٧٩ ، والاختيارين ٩٩ ، والمفضليات ١٤٣ ، واللسان «عزل».

(٢). في الصاحبي ٢٥١ «الى الصياح» وكذلك في الصحاح «عزل» واللسان أيضا وفي الاختيارين وفي شعره أيضا : «لدى الصباح».

فصـــــــبّحت والطّـــــــــير لم تكلّـــــــم   جابيـــة [١] طمّـــت بســـيل مفعـــم [٢]

وقال تعالى : ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ [الآية ٥] أي : فيتّخذوا لك كيدا.

وليست مثل ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣).

بإيصال الفعل إليها باللام ، كما يوصل ب «الى» ، كما تقول : «قدّمت له طعاما» تريد : «قدّمت إليه». وقال تعالى ﴿يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَ﴾ [الآية ٤٨] ومثله ﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِ﴾ [يونس / ٣٥] وإن شئت كان ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ في معنى «فيكيدوك» ، بجعل اللام مثل اللام في قوله تعالى ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٤) [الأعراف] وقوله سبحانه ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٤) إنّما هو : «لمكان ربّهم يرهبون».

وقال تعالى : ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ﴾ [الآية ٩] وليس الأرض هاهنا بظرف. ولكن حذف منها «في» ثم أعمل فيها الفعل ، كما تقول «توجّهت مكّة».

وقال تعالى : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [الآية ١٤] و «العصبة» و «العصابة» جماعة ليس لها واحد [٣] ك «القوم» و «الرّهط».

وقال تعالى : ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [الآية ١٨] بجعل «الدّم» «كذبا» لأنه كذب فيه كما تقول «الليلة الهلال» فترفع ، وكما قال تعالى ﴿فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ﴾ [البقرة / ١٦] [٤].

وقال تعالى : ﴿وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ﴾ [الآية ١٩] بالتذكير بعد التأنيث لأنّ «السيّارة» في المعنى للرجال [٥].

وقال تعالى : ﴿مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ [الآية ٢٣] أي : أعوذ بالله معاذا. جعله بدلا من اللفظ بالفعل ، لأنه مصدر ، وإن كان غير مستعمل مثل «سبحان» ، وبعضهم يقول «معاذة الله» ، ويقول «ما

---

(١). جاء في الهامش : الجابية : الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل. يجبى أي : يجمع ، قاله الجوهري.

(٢). الرجز في الصحاح «فعم» واللسان «طمم» و «فعم» و «كلم» وفي أول مواضعه من اللسان ب «خابية» وفي ثالث مواضعه منه ب «حقّت». وهو في الصحاح ١ / ٢٣.

(٣). نقله في التهذيب ٢ / ٤٦ «عصب».

(٤). قد نقله في التهذيب ١٠ / ١٦٧ وزاد المسير ٤ / ١٩٣.

(٥). نقله في زاد المسير ٤ / ١٩٣.

أحسن معناة هذا الكلام» ، يريد المعنى.

وقال تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥) أي «إلّا السجن أو عذاب أليم لأنّ أن» الخفيفة ، وما عملت فيه ، اسم بمنزلة «السّجن».

وقال تعالى : ﴿وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣٢) [الآية ٣٢] فالوقف عليها (وليكونا) ؛ لأن النون الخفيفة إذا انفتح ما قبلها ، فوقفت عليها ، جعلتها ألفا ساكنة بمنزلة قولك «رأيت زيدا» ، ومثله قوله تعالى : ﴿لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴾ (١٥) [العلق] الوقف عليها ﴿لَنَسْفَعاً﴾ (١٥).

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (٣٥) بإدخال النون في هذا الموضع ، لأن هذا موضع تقع فيه «أي» ، فلما كان حرف الاستفهام يدخل فيه ، دخلته النون ، لأن النون تكون في الاستفهام ، تقول «بدا لهم أيّهم يأخذون» أي استبان لهم.

وقال تعالى : ﴿وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ﴾ (٤٤) فإحدى الباءين لوصل الفعل الى الاسم ، والاخرى دخلت ل «ما» وهي الأخيرة.

وقال تعالى ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [الآية ٤٥] وإنّما هي «افتعل» من «ذكر» فأصلها «اذتكر» ، ولكن اجتمعا في كلمة واحدة ، ومخرجاهما متقاربان ، وأرادوا ان يدغموا ، والأول حرف مجهور ، وإنما يدخل الاول في الآخر ، والآخر مهموس ، فكرهوا أن يذهب منه الجهر ، فجعلوا في موضع التاء حرفا من موضعها مجهورا ، وهو الدال لأن الحرف الذي قبلها مجهور. ولم يجعلوا الطاء ، لأن الطاء مع الجهر مطبقة. وقد قرأ بعضهم (مذّكر) في سورة القمر [1] فأبدل التاء ذالا ثم أدخل الذال فيها. وقد قرئت هذه الآية (أن يصّلحا بينهما صلحا) [النساء / ١٢٨] [2]

---

(١). الآيات : ١٥ و ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠ و ٥١. وبالذال المضعفة ، المفتوحة هي في الطبري ٢٧ / ٩٦ قراءة عبد الله بن مسعود ، في البحر ٨ / ١٧٨ قراءة قتادة فيما نقل ابن عطية ، وفي معاني القرآن ٣ / ١٠٧ أنّ لغة بعض بني أسد يقولون «مذكر».

(٢). هذه القراءة هي في الطبري ٩ / ٢٧٨ قراءة عامة قراءة أهل المدينة ، بعض أهل البصرة ؛ وفي الشواذ ٢٩ الى الجحدري ، وكذلك في المحتسب ٢٠١ ، وزاد في الجامع ٥ / ٤٠٤ عثمان البتي ، وفي التيسير ٩٧ إلى غير الكوفيين. والقراءة المثبتة في المصحف الشريف ﴿أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً﴾.

وهي «أن يفتعلا» من «الصلح» ، فكانت التاء بعد الصاد ، فلم تدخل الصاد فيها للجهر والإطباق. فأبدلوا التاء صادا ، وقرأ بعضهم (يصطلحا) وهي الجيدة لما لم يقدر على إدغام الصاد في التاء ، حوّل في موضع التاء حرف مطبق.

وقال تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ﴾ [الآية ٧٦] بالتأنيث ، وقال تعالى ﴿وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [الآية ٧٢] لعودة الضمير الى «الصّواع» و «الصّواع» مذكّر ، ومنهم من يؤنّث «الصّواع» [1] و «أريد» هاهنا «السّقاية» وهي مؤنثة. وهما اسمان لواحد مثل «الثّوب» و «الملحفة» ، مذكّر ومؤنث لشيء واحد. وقال تعالى ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [الآية ٨٠] بجعل «النجيّ» للجماعة مثل قولك : «هم لي صديق».

وقال تعالى ﴿يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ﴾ [الآية ٨٤] فإذا سكتّ ، ألحقت في آخره الهاء ، لأنّها مثل ألف الندبة.

وقال تعالى ﴿تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [الآية ٨٥] فزعموا أنّ (تفتأ) «تزال» فلذلك وقعت عليه اليمين ، كأنهم قالوا : «والله لا تزال تذكر يوسف».

وقال تعالى ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الآية ٩٢] بعد ﴿الْيَوْمَ﴾ وقف ثم ورد الاستئناف [2] بقوله تعالى : ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ [الآية ٩٢] فدعا لهم بالمغفرة مستأنفا.

وقال تعالى ﴿قالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [الآية ٨٠] فزعموا أنه أكبرهم في العقل ، لا في السّنّ.

وفي قوله تعالى ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ [الآية ٨٣] أريد الذي تخلّف عنهم ، معهما ، وهو كبيرهم في العقل.

---

(١). انظر المذكر والمؤنث ٩٦ ، وكتاب التذكير والتأنيث ٢٢ ، والبلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ٨٣.

(٢). نقله في الجامع ٩ / ٢٥٨.

لكل سؤال جواب في سورة «يوسف» (١)

إن قيل : لم قال تعالى ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الآية ٤] ولم يقل ثلاثة عشر كوكبا وهو أوجز وأخصر ، والذي رآه كان أحد عشر كوكبا غير الشمس والقمر؟

قلنا : قصد عطفهما على الكواكب تخصيصا لهما بالذكر وتفضيلا لهما على سائر الكواكب ، لما لهما من المزية والرتبة على الكل ، ونظيره تأخير جبريل وميكائيل عن الملائكة عليهما‌السلام ، ثم عطفهما عليهم ، إن قلنا إنهما غير مرادين بلفظ الملائكة ، وكذا قوله تعالى ﴿حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى﴾ [البقرة / ٢٣٨] إن قلنا إنها غير مرادة بلفظ الصلوات. فإن قيل : ما الحكمة في تكرار رأيت؟

قلنا : قال الزمخشري : ليس ذلك تكرارا ، بل هو كلام مستأنف وضع جوابا لسؤال مقدر من يعقوب عليه‌السلام ، كأنه قال له بعد قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الآية ٤] كيف رأيتها سائلا عن حال رؤيتها؟ فقال مجيبا له ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ (٤) وقال الزجّاج : إنما كرر الفعل تأكيدا لما طال الكلام كما في قوله تعالى ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ (٧) [الروم]﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ (٣٧) وقال غيره ، إنما كرره تفخيما للرؤية وتعظيما لها.

فإن قيل : لم أجريت مجرى العقلاء في قوله تعالى ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ وفي قوله

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

﴿ساجِدِينَ﴾ (٤) وأصله رأيتها ساجدة؟

قلنا : لما وصفها بما هو من صفات من يعقل ، وهو السجود أجرى عليها حكمه ، كأنها عاقلة ، وهذا شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه ، فيعطى حكما من أحكامه إظهارا لأثر الملابسة المقارنة ، ونظيره قوله تعالى ﴿قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا﴾ [النمل / ١٨] وقوله تعالى في وصف السماء والأرض ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ (١١) [فصّلت].

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [الآية ١٢] وكانوا عاقلين بالغين ، وأنبياء أيضا في قول البعض ، وكيف رضي يعقوب عليه‌السلام لهم بذلك؟

قلنا : على قراءة الياء لا إشكال ، لأن يوسف عليه‌السلام كان يومئذ دون البلوغ فلا يحرم عليه اللعب ، وعلى قراءة النون نقول كان لعبهم المسابقة والمناضلة ، ليعوّدوا أنفسهم الشجاعة لقتال الأعداء لا للهو ، وذلك جائز بالشرع ، ويعضد هذا قولهم كما ورد في التنزيل ﴿إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ﴾ [الآية ١٧] وإنّما سموه لعبا لأنه في صورة اللعب. ويرد على أصل السؤال أن يقال : كيف يتورّعون عن اللعب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من اللعب ، وأشدّ ، وهو إلقاء أخيهم في الجبّ على قصد القتل.

فإن قيل : لم اعتذر إليهم يعقوب عليه‌السلام بعذرين أحدهما ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [الآية ١٣] لأنه كان لا يصبر عنه ساعة واحدة ، والثاني خوفه عليه من الذئب ، فأجابوه عن أحد العذرين دون الآخر؟

قلنا : حبه إيّاه ، وإيثاره له ، وعدم صبره على مفارقته ، هو الذي كان يغيظهم ويؤلمهم ، فأضربوا عنه صفحا ، ولم يجيبوا عنه.

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ﴾ [الآية ١٥] وهو يومئذ لم يكن بالغا ، والوحي إنما يكون بعد الأربعين؟

قلنا : المراد به وحي الإلهام ، لا وحي الرسالة الذي هو مخصوص بما بعد الأربعين ؛ ونظيره قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص / ٧] وقوله تعالى ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل / ٦٨].

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ

أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [الآية ٢٢] وقال في حق موسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [القصص / ١٤].

قلنا : المراد ببلوغ الأشدّ دون الأربعين سنة على اختلاف مقداره ، والمراد بالاستواء بلوغ الأربعين أو الستين ، وكان إيتاء كل واحد منهما ، الحكم والعلم ، في ذلك الزمان ، فأخبر عنه كما وقع.

فإن قيل : لم وحّد الباب في قوله تعالى ﴿وَاسْتَبَقَا الْبابَ﴾ [الآية ٢٥] بعد جمعه في قوله ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ﴾ [الآية ٢٣].

قلنا : لأن إغلاق الباب للاحتياط ، لا يتم إلّا بإغلاق أبواب الدار جميعها ، سواء أكانت كلها في جدار الدار أو لا ، وأمّا هربه منها إلى الباب ، فلا يكون إلا إلى باب واحد ، إن كانت كلها في جدار الدار ، ولأن خروجه في وقت هربه ، لا يتصور إلا من باب واحد منها ، وإن كان بعض الأبواب داخل بعض ، فإنه أول ما يقصد الباب الأدنى لقربه ، ولأن الخروج من الباب الأوسط والباب الأقصى ، موقوف على الخروج من الباب الأدنى ، فلذلك وحّد الباب.

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها﴾ [الآية ٢٦] ولم يكن قوله شهادة؟

قلنا : لما أدى معنى الشهادة في ثبوت قول يوسف عليه السلام ، وبطلان قولها ، سمي شهادة ، فالمراد بقوله ﴿شَهِدَ﴾ : أعلم ، وبيّن ، وحكم.

فإن قيل : قدّ قميصه من دبر يدلّ على أنها كاذبة ، وأنها هي التي تبعته ، وجذبت قميصه من خلفه فقدّته ، وأما قدّه من قبل ، فكيف يدل على أنها صادقة (١)؟

قلنا : يدل من وجهين : أحدهما أنه إذا طالبها وهي تدفعه عن نفسها بيدها أو برجلها ، فإنها تقد قميصه من قبل بالدفع. الثاني : أنه يسرع خلفها وهي هاربة منه ، فيعثر في مقادم قميصه فيشقه. ويرد على الوجه الثاني أنه مشترك الدلالة من جهة العثار الذي هو نتيجة الإسراع ، لأنه يحتمل أن يكون

(١). انظر الآيتين ٢٦ و ٢٧ من سورة يوسف.

إسراعا في الهرب منها ، وهي خلفه فيعثر ، فينقدّ قميصه من قبل.

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَ﴾ [الآية ٣١] وإنما يقال خرجت إلى السوق ، وطرقت عليه الباب فخرج إليّ؟

قلنا : إذا كان الخروج بقهر وغلبة ، أو بجمال وزينة ، أو بآية وأمر عظيم ، فإنما يعدّى ب «على» ، ومنه قولهم خرج علينا في السفر قطاع الطريق ، وقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص / ٧٩] وقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ﴾ [مريم / ١١].

فإن قيل : كيف شبّهن يوسف عليه‌السلام بالملك ، فقلن كما ورد في التنزيل ﴿ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١) وهنّ ما رأين الملائكة قط؟

قلنا : إن كن ما رأين الملائكة ، فقد سمعن وصفها. الثاني : أن الله تعالى قد ركز في الطباع حسن الملائكة ، كما ركز فيها قبح الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن بالملك ، وكل متناه في القبح بالشيطان.

فإن قيل : لم ورد على لسان يوسف عليه‌السلام ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ﴾ (٣٧) وترك الشيء ، إنما يكون بعد ملابسته والكون فيه ، يقال ترك فلان شرب الخمر ، وأكل الربا ، ونحو ذلك إذا كان فيه ثم أقلع عنه ، ويوسف عليه‌السلام لم يكن على ملّة الكفّار قطّ؟

قلنا : الترك نوعان : ترك بعد الملابسة ويسمى ترك انتقال ، وترك قبل الملابسة ويسمى ترك إعراض ، كقوله تعالى في قصة موسى عليه‌السلام ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف / ١٢٧] وموسى عليه‌السلام ما لابس عبادة فرعون ولا عبادة آلهته في وقت من الأوقات ، وما نحن فيه من النوع الثاني ، وسيأتي نظير هذا السؤال في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ﴾ (٨٨) [الأعراف / ٨٨].

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الآية ٤٠] فسّر الأمر بالنهي ، أو بما جزء منه النهي ، وهما ضدّان؟

قلنا : فيه إضمار أمر آخر ، تقديره أمر اقتضى أن لا تعبدوا إلا إياه ، وهو

كقوله تعالى ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [العنكبوت] فإنه باعتبار تقديم المفعول في معنى الحصر كما قال في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) [الفاتحة]. الثاني أن فيه إضمار نهي تقديره : أمر ونهي ، ثم فسر الأمرين بقوله تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الآية ٤٠].

الثالث : أن قوله تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ وإن كان مضادا للأمر من حيث اللفظ ، فهو مرافق له من حيث المعنى ، فلم قلتم إن تفسير الشيء بما يضاده صورة ، ويوافقه معنى ، غير جائز بيان موافقته معنى ، من وجهين : أحدهما أن النهي عن الشيء أمر بضده ، وعبادة الله ضد لا عبادة الله. الثاني أن معنى مجموع قوله تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أعبدوه وحده ، فيكون تفسيرا للأمر المطلق.

فإن قيل : الأنبياء عليهم السلام ، أعظم الناس زهدا في الدنيا ، ورغبة في الآخرة ، فلم ورد على لسان يوسف عليه السلام ﴿اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ﴾ [الآية ٥٥] طلب أن يكون معتمدا على الخزائن ، متولّيا لها ، وهو من أكبر مناصب الدنيا؟ قلنا : إنما طلب ذلك ليتوصّل به إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، ونحوه ، ممّا يبعث له الأنبياء ، ولعلمه أن أحدا غيره ، لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلب التولية ابتغاء لوجه الله تعالى ، وسعيا لمنافع العباد ومصالحهم لهم ، لا لحبّ الملك والدنيا ، ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف / ١٨٨] يعني لو كنت أعلم أي وقت يكون القحط ، لادّخرت لزمن القحط طعاما كثيرا ، لا للحرص ، لكن لأتمكّن من إعانة الضعفاء والفقراء ، وقت الضرورة والمضايقة ، ويحتمل أن يكون علم تعيّنه بذلك العمل ، فكان طلبه واجبا عليه.

فإن قيل : كيف جاز ليوسف عليه السلام كما ورد في التنزيل أن يأمر المؤذّن أن يقول ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾ (٧٠) وذلك بهتان وتسريق بالصواع لمن لم يسرقه ، وتكذيب للبريء ، واتهام من لم يسرق بأنّه سرق؟

قلنا : قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾ (٧٠) تورية عمّا جرى منهم مجرى السرقة ، وتصوّر بصورتها ، من

فعلهم بيوسف ما فعلوه أو لا. الثاني : أن ذلك القول كان من المؤذّن بغير أمر يوسف عليه السلام ، كذا قاله بعض المفسرين.

الثالث : أنّ حكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية ، التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية ، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ﴾ [ص / ٤٤] وقول إبراهيم عليه السلام في حق زوجه هي أختي لتسلم من يد الكافر ، وما أشبه ذلك.

فإن قيل : لم تأسّف يعقوب عليه السلام على يوسف دون أخيه بقوله ﴿يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ﴾ [الآية ٨٤] والرّزء الأحدث أشدّ على النفس وأعظم أثرا؟ قلنا : إنما يكون أشدّ إذا تساوت المصيبتان في العظم ولم يتساويا هنا ، بل فقد يوسف كان أعظم عليه وأشدّ من فقدان أخيه ؛ فإنما خصّه بالذكر ، ليدلّ على أنّ الرّزء فيه مع تقادم عهده ، ما زال غضّا طريّا.

فإن قيل : لم قال تعالى ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ [الآية ٨٤] والحزن لا يحدث بياض العين لا طبّا ولا عرفا؟

قلنا : قال ابن عباس : أي من البكاء ، لأن الحزن سبب البكاء ، فأطلق اسم السبب وأراد به المسبّب ، وكثرة البكاء ، قد تحدث بياضا في العين يغشى السواد ، وهكذا حدث ليعقوب عليه السلام ، وقيل إذا كثرت الدموع محقت سواد العين ، وقلبته إلى بياض كدر.

فإن قيل : لم قال يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ (٨٧) مع أن من المؤمنين من ييأس من روح الله ، أي من فرجه وتنفيسه ، أو من رحمته على اختلاف القولين ، إمّا لشدّة مصيبته ، أو لكثرة ذنوبه ، كما جاء في الحديث في قصة الذي أمر أهله ، إذا مات أن يحرقوه ويذروا رماده في البر والبحر ، ففعلوا به ذلك ، ثم إن الله غفر له ، كما جاء مشروحا في الحديث المشهور ، وهو من الصحاح ، مع أنه يئس من رحمة الله تعالى ، وضم إلى يأسه ذنبا آخر وهو اعتقاده أنه إذا أحرق وذري رماده لا يقدر الله على إحيائه وتعذيبه ، ومع هذا كله يغفر له ، فدلّ على أنه لم يمت كافرا؟

قلنا : إنّما ييأس من روح الله الكافر لا المسلم عملا بظاهر الآية ، وكل

مؤمن يتحقّق منه اليأس من روح الله ، فهو كافر في الحال ، حتى يعود إلى الإسلام ، بعوده إلى رجاء روح الله ؛ وأمّا الرجل المغفور له في الحديث ، فلا نسلّم أنه لم يكفر ، ثم إن الله تعالى لما أحياه في الدنيا ، عاد إلى الإسلام ، بعوده إلى رجاء روح الله تعالى ، فلذلك غفر له ، وقد يكون قد عاد إلى رجاء روح الله تعالى ، قبل موتته الأولى ، ولم يتسع له الزمان أن يرجع عن وصيته التي أوصى بها أهله ، فمات مسلما فلذلك غفر له.

فإن قيل : في قوله تعالى ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ [الآية ١٠٠] كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله تعالى؟

قلنا : لعله كان السجود عندهم تحية وتكرمة كالقيام والمصافحة عندنا.

وقيل : كان انحناء كالركوع ، ولم يكن بوضع الجبهة على الأرض ، إلا أن قوله تعالى ﴿وَخَرُّوا﴾ يأبى ذلك ، لأنّ الخرور عبارة عن السقوط ، ولا يرد عليه قوله تعالى ﴿وَخَرَّ راكِعاً﴾ [ص / ٢٤] لأنهم قالوا أراد به ساجدا ، فعبّر عن السجود بالركوع ، كما عبر عن الصلاة في قوله تعالى ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣) [البقرة] أي صلّوا مع المصلين. وقيل له : أي لأجله ، فاللام للسببية لا لتعدية السجود إلى يوسف عليه‌السلام ، فالمعنى وخرّوا لأجل يوسف سجّدا لله تعالى ، شكرا على جمع شملهم به ، وقيل الضمير في له ، يعود إلى الله تعالى ، وهذا الوجه يدفعه قوله تعالى ﴿يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾ [الآية ١٠٠].

فإن قيل : لم ذكر يوسف عليه‌السلام نعمة الله تعالى في إخراجه من السجن ، فقال كما ورد في التنزيل ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [الآية ١٠٠] ولم يذكر نعمته عليه في إخراجه من الجبّ وهو أعظم نعمة ، لأن وقوعه في الجبّ كان أعظم خطرا؟

قلنا : إنما ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة ، لوجوه : أحدها : أنّ محنة السجن ومصيبته ، كانت أعظم لطول مدتها ، فإنه لبث فيه بضع سنين ، وما لبث في الجبّ إلّا مدّة يسيرة. الثاني : أنه إنما لم يذكر الجب ، كي لا يكون في ذكره توبيخ وتقريع لإخوته ، عند قوله لهم كما ورد في التنزيل ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [الآية ٩٢].

الثالث : أن خروجه من السجن ،

كان مقدمة لملكه وعزه ، فذلك ذكره ، وخروجه من الجبّ ، كان مقدمة الذل والرق والأسر ، فلذلك لم يذكره.

الرابع : أن مصيبة السجن ، كانت أعظم عنده ، لمصاحبة الأوباش والأراذل وأعداء الدين ؛ بخلاف مصيبة الجب ، فإنه كان مؤنسه فيه جبريل وغيره من الملائكة عليهم‌السلام .

فإن قيل : لم قال تعالى على لسان يوسف ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ [الآية ١٠١] وهو يعلم أنّ كلّ نبيّ لا يموت إلّا مسلما؟

قلنا : يجوز أن يكون دعا بذلك ، في حالة غلبة الخوف عليه ، غلبة أذهلته عن ذلك العلم ، في تلك الساعة. الثاني : أنه دعا بذلك ، مع علمه ، إظهارا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة ، في طلب سعادة الخاتمة ، وتعليما للأمّة ، وطلبا للثواب.

فإن قلنا : كيف يجتمع الإيمان والشرك ، وهما ضدّان ، حتى قال تعالى ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦)؟

قلنا : معناه وما يؤمن أكثرهم ، بأن الله تعالى خالقه ورازقه وخالق السماوات والأرض ، قولا إلّا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلا. الثاني ، أن المراد بها المنافقون ، يؤمنون بألسنتهم قولا ، ويشركون بقلوبهم اعتقادا. الثالث أن المراد بها تلبية العرب ، كانوا يقولون : لبّيك لا شريك لك ، إلّا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ؛ فكانوا يؤمنون بأوّل تلبيتهم بنفي الشريك ، ويشركون بآخرها بإثباته.

فإن قيل : هذه التلبية ، توحيد كلها ولا شرك فيها ، لأن معنى قولهم إلّا شريكا هو لك : إلا شريكا هو مملوك لك ، موصوفا بأنك تملكه ، وتملك ما ملك ، واللام هنا للملك ، لا لعلاقة الشركة ؛ وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون حقيقيّا ، ويحتمل أن يكون مجازيّا ؛ بيان الأول ، أنّا إن قلنا إن اللام حقيقة في المعنى العام في مواردها ، وهو الاختصاص ، يكون قولهم : لا شريك لك ، عامّا في نفي كلّ شريك ، يضاف إلى الله تعالى بجهة اختصاص ما ، فيدخل في النفي من جهة لفظ الشريك المضاف بجهة المملوكية ، وهو شريك زيد وعمرو ونحوهما ، ثم يقع عليه الاستثناء ، فيكون استثناء حقيقيا ؛ وإن قلنا إنها مشتركة بين المعاني الثلاثة الموجودة

في موارد استعمالها ، وهي الملك والاستحقاق ، ويقال الاختصاص ، فقولهم : لا شريك لك يكون عامّا أيضا ، عند من يجوّز حمل المشترك على مفهومه في حالة واحدة ، فيكون الاستثناء أيضا حقيقيا كما مر ؛ وأما على قول من لا يجوّز ذلك يكون النفي واردا على أحد مفهوماته ، وهو علاقة الشركة ، فيكون الاستثناء بعده مجازيّا من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو نوع من أنواع البلاغة مذكور في علم البيان ، وشاهده قول الشاعر :

ولا عيـــب فـــيهم غـــير أنّ ســـيوفهم   بهـــنّ فلـــول مـــن قـــراع الكتائـــب

معناه : إن كان هذا عيبا ففيهم عيب ، وهذا ليس بعيب فلا يكون فيهم عيب ، فكذا هنا معناه : إن كان الشريك المملوك لك ، يصلح شريكا فلك شريك ، وهو لا يصلح شريكا لك ، فلا يكون لك شريك ، لأن كلّ ما يدعي أنه شريك لك ، فهو مملوك لك ، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم / ٢٨]. قلنا : على الوجه الأول إنه ليس بصحيح ، لأنه لو جعلنا اللام حقيقة في المعنى العام وهو الاختصاص ، يلزم منه الكفر حيث وجد نفي الشريك من غير استثناء ، لأنه يلزم منه نفي ملكه تعالى ، شريك زيد وعمر ونحوهما ، وهو كفر ، واللازم منتف ، لأنه إيمان محض بلا خلاف.

فإن قيل : إنّما لم يكن كفرا مع عمومه ، لأن الحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء ، نفي كل شريك يضاف إلى الله تعالى بعلاقة الشريك ، لا نفي كل شريك ، يضاف إليه بجهة ما ، فصارت الحقيقة اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية ، عند عدم الاستثناء ، والجواب عن أصل السؤال ، أنه سؤال حسن محقق ، وأن هذه التلبية توحيد محض على التقديرين ، فإن صح النقل أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عنها ، فإنما نهى عنها لأنها توهم إثبات الشريك ، لمقتضى الاستثناء عند قاصري النظر ، وهم عوام الناس ، فلهذه المفسدة نهى عنها.

المعاني المجازية في سورة «يوسف» (١)

قوله تعالى : ﴿يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ (٤). وهذه استعارة ، لأنّ الكواكب والشمس والقمر ممّا لا يعقل ، فكان الوجه أن يقال. ساجدة. ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل ، جاز أن توصف بصفة من يعقل ، لأن السجود من فعل العقلاء. وهذا كقوله سبحانه : ﴿يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) [النمل] ، فلما كانت النمل في هذا القول ، مأمورة أمر من يعقل ، جرى الخطاب عليها جريه على من يعقل. مثل ذلك قوله تعالى : ﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾ [فصّلت / ٢١] ، لأنها لما شهدت عليهم شهادة العقلاء المخاطبين ، أجروا ـ كما في هذا الخطاب ـ مجرى العقلاء المخاطبين. ومن الشاهد على ذلك قول عبدة بن الطبيب :

إذ أشرف الدّيك يدعو بعض أسرته ... لدى الصّباح وهم قوم معازيل (٢)

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب : «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي ، تحقيق محمد عبد الغني حسن ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

(٢). هذا البيت من قصائد «المفضّليات» للضّبّي ، والقصيدة كلها كاملة في ديوان المفضليات ، بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ـ ص ١٣٣ ـ ١٤٣ ج ١ ، وترجمة عبدة بن الطبيب في اللآلي ، والأغاني ، والإصابة ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وهو صاحب البيت المشهور في الرثاء :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدّما

فلما جعله بمنزلة الداعي جعل الديكة بمنزلة القوم المدعوّين ، وجعلهم أسرة له ؛ وأسرة الرجل قومه ورهطه. والمعازيل الذين لا سلاح معهم. فكأنه جعله مستنصرا من لا نصرة له ، ولا غناء عنده. وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ﴾ (٤) [الشعراء] على أحد القولين. فكأنّ السياق ، ردّ خاضعين إلى أصحاب الأعناق ، لا إلى الأعناق ، لأن الخضوع منهم يكون على الحقيقة.

وقد يجوز أيضا أن يكون قوله تعالى في ذكر الكواكب والشمس والقمر : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ (٤) إنما حسن على تأويل تلك الرؤيا. وتأويلها يتناول من يعقل من إخوة يوسف وأبويه. فجرى الوصف على تأويل الرؤيا ، ومصير العقبى. وهذا موضع حسن ، ولم يمض لي كما تقدم.

وقوله سبحانه : ﴿وَجاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [الآية ١٨] وهذه استعارة.

لأن الدم لا يوصف بالكذب على الحقيقة. والمراد بذلك ـ والله أعلم ـ بدم مكذوب فيه ، والتقدير بدم ذي كذب.

وإنما يوصف الدم بالمصدر الذي هو (كذب) على طريق المبالغة. لأن الدعوى التي علقت بذلك الدم ، كانت غاية في الكذب.

وقال بعضهم : قد يجوز أيضا أن يكون «كذب» هاهنا ، صفة لقول محذوف يدلّ عليه الحال. فكأنّ التقدير : وجاءوا على قميصه بدم ، وجاءوا بقول كذب ، إذ كانت إشارتهم إلى آثار الدم في القميص ، قد صحبها قول منهم يؤكد تلك الحال ، وهو قولهم : ﴿إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [الآية ١٧]. والقول الأول أصوب. ومن غرائب التفسير ما روي عن أبي عمرو بن العلاء [1] أنه قال : سمعت

---

(١). أبو عمرو بن العلاء. واسمه زبّان بن عمار كان إماما في اللغة والأدب ، وكان من أعلم الناس بالأدب والقرآن والشعر ، وأعراب الجاهلية. توفي سنة ١٥٤ ه‍. بالكوفة. وله ترجمة موجزة في «المزهر» للسيوطي. وانظر «الأعلام» للزّركلي.

بعض الرواة يقول : بدم كذب بالإضافة ، من الدال [1]. وقال : هو الجدي في كلام الكنعانيين ، وأنشد لبعضهم :

ظلّت دماء بني عوف كأنّهم   عند الهياج رعاة بين أكداب

وقيل : إنهم لطّخوا قميص يوسف عليه‌السلام ، بدم ظبي ذبحوه.

وقوله سبحانه : ﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [الآية ١٨] وهذه استعارة. وحقيقة التسويل تزيين الإنسان لغيره أمرا غير جميل.

جعل سبحانه أنفسهم ، لما قوي فيها الإقدام على ذلك الأمر المذموم ، بمنزلة الغير الذي يحسّن لهم فعل القبيح ، ويحمّلهم على ركوب العظيم.

وقوله سبحانه : ﴿قَدْ شَغَفَها حُبًّا﴾ [الآية ٣٠] وهذه استعارة. والمراد بها أن حبّه تغلغل إليها ، حتى أصاب شغافها ، وهو غشاء قلبها. كما تقول : بطنت الرّجل. إذا أصبت بطنه. ويقال : معنى شغفها أي سلب شغاف قلبها ، على طريق المبالغة في وصف حبها له ، كما تقول : سلبت الرّجل ، إذا أخذت سلبه.

وقوله سبحانه : ﴿قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ﴾ (٤٤) وهذه أبلغ استعارة وأحسن عبارة ، لأن أحد الأضغاث : ضغث. وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض ، كالحزمة وما يجري مجراها ، فشبّه سبحانه اختلاط الأحلام ، ما مرّ به الإنسان من المحبوب والمكروه ، والمساءة والسرور باختلاط الحشيش المجموع من أخياف [2] عدة ، وأصناف كثيرة.

وقوله سبحانه ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (٤٨). وهذه استعارة. والمراد بالسّبع الشداد : السّنون المجدبة. ومعنى ﴿يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي ينفد فيهن ، ما ادّخرتموه لهن من السنين المخصبة.

---

(١). وقرأ الحسن وعائشة «بدم كدب» بالوصف لا بالإضافة ، وبالدال المهملة أي بدم طري. يقال للدم الطري : الكدب.

(٢). الأخياف : جمع خيف ، وهو كلّ هبوط وارتقاء في سفح الجبل ، أو ما ارتفع عن مسيل الماء.

وجرى على ذلك عادة العرب في قولهم : أكلت آل فلان السّنة. يريدون مسّهم الضّر ، في عام الجدب ، وزمان الأزل [1]. حتى كأنهم ليسمون السنة المجدبة : الضّبع. فيقولون : أكلتهم الضّبع. أي نهكتهم سنة الجدب.

وقال بعضهم : إنما نسب تعالى الأكل إليهنّ ، لأن الناس يأكلون فيهن ما ادّخروه ، ويستنفدون ما أعدّوه. كما يقال : يوم آمن. وليل خائف. أي يأمن الناس في هذا ، ويخافون في هذا.

وقوله سبحانه : ﴿لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ﴾ (٥٢) [2].

[وهذه استعارة. لأنه تعالى أقام كيد الخائنين] مقام الخابط في الطريق ، ليصل إلى مضرّة المكيدة وهو غافل عنه ؛ فأعلمنا سبحانه أنه لا يهديه ، بمعنى لا يوفّقه لإصابة الغرض ، ولا يسدّده لبلوغ المقصد ، بل يدعه يخبط في ضلاله ، ويتسكّع في متاهه ، لأنه كالسّاري في غير طاعة الله ، فلا يستحق أن يهدى لرشد ، ولا يتسدّد لقصد.

وقوله سبحانه : ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي﴾ [الآية ٥٣]. وهذه استعارة. لأن النفس لا يصحّ أن تأمر على الحقيقة.

ولكن الإنسان لما كان يتبع دواعيها إلى الشهوات ، وينقاد بأزمّتها إلى المقبّحات ، كانت بمنزلة الآمر المطاع ، وكان الإنسان بمنزلة السامع المطيع. وإنما قال سبحانه : ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾. ولم يقل لآمرة ، مبالغة في صفتها بكثرة الدفع في المهاوي ، والقود إلى المغاوي. لأنّ «فعّالا» [3] من أمثلة الكثير ، كما أن «فاعلا» من أمثلة القليل.

وقوله سبحانه : ﴿نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ﴾ [الآية ٧٦]. وهذه استعارة. لأنه ليس هناك على الحقيقة بناء يوطّد ، ولا درجات تشيّد. وإنما المراد به تعلية معالم الذكر في الدنيا ، ورفع منازل الثواب في الآخرة.

وقوله سبحانه : ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي

---

(١). الأزل : الضيق ، والشدّة ، والداهية.

(٢). أصل الآية كاملة : ﴿ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ﴾ (٥٢).

(٣). فعّال : أي الصيغة التي على وزن فعّال. وهذه تدل على الكثرة والمبالغة ، فالرجل القتّال ، هو الكثير القتل.

﴿كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها﴾ [الآية ٨٢].

وهذه استعارة من مشاهير الاستعارات. والمراد : واسأل أهل القرية التي كنا فيها ، وأصحاب العير التي أقبلنا فيها. ومما يكشف عن ذلك ، قوله تعالى في السورة التي يذكر فيها الأنبياء عليهم‌السلام : ﴿وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾ (٧٤) [الأنبياء]. والقرية هي الأبنية المفروشة ، والخطط المسكونة لا يصحّ منها عمل الخبائث ؛ فعلم أن المراد بذلك أهلها. ومن الشاهد على ذلك أيضا ، قوله سبحانه : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧٧) [الأنبياء]. وقال بعضهم : إن القرية هي الجماعة المجتمعة ، لا الأبنية المشيدة. وذلك مأخوذ من قولهم : قرى الماء في الحوض. إذا جمعه ؛ والعير : هي الإبل وفيها أصحابها. وإنما أنث السياق ضمير القرية بقوله تعالى : ﴿الَّتِي كُنَّا فِيها﴾ على اللفظ كما يقول القائل : قامت تلك الطائفة ، وتفرّقت تلك الجماعة ، على اللفظ. ويحسن منه أن يقول عقيب هذا الكلام : وأكلوا ، وشربوا ، وركبوا ، وذهبوا ، حملا على المعنى دون اللفظ. كما قال تعالى : ﴿مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ﴾. ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ على المعنى.

وكذلك القول في العير ، فإنما أنّث ضميرها على اللفظ ، لأنّ العير مؤنثة.

قال تعالى في هذه السورة : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [الآية ٩٤].

وقوله سبحانه : ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ [الآية ٨٧] وهذه استعارة. والمراد ولا تيأسوا من فرج الله. والرّوح هو تنسيم الريح ، التي يلذّ شميمها ، ويطيب نسيمها. فشبه تعالى الفرج الذي يأتي بعد الكربة ، ويطرق بعد اللّزبة [1] بنسيم الريح الذي ترتاح القلوب له ، وتثلج الصدور به. ومثل ذلك ما جاء في الخبر : (الريح من نفس الله) [2] أي من تنفيسه عن خلقه.

---

(١). اللّزبة : الشدّة والقحط. يقال سنة لزبة أي شديدة.

(٢). وفي «نهاية الأرب» ج ١ ص ٩٥ روي عن رسول الله (ص) أنه قال (الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب ، فلا تسبّوها ، واسألوا الله خيرها ، واستعيذوا بالله من شرّها) أخرجه البيهقي في سننه.

يريد سبحانه أن القلوب تستروح إليها ، كما يستروح المكروب إلى نفسه ، وذو الخناق إلى تنفّسه.

وقوله سبحانه : ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللهِ﴾ [الآية ١٠٧]. وهذه استعارة. والمراد بذلك المبالغة في صفة العذاب بالعموم لهم ، والإطباق عليهم ، كالغاشية التي تشتمل على الشيء ، فتجلّله من جميع جنباته ، وتستره عن العيون من كل جهاته.

سورة الرعد

١٣

أهداف سورة «الرّعد» (١)

سورة الرّعد من السور التي اختلف في مكّيّتها ومدنيّتها ، فقال قوم إنها مكّيّة ، لأنها شبيهة بالسور المكّيّة في قصّتها وموضوعاتها ، وقال آخرون إنها مدنيّة ، ولكن موضوعاتها تشبه موضوعات السور المكّيّة. وفي المصحف المطبوع في القاهرة سورة الرعد مدنيّة ، وآياتها ٤٣ ، نزلت بعد سورة محمّد.

وفي تفسير مقاتل بن سليمان ، سورة «الرّعد» مكّية ، ويقال مدنية. وتسمى سورة الرّعد لقوله سبحانه فيها :

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الآية ١٣].

وسورة «الرّعد» من أعاجيب السور القرآنية التي تستولي على النفس ، وتثير الوجدان ، وتزحم الحس بالصور والمشاهد. ثم تأخذ النفس من أقطارها جميعا ، فإذا هي في مهرجان من الصور والمشاعر. وتسلك السورة سبيلها الى القلب وترتاد به آفاقا وأكوانا وعوالم وأزمانا ، وهو مستيقظ مبصر ، مدرك ، شاعر بما يموج حوله من المشاهد والصور.

إنّها ليست ألفاظا وعبارات ، ولكنّها صور حية تستولي على الفؤاد ، وتلمس الوجدان وتوحي بالإيمان.

موضوع السورة

موضوع سورة الرعد الرئيس هو العقيدة. وقضاياها هي التوحيد

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها» ، لعبد الله محمود شحاته ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ - ١٩٨٤.

والبعث ، وهذا الموضوع تكرّر عرضه في سور سابقة ولاحقة.

ولكنه يعرض في كل مرة بطريقة جديدة. وفي ضوء جديد. ويتناول عرضه مؤثرات وموحيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد.

تطوف سورة الرعد بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق ، وتعرض عليه الكون كله في شتّى مجالاته الأخاذة : في السموات المرفوعة بغير عمد ؛ وفي الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّى ؛ وفي الليل يغشاه النهار ؛ وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارية ، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان ، ينبت في قطع من الأرض متجاورات ، ويسقى بماء واحد ؛ وفي البرق يخيف ويطمع ؛ والرعد يسبّح ويحمد ؛ والملائكة تخاف وتخشع ؛ والصواعق يصيب بها من يشاء ؛ والسحاب الثّقال ؛ والمطر في الوديان ؛ والزّبد الذي يذهب جفاء ، ليبقى في الأرض ما ينفع الناس.

وهي تلاحق ذلك القلب أينما توجّه : تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل ، يحيط بالشارد والوارد والمستخفي والسارب ، ويتعقب كلّ حي ويحصي عليه الخواطر والخوالج. والغيب المكنون الذي لا تدركه الظنون مكشوف لعلم الله ، وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار.

إنها تقرّب لمدارك البشر شيئا من حقيقة القوة الكبرى ، المحيطة بالكون ظاهره وخافية ، جليله ودقيقه ، حاضره وغيبه. وهذا القدر الذي يمكن لمدارك البشر تصوّره هائل مخيف ، ترتجف له القلوب.

وذلك إلى الأمثال المصوّرة ، تتمثل في مشاهد حية ، حافلة بالحركة والانفعال ، الى مشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب ، وخلجات الأنفس في هذا وذاك ، إلى وقفات على مصارع الغابرين ، وتأملات في سير الراحلين ، وفي سنة الله التي مشت عليهم ، فإذا هم داثرون.

مشاهد الكون في سورة الرعد

تبدأ سورة الرعد بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحي بهذا

الكتاب والحق الذي اشتمل عليه فيقول سبحانه :

﴿المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

وهذا الافتتاح يلخص موضوع السورة كله ، ويشير الى جملة قضاياها ، وتسترسل السورة في استعراض آيات القدرة وعجائب الكون الدالة على قدرة الله الخالق وحكمته وتدبيره ؛ وأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس ، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس. وأنّ من مقتضيات تلك القدرة ، أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم الى الخالق الذي بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم ، وسخّره لهم ليبلوهم فيما آتاهم.

وتبدأ الآيات الرائعة في رسم المشاهد الكونية الضخمة نظرة الى السماوات ، ونظرة الى الأرضين ، ونظرة الى مشاهد الأرض وكوامن الحياة.

قال تعالى :

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

وهذه اللفتة الأولى الى مظاهر القدرة الإلهية تحرّك الوجدان ، فيقف أمام هذا المشهد الهائل يتملّاه ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفع السماء بلا عمد. أو حتى بعمد. إلا الله جلّت قدرته ؛ وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد ، تلك البنايات الصغيرة الهزيلة ، القابعة في ركن ضيّق من الأرض لا تتعداه ؛ ثم يتحدث الناس عمّا في تلك البنايات من عظمة ومن قدرة وإتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد ، وعمّا وراءها من القدرة الحق ، والعظمة الحق ، والإتقان الذي لا يتطاول إليه خيال إنسان.

ومن هذا المنظور الهائل الذي يشاهده الناس في خلق الله ، الى المغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار :

﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

أي استولى على ملك الموجودات جميعها ، وأحاطت قدرته الكائنات جميعها.

ومع الاستعلاء والتسخير ، الحكمة والتدبير.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

وإلى حدود مرسومة وفق ناموس مقدّر.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾.

ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء ، فتجري لأجل لا تتعدّاه.

ومن قدرة الله سبحانه ، أنّه مدّ الأرض وبسطها امام البصر ، وأمدّها بمقومات الحياة :

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

ليكمل إبداع الخلق وتناسقه ، ثم تابع الله ، جلّت قدرته ، بين الليل والنهار في انتظام عجيب ، ونظام دقيق يبعث على التأمل في ناموس هذا الكون ، والتفكير في القدرة المبدعة التي تدبّره وترعاه :

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

أدلة الألوهية في سورة الرعد

نحن في سورة الرعد أمام عدد من أدلة الألوهية يتوارد بعضها وراء بعضها في سياق بديع ، وعرض شائق.

فهناك الأرض التي تزرع بألوان مختلفة من النبات فيها.

﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ﴾ [الآية ٤].

منه ما هو عود واحد ، ومنه ما هو عودان أو أكثر ، في أصل واحد ، وكله :

﴿يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ﴾ [الآية ٤].

والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم :

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الآية ٤].

فمن غير الخالق المدبّر يفعل ذلك؟

إن القرآن ، بمثل هذه اللفتة ، يبقى جديدا أبدا ، لأنه يجدّد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس ، وهي لا تنفد ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤).

ومن أدلة الألوهية : إحاطة علم الله بالجنين في بطن أمه ، وبالسر المكنون في الصدور ، وبالحركة الخفية في جنح الليل ، وبكلّ مختف في الليل وظاهر في النهار ، وهو سبحانه محيط بكل من تكلّم همسا ، أو تكلّم جهرا ، فإن كل شيء مكشوف تحت المجهر الكاشف يتبعه شعاع من علم الله ، وتتعقبه حفظة تحصي الخواطر والنوايا.

إلا أنها الرهبة الخاشعة التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ الى الله ، تطمئن في حماه ، وهي تتصور علم الله المحيط بكل شيء. ونلاحظ أن بعض الآيات في سورة الرعد ، يلمس آفاق الكون الهائل ، مثل الآيات الأربع الأولى من السورة.

وبعض الآيات ، يلمس أغوار النفس ومجاهل السرائر ، مثل الآيات الممتدة من ٨ الى ١٠ حيث يقول سبحانه :

﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (٨) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (٩) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (١٠)﴾. ثم يأخذ السياق في جولة جديدة في واد آخر ، تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس ، متداخلة متناسقة.

حيث يقول سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾.

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان ، وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس ، حتى اليوم ، وعند الذين يعرفون مزيدا عن طبيعتها. والسورة تذكر هذه الظواهر متتابعة ، وتضيف إليها الملائكة والتسبيح والسجود والخوف والطمع ، لتصوير سلطان الله ، المتفرّد بالقهر والنفع والضرّ.

وقد سميت السورة بسورة الرعد ، لقوله سبحانه :

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾.

والرعد هو ذلك الصوت المقرقع المدوّي ، وهو أثر من آثار الناموس الكوني الذي صنعه الله ، أيّا كانت طبيعته وأسبابه ، فهو رجع صنع الله في

هذا الكون ، وهو يحمد ويسبّح بلسان الحال ، للقدرة التي صاغت هذا النظام ، كما أن كل مصنوع جميل متقن ، يسبّح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه ، بما يحمله من جمال وإتقان.

وقد اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحا للحمد ، اتّباعا لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق ، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة ، لتشارك في المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كلّه ، وقد انضم الى تسبيح الرعد بحمد الله ، تسبيح الملائكة من خوفه ومن تعظيمه ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى / ٥].

وفي الحديث النبوي يقول الرسول (ص) : «أطّت السماء وحق لها أن تئطّ ، ما فيها موضع قدم إلّا وفيه ملك راكع أو ساجد يسبّح الله تعالى». ثم يعبّر السياق عن خضوع الكائنات جميعها لمشيئة الله تعالى بالسجود ، وهو أقصى رمز للعبودية ، فتسجد الكائنات ويسجد ظلها معها عند انكسار الأشعة ، وامتداد الظلال ؛ فإن شخوص الكون كله وظلاله ، جاثية خاضعة من طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء ، كلّها تسجد لله.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ (١٥).

النصف الثاني من سورة الرعد

في النصف الاول من سورة الرعد حدثتنا السورة عن المشاهد الهائلة في آفاق الكون وأعماق الغيب وأغوار النفس.

وفي النصف الثاني من السورة تسترسل الآيات في لمسات وجدانية وعقلية وتصويرية دقيقة رقيقة ، حول قضية الوحي والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد. وهي جولة جديدة حول تلك القضايا في السورة.

وتبدأ هذه الجولة بلمسة في طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ، فالأول علم والثاني عمّى :

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى﴾ [الآية ١٩].

وتبيّن الآيات طبيعة المؤمنين وطبيعة

الكافرين ، والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء ، ثم يتلوها مشهد من مشاهد القيامة ، وما فيها من نعيم للأولين وعذاب للآخرين. ويعقب ذلك لمسة في بسط الرزق وتقديره ، وردّ ذلك الى الله سبحانه ، فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله ، فوصف لهذا القرآن الذي يكاد يسير الجبال ، وتقطّع به الأرض ويكلّم به الموتى ؛ فلمسة بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم ، أو تحل قريبا من دارهم ، فجدل تهكّمي حول الآلهة المدّعاة ، فلمسة عن مصارع الغابرين ، ونقص أطراف الأرض منهم حينا بعد حين ؛ يختم هذا كله ، بتهديد الذين يكذّبون برسالة الرسول (ص) بتركهم للمصير المعلوم.

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية في شطر السورة الأول ، تحضّر المشاعر وتهيّئها لمواجهة القضايا والمسائل في شطرها الثاني وهي على استعداد وتفتّح لتلقّيها ؛ وإنّ شطري السورة متكاملان ، وكلّ منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءاته ، لهدف واحد وقضية واحدة ، هي الإيمان عن يقين كامل وأدلة مقنعة ، يطمئن لها القلب وتسكن إليها النفس. قال تعالى :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨).

فقلب الكافر في ضلال ، وقلب الجاحد مضطرب هواء ، وقلب المؤمن يطمئنّ لصلته بالله ، والأنس بجواره ، والأمن في جانبه وحماه ، يطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير ، ويطمئنّ بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضرّ ومن كل شرّ إلّا بما يشاء الله ، مع الرّضا بالابتلاء والصبر على البلاء ؛ ويطمئنّ برحمة الله في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة.

وليس أشقى على وجه الأرض ممّن يحرمون طمأنينة الأنس الى الله. ليس أشقى ممّن يعيش لا يدري لم جاء ، ولم يذهب ، ولم يعاني في الحياة؟ ليس أشقى في الحياة ، ممّن يشقّ طريقه فريدا وحيدا شاردا في فلاة ، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين.

وإن هناك شدائد في الحياة ، لا يصمد لها بشر ، إلّا أن يكون مرتكنا الى الله ، مطمئنّا الى حماه ، مهما أوتي

من القوة والثبات والصلابة والاعتداد. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله ، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله :

﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨).

التناسق الفني في سورة الرعد

ممّ نلحظه في سورة الرعد عنايتها بالمقابلة بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والاطمئنان والحيرة. وحين تعرضت السورة لرسم مشاهد الكون ، عنيت بإبراز المشاهد المتقابلة من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وليل ونهار ، وشخوص وظلال ، وجبال راسية ، وأنهار جارية ، وزبد ذاهب ، وماء باق ، وقطع من الأرض متجاورات مختلفات ، ونخيل صنوان وغير صنوان ؛ ومن ثم تطّرد هذه التقابلات في كل المعاني وكل الحركات وكل المصائر في السورة ، لتناسق التقابل المعنوي في السورة مع التقابلات الحسية ، وتتّسق في الجو العام.

ومن ثم يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش ، مع تسخير الشمس والقمر ، ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد ، ويتقابل من أسرّ القول مع من جهر به ، ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار ؛ ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق ، ويتقابل تسبيح الرعد حمدا مع تسبيح الملائكة خوفا ، وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء ، ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى ، ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه ، ويتقابل المحو مع الإثبات في الكتاب. وبالإجمال ، تتقابل المعاني وتتقابل الحركات وتتقابل الاتجاهات ، لتنسيق الجو العام في الأداء. وهذا التناسق الفني ، من بدائع الإعجاز في القرآن الكريم ، هذا القرآن العجيب الذي لو كان من شأن قرآن أن تسيّر به الجبال أو تقطّع به الأرض أو يكلّم به الموتى ، لكان في هذا القرآن من الخصائص والمؤثّرات ما تتحقق معه هذه الخوارق والمعجزات ، ولكنه جاء لخطاب المكلّفين الأحياء ، فإذا لم يستجيبوا له فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون ، وأن يدعوهم ويتركوهم ، حتى يأتي وعد الله للمكذّبين ، قال تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ (٣١).

ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقّته وتكيّفت به ، أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى ، لقد صنع في هذه النفوس ، وبهذه النفوس ، خوارق أضخم وأبعد آثارا في أقدار الحياة ، بل أبعد أثرا في شكل الأرض ، ذاته ، فكم غيّر الإسلام والمسلمون من وجه الأرض الى جانب ما غيّروا من وجه التاريخ؟

وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها ، طبيعته في دعوته وفي تعبيره ، طبيعته في موضوعه وفي أدائه ، طبيعته في حقيقته وفي تأثيره ، إنّ طبيعة هذا القرآن لتحتوي على قوة خارقة نافذة يحسّها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام ، واستعداد لإدراك ما يوجّه إليه ويوحي به. والذين تلقوه وتكيفوا به سيّروا ما هو أضخم من الجبال ، وهو تاريخ الأمم والأجيال. وقطّعوا ما هو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد. وأحيوا ما هو أخمد من الموتى ، نعني الشعوب التي قتل روحها الطغيان والأوهام ؛ والتحول الذي حصل في نفوس العرب وحياتهم أضخم بكثير من تحوّل الجبال عن رسوخها ، وتحوّل الأرض عن جمودها ، وتحوّل الموتى عن الموت : ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾.

وهو الذي يختار نوع الحركة وأداتها في كل حال. فإذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم ، فما كان أجدر بالمؤمنين الذين يحاولون تحريكها ان ييأسوا من القوم ، وأن يدعوا الأمر لله ؛ فلو شاء سبحانه لخلق الناس باستعداد واحد للهدى ، وهدى الناس جميعا على نحو خلقه الملائكة ، لو كان يريد.

لقد شاء الله جلّ جلاله أن يوجد الإنسان على وجه الأرض ، ومعه العقل والإرادة والاختيار والكسب ، حتى يتميّز المؤمن من الكافر ، والمستقيم من العاصي. وبذلك تتحقّق الحكمة الإلهية في تنوّع الخلق واختلاف مشاربهم :

﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩) [هود].

* * *

ترابط الآيات في سورة «الرّعد» (١)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الرعد» بعد سورة «محمّد». ونزلت سورة «محمّد» بعد سورتين من سورة «النساء» ، وكان نزول سورة «النساء» فيما بين صلح الحديبيّة وغزوة تبوك ، فيكون نزول سورة «الرعد» في ذلك التاريخ أيضا ، وعلى هذا تكون سورة «الرعد» من السّور التي نزلت بالمدينة ، وقيل إنها نزلت بمكّة ، لأنها تجري في أغراض السّور التي نزلت بها ، وقال الأصمّ : إنّها مدنيّة بالإجماع. وكأنه لم يقم وزنا لهذا القول ، ولا شيء في أن تجري بعض السور المدنية في أغراض السور المكيّة ، لأن المشركين الذين نزلت فيهم السور المكية لم ينقطع أمرهم بعد الهجرة ، وكان كثير منهم يحيط بالمدينة ، وكانت دعوتهم لا تزال قائمة ، ومما يؤيد أن هذه السورة مدنية ، قوله تعالى : ﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ (٣١).

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم ، لقوله تعالى في الآية ١٣ منها : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ وتبلغ آياتها ثلاثا وأربعين آية.

الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن ، كما يقصد من السور الثلاث المذكورة قبلها ، ولهذا ذكرت هذه

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن» ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

السورة بعدها ، وقد ابتدئت بمقدمة ذكر فيها أن الذي أنزل إليه من ربه هو الحقّ ، وأن الذي يمنعهم من تصديقه أنه يدعو الى التوحيد وهم لا يؤمنون به ، وقد استطرد فيها الى إثبات هذا التوحيد ، ثم عاد السياق الى المقصود من الكلام على تنزيل القرآن ، فذكر شبهتين لهما عليه وأخذ في إبطالهما ، وبهذا ينحصر المقصود من هذه السورة في هذه الأمور الثلاثة.

المقدمة

الآيات [١ ـ ٦]

قال الله تعالى : ﴿المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) فأقسم سبحانه بهذه الحروف أنّ ما أنزله هو آيات الكتاب ، وأن ما أنزل إليه منه هو الحق ، ولكن الذي يمنعهم من تصديقه أنه يدعو الى التوحيد وهم لا يؤمنون به ؛ ثم استطرد السياق من هذا الى إثبات توحيده جلّ وعلا ، فذكر أنه سبحانه هو الذي رفع السماوات بغير عمد ، وسخّر الشمس والقمر يجريان لأجل مسمّى ، ودبّر أمر خلقه وفصّل آياته لهم لعلّهم بلقائه يؤمنون ؛ ثم ذكر غير هذا من الآيات الدالّة على توحيد الله تعالى ، وأنه لا بد لهم من لقائه ، وعجب من إنكارهم بعد هذا أن يخلقوا من جديد بعد أن يصيروا ترابا ، وهدّدهم عليه بأنهم ستوضع الأغلال في أعناقهم ، وأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون ؛ ثم ذكر أنهم يستعجلونه سبحانه بهذا : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (٦).

رد شبهتهم الأولى على القرآن

الآيات [٧ ـ ٢٦]

ثم قال تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ (٧) فذكر شبهتهم الأولى على القرآن ، وهي إنكارهم له وطلب آية غيره ، وقد ردّ عليهم بأن النبي (ص) إنما هو منذر ، فليس بيده إجابتهم الى تلك الآيات ، وبأن كل قوم لهم هاد يبعث بالآية التي تناسبهم في علمه بأحوالهم ؛ ثم ذكر من علمه بأحوالهم أنه يعلم ما تحمل كلّ أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، الى غير هذا ممّا ذكره في إثبات علمه ليرضوا

بما اختاره لهم من آياته ؛ ثم انتقل السّياق من إثبات علمه تعالى إلى إثبات قدرته على ما يقترحونه من تلك الآيات ، فذكر أنه جلّ شأنه هو الذي يريهم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ، وأنه يسبّح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ؛ ثم ذكر أنهم يجادلون في وحدانيته سبحانه وهو شديد المحال ، وهو الذي إذا دعي أجاب ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ﴾ [الآية ١٤] وشركاؤهم لا يستجيبون لهم بشيء ، إلا كباسط كفّيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لأنه لا يمكنه أن يستجيب له ؛ ثم ذكر تعالى أن له يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها ، وأمر النبي (ص) أن يسألهم ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ١٦] وأن يجيب عن سؤاله بأنه الله لأنه لا ربّ لها غيره ، وأن ينكر منهم مع هذا أن يتّخذوا من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرّا ، وأن يذكر لهم أنه لا يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ثم أمره أن يسألهم : ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية ١٦] وأمر النبي (ص) أن يجيب عنه بأنه خالق كل شيء وهو الواحد القهّار ؛ ثم ضرب مثلا لحقّه وباطلهم بعد تلك الأمثال ، شبّه فيه حالهما بحال ماء أنزله من السماء فسالت به أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ، وبحال ذهب أو قد عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع فاحتمل زبدا أيضا ، فما يبقى تحت الزبد من الماء والذهب الخالص مثل للحقّ ، والزبد مثل للباطل ؛ فأما الزبد فيذهب ويفنى وكذلك الباطل ، وأما الماء والذهب الخالص فيبقى كل منهما لينتفع منهما الناس به ، وكذلك الحقّ.

ثم وعد أهل الحق الذين استجابوا له بأن لهم الحسنى ، وأوعد أهل الباطل الذين لم يستجيبوا له بأن لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم وبئس المهاد ، ثم ذكر أنه لا يمكن أن يسوّى بين الفريقين في ذلك ، وانه لا يتذكّر هذا إلّا أولو الألباب ، وهم الذين يوفون بعهده ولا ينقضون ميثاقهم ، ويصلون ما أمر به أن يوصل ، ويخشونه ويخافون سوء حسابهم ، ويصبرون ابتغاء وجهه ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون ممّا رزقهم سرّا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة. ثم وعدهم بأن لهم عقبى الدار ، جنات

عدن يدخلونها إلخ ، وأوعد الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ﴾ (٢٦).

رد شبهتهم الثانية على القرآن

الآيات [٢٧ . ٤٣]

ثم قال تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾ (٢٧).

فذكر شبهتهم الثانية على القرآن ، وهي شبهتهم الأولى بعينها ، وقد أجابهم أوّلا بأنه يضل من يشاء فلا يؤمن ، ولو أجيب الى ما يقترحه من الآيات ، ويهدي إليه من أناب فيؤمن بغير اقتراح آيات ؛ ثم وصف من أناب بأنهم الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكره سبحانه ، الى غير هذا مما وصفهم به.

ثم أجابهم ثانيا بأنه أرسل النبي (ص) في أمّة هي آخر الأمم ، فخصّه بمعجزة القرآن ليتلوها عليهم. فيبقى إعجازها قائما بينهم رحمة بهم ، وهم مع هذا يكفرون به ولا يقدّرون رحمته ؛ ثم أمره أن يؤمن به ، ويتوكّل عليه ، ويتوب إليه ، ولا يلتفت إليهم.

ثم أجابهم ثالثا بأنه لو كان هناك قرآن سيّرت به الجبال ، أو قطّعت به الأرض ، أو كلّم به الموتى ، لكان هذا القرآن الذي لا يؤمنون به ، وذكر أنّ الأمر له في إنزال ما ينزّله من الآيات ، وأنه لو شاء سبحانه لهدى الناس جميعا من غير معجزة من المعجزات ، وذكر أنهم لا يزالون تصيبهم ، بتعنّتهم في طلب الآيات ، قارعة من سبي أو قتل ، أو تحلّ قريبا من دارهم ، حتى يأتي وعده تعالى بنصر المؤمنين عليهم ؛ ثم ذكر سبحانه أنه قد استهزأت قبلهم أمم باقتراح الآيات على رسلهم ، فأملى لهم ثم أخذهم بما أخذهم به من العقاب ، وانتقل السياق من هذا إلى إثبات قدرته جلّ شأنه ، عليهم ، وعجز آلهتهم عن دفع شيء عنهم ، فذكر أنه لا يكون من هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن لا يقوم على شيء ، وأمرهم تعالى أمر تعجيز أن يسمّوا هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم له ؛ وذكر أنهم يدّعون له شركاء لا يعلمهم لعدم وجودهم ، وإنّما يأخذون في هذا

بظاهر من القول ، وليس عندهم شيء من العلم ، وقد زيّن لهم ما هم فيه ، وصدّوا عن السبيل ، فلا يمكن اهتداؤهم ؛ ثم أوعدهم بأن لهم عذابا في الحياة الدنيا وعذابا أشق منه في الآخرة ؛ ووعد المتقين بأن لهم جنة تجري من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلّها.

ثم أجابهم رابعا بأن أهل الكتاب يفرحون بهذا القرآن الذين لا يؤمنون به ، وإن كان من أحزابهم من ينكر بعضه لمخالفته لما عندهم ؛ وأمر النبي (ص) أن يعبده ولا يشرك به ، وأن يدعو إليه وحده ؛ ثم ذكر أنه أنزل القرآن حكمة عربية لا يصح طلب آية بعدها ؛ وحذّر النبي (ص) من أن يتّبع أهواءهم فيما يطلبونه من الآيات ، بعد أن جاءه من العلم ما لا يصح معه اتباع أهوائهم.

ثم أجابهم خامسا بأنه أرسل رسلا من قبله ، وكانوا بشرا مثله لهم أزواج وذرّيّة ، فلا يمكنهم أن يأتوا بآية إلا بأذنه ، ولكل أجل قدّره لآياته كتاب ، لا تمكن مخالفته ، وكل ما يحصل من محو أو إثبات يأتي على وفق ما فيه ؛ ثم ذكر للنبي (ص) أنه قد يريه بعض ما يعدهم من العذاب وقد يتوفّاه قبله ، فليس هذا من شأنه ، وإنما عليه أن يبلغهم وعليه هو حسابهم ؛ ثم نبههم إلى أن ما يعدهم به قد حصل بعضه ، فذكر ما حصل من انتقاص المسلمين أطراف أرضهم ، وأنه قد حكم بنصر المؤمنين عليهم ، وهو حكم لا معقب له ولا تأخير فيه ؛ ثم ذكر أنه قد مكر من كان قبلهم فلم يفدهم مكرهم ، لأن له المكر جميعا ، يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفّار لمن عقبى الدار : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ (٤٣).

أسرار ترتيب سورة «الرّعد» [1]

أقول : وجه وضعها بعد سورة «يوسف» : أنه سبحانه قال في آخر تلك : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) [يوسف]. فذكر الآيات السمائية والأرضية مجملة ، ثم فصّل في مطلع هذه السورة.

فقوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤) تفصيل الآيات الأرضية.

هذا مع اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب ، ووصفه بالحق ، وافتتاح هذه بمثل ذلك [2] ، وهو من تشابه الأطراف.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب : «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨ ه‍ / ١٩٧٨ م.

(٢). ختام سورة «يوسف» : ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١) وافتتاح «الرعد» : ﴿المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

مكنونات سورة «الرّعد» (١)

١ . ﴿وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللهِ﴾ [الآية ١٣].

نزلت في أربد بن قيس ، وعامر بن الطّفيل. كما أخرجه الطبراني (٢) وغيره.

٢ . ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ (٤٣).

قال عكرمة : هو عبد الله بن سلام. قال سعيد بن جبير : هو جبريل. أخرجهما ابن أبي حاتم.

وقال ابن عباس : هم اليهود والنّصارى. أخرجه ابن جرير (٣) ؛ وأخرج عن قتادة ، قال : كنّا نحدّث أنّ منهم عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وتميما الدّاري (٤).

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» للسّيوطي ، تحقيق إياد خالد الطبّاع ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرخ.

(٢). في «الأوسط» و «الكبير» بنحوه ، وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران ، وهو ضعيف. قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧ / ٤٢.

(٣). ١٣ / ١١٨.

(٤). والأثر في «الطبري» ١٣ / ١١٩.

لغة التنزيل في سورة «الرّعد» (١)

١ ـ قاله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

أقول : أراد تعالى بقوله : ﴿جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أنه سبحانه خلق فيها من أنواع الثّمرات جميعها زوجين حين مدّها ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوّعت.

وقيل : أريد بالزّوجين : الأسود والأبيض ، والحلو والحامض ، والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة.

وأمّا قوله جلّ وعلا : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ فالمراد يلبسه مكانه ، فيصير أسود مظلما بعد ما كان أبيض منيرا. وقرئ : يغشّي ، بالتشديد.

وظاهر الحال أن الفعل «يغشي» ينصب مفعولين ؛ وحقيقة ذلك ، أنه مجاوز الى مفعول واحد ، وأما الثاني فبالخافض ، وعرض له الحذف ، ثم وصل.

٢ ـ وقال تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ [الآية ٦].

والمراد بقوله سبحانه : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ عقوبات أمثالهم من المكذّبين ، فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزءوا.

والمثلة : العقوبة بوزن السّمرة. والمثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل» ، لإبراهيم السامرّائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

أقول : وهذه من موادّ القرآن التي لا نعرفها في عربية معاصرة.

٣ ـ وقال تعالى : ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ (١٠).

والمعنى : سواء عنده من استخفى ، أي : طلب الخفاء في مختبأ بالليل في ظلمته ، ومن يضطرب في الطرقات ظاهرا بالنهار يبصره كلّ أحد.

أقول : وليس لنا في العربية المعاصرة إلا المزيد «سرّب» ، و «تسرّب» ومعناهما شيء آخر ذو خصوصية أخرى ، فيقال مثلا : سرّب خبرا ، وتسرّب الخبر ، وكلّه شي مولّد جديد.

٤ ـ وقال تعالى : ﴿وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ﴾ (١٢).

و(السّحاب) في الآية يفيد الجمع بدلالة الوصف (الثّقال).

ومن المفيد أن نعرض لكلمة «السحاب» في لغة التنزيل ، لنرى تصاقب الجمع والإفراد فيها ، قال تعالى : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة / ١٦٤].

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ﴾ (٤٤) [الطور].

﴿حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [الأعراف / ٥٧].

فالسحاب في الآية الأولى مفرد بدلالة الوصف (المسخّر) ، ومثله في الآية الثانية ؛ وأما الآية الثالثة ففيها شيء آخر ، فقد وصف السحاب بصفة الجمع (الثقال) ، ثم عاد الضمير عليه في (سقناه) فعدّ مفردا.

وحقيقة الأمر أن «السحاب مفرد كسائر أسماء الجمع ، كالنخل والشجر وغيرهما ، ولكن هذه الأسماء ذات معان تؤدّي الجمع. على أن الشيء يكون مفردا مرّة وجمعا أخرى باعتبار لفظه ، وباعتبار معناه ، وهذا من خصائص لغة التنزيل.

٥ ـ وقال تعالى : ﴿وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ﴾ (١٣).

المحال والمماحلة سواء ، وهما مصدر الفعل «ماحل» ، ويعنيان شدة المماكرة والمكايدة.

أقول : مصدر «فاعل» قياسي ، فهو الفعال والمفاعلة ، مثل سابق سباقا ومسابقة ، ولكن قد يشيع بناء من هذين المصدرين ويكاد الآخر ينسى فلا يرد

في نثر المعربين وشعرهم وكلامهم. ألا ترى أنهم يقولون «نفاق» ولا يقولون : منافقة ويقولون : مجاراة ومباراة ولا يقولون : جراء وبراء ، ويقولون مراسلة وملاعنة ، وقلّما تجد رسالا ولعانا. وهذا كله من خصائص هذه اللغة العريقة.

٦ ـ وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً﴾ [الآية ١٧].

قالوا : معنى (جفاء) باطلا.

قال الفرّاء : أصله الهمزة ، والجفاء ، ما نفاه السّيل.

وجفأ الوادي : مسح غثاءه ، وقيل : الجفاء كما يقال الغثاء.

أقول : والجفاء بهذا المعنى من الكلم المفيد الذي حسن استعماله في لغة التنزيل.

٧ ـ وقال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى﴾ [الآية ١٨].

والمراد ب (الحسنى) الجزاء الحسن.

والحسنى ضدّ السّوأى ، وهو مصدر كالنّعمى والبؤسى وغيرهما.

وقد يكون أصل هذا المصدر الصفة ، فهو مؤنّث أحسن ، مثل أعلى وعليا ، وأقصى وقصيا ، ثم حوّله الاستعمال الكثير الى المصدر كتحوّل العافية والعاقبة الى المصدر ، وأصلهما اسم الفاعل.

وهذا كلّه من سعة هذه العربية التي تفنّن بها أهل اللّسن والفصاحة.

٨ ـ وقال تعالى : ﴿وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ﴾ (٢٦).

أقول : والمعنى : وما الحياة الدنيا في جنب نعيم الآخرة إلّا شيء يسير كعجالة الراكب ، وهو ما يتعجّله من تميرات ، أو شربة سويق ، أو نحو ذلك [(١)].

وقوله تعالى : ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ ضرب من الإيجاز الجميل ، والمعنى كما أشرنا من قول الزمخشريّ.

ثم إنّ جعل الحياة الدنيا متاعا ، إشارة الى أن نعيمها زائل ، وأنها لا تدوم ، وأنها تافهة قليلة الغناء كغلّة المتاع الذي يتزوّد به المسافر ، وهو بلغة يتبلّغ بها مدة سفره. وما زال «المتاع» زاد الراكب والمسافر في عصرنا ، وإن أخذ يزول بسبب من تقدّم

---

(١). «الكشاف» ٢ / ٥٢٨.

الحضارة ، وتهيؤ الوسائل المتقدّمة في السفر وما يتصل به.

ومن عجيب ، أن مواد هذه الكلمة تدل على القلة ذلك أن «المتعة» (مثلّثة الميم) هي البلغة ، ويقول الرجل لصاحبه ، أبغني متعة أعيش بها ، أي : ابغ لي شيئا آكله ، او زادا أتزوّد به ، أو قوتا اقتاته.

٩ . وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (٢٩).

قرئت : (طوبى لهم وحسن مآب) برفع (طوبى) ونصبها.

أقول : والنّصب على معنى الدّعاء.

وطوبى : مصدر كالبشرى والنّعمى ونحو ذلك ، وقوله تعالى : ﴿طُوبى لَهُمْ﴾ ، أي : أصبتم خيرا وطيبا على إرادة الدعاء. واستعمال اللام في ﴿لَهُمْ﴾ مؤذن بذلك كقولهم سلاما لك ، كما تقول أيضا سلام لك ، وكله دعاء.

١٠ . وقال تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ (٣٩).

وقوله تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ ، أي : أصل كل كتاب ، وهو اللوح المحفوظ.

أقول : واستعمال (أمّ) وإضافتها للكتاب لتوليد هذا المعنى ، أو قل هذا المصطلح يؤيّده ما درج عليه العرب من النظر الى كلمة (أمّ) ، التي أضافوها الى كلمات لا حصر لها لتوليد مسمّيات كثيرة ، يأخذك العجب إذا ما أردت أن تعرف طرائق إدراكهم للأشياء ، واختيار الكلم لذلك.

وحسبك أن تنظر في كتاب «المرصّع» لمجد الدين ابن الأثير [١] وهو في الآباء والأمهات والأبناء والذوات والذوين ، لتدرك آفاق هذه اللغة البعيدة المرامي.

١١ . وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [الآية ٣١].

قال الزمخشري [٢] في ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً﴾ جوابه محذوف ، كما تقول

(١). انظر : «المرصّع» ، لابن الأثير ، من مطبوعات وزارة الأوقاف في العراق.

(٢). «الكشاف» ٢ / ٥٢٩.

لغلامك : لو أنّي قمت إليك ، وتترك الجواب.

والمعنى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ﴾ عن مقارّها ، وزعزعت عن مضاجعها ، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ حتّى تتصدّع وتتزايل قطعا ، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾ فتسمع وتجيب ، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف ؛ كما قال تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر / ٢١].

أقول : وهذا الأسلوب من حذف الجواب يخدم الغرض البلاغي ، وهو أن يدع السامع يتفكّر في عظم ما يريد الله سبحانه أن يفعله.

أما قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالمراد بها : أفلم يعلم.

قيل : هي لغة قوم من النّخع. وقيل : إنّما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمّنه معناه ، لأنّ اليائس عن الشيء عالم بأنّه لا يكون ، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف ، والنسيان في معنى الترك لتضمّن ذلك ، قال سحيم بن وثيل الرياحي :

أقول لهم بالشّعب إذ ييسرونني ... ألم تيأسوا أنّي ابن فارس زهدم

ويدل عليه أنّ عليّا وابن عبّاس وجماعة من الصحابة والتابعين قرءوا : أفلم يتبيّن ، وهو تفسير ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾.

١٢ ـ وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٤١)﴾.

وقوله تعالى : ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ، أي : لا رادّ لحكمه ، والمعقّب الذي يكرّ على الشيء فيبطله ، وحقيقته : الذي يعقبه أي : يقفّيه بالردّ والإبطال. ومنه قيل لصاحب الحقّ : معقّب لأنه يقفّي غريمه بالاقتضاء والطلب ، قال لبيد :

حتى تهجّر في الرّواح وهاجها ... طلب المعقّب حقّه المظلوم

والمعنى أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس.

أقول : وهذه كلمة فنيّة هي من أوائل ما عرف من المصطلح القضائي.

المعاني اللغوية في سورة «الرّعد» (١)

قال تعالى : ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ [الآية ٢] يعني كلّه كما تقول «كلّ منطلق» أي : كلّهم.

وقال تعالى : ﴿رَواسِيَ﴾ [الآية ٣] فواحدتها «راسية».

وقال تعالى : ﴿أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الآية ٥]. وفي موضع آخر : ﴿أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ (٦٧) [النمل] فالآخر هو الذي وقع عليه الاستفهام والأول حرف ، كما تقول «أيوم الجمعة زيد منطلق». ومن أوقع استفهاما آخر جعل قوله تعالى : ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً﴾ [المؤمنون / ٨٢ ، والصافّات / ١٦ و ٥٣ ، وق / ٣ ، والواقعة / ٤٧] ظرفا لشيء مذكور قبله ، ثم جعل هذا الذي استفهم عنه استفهاما آخر ، وهذا بعيد. وإن شئت لم تجعل في (أإذا) استفهاما وجعلت الاستفهام في اللفظ على (أإنّا) ، كأنك قلت «يوم الجمعة أعبد الله منطلق» وأضمرت فيه. فهذا موضع قد ابتدأت فيه (إذا) وليس بكثير في الكلام. ولو قلت «اليوم إنّ عبد الله منطلق» لم يحسن وهو جائز. وقد قالت العرب «ما علمت إنّه لصالح» يريد : إنّه لصالح ما علمت.

وقال تعالى : ﴿مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ (١٠) فقوله سبحانه : ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ أي : ظاهر. و(السارب) : المتواري.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش ، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد ، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب ، بيروت ، غير مؤرّخ.

وأمّا (المعقّبات) في قوله تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الآية ١١] فإنما أنّثت لكثرة ذلك منها نحو «النّسابة» و «العلّامة» ، ثم ذكّر السياق لأن المعنى مذكّر ، فقال تعالى : ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ (١) [الآية ١١].

وقال تعالى : ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ (١٥) و ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾ (٤١) [آل عمران، وغافر / ٥٥] (٢) بجعل ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ يدل على الغداة وإنما «الغدوّ» فعل. وكذلك (الإبكار) إنما هو من «أبكر» «إبكارا». والذين قالوا (الأبكار) (٣) احتجّوا بأنهم جمعوا «بكرا» على «أبكار». و «بكر» لا تجمع لأنه اسم ليس بمتمكّن ، وهو أيضا مصدر مثل «الإبكار» ؛ فأما الذين جمعوا فقالوا إنما جمعنا «بكرة» و «غدوة». ومثل «البكرة» و «الغدوة» لا يجمع هكذا. لا تجيء «فعلة» و «أفعال» وانما تجيء «فعلة» و «فعل».

وقال تعالى : ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ﴾ [الآية ١٦] فهذه (أم) التي تكون منقطعة من أول الكلام.

وقال تعالى : ﴿فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾ [الآية ١٧] تقول : «أعطني قدر شبر» وقدر شبر» وتقول : «قدرت» و «أنا أقدر» «قدرا» فأما المثل ففيه «القدر» و «القدر».

وقال تعالى : ﴿أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ [الآية ١٧] أي : «ومن ذلك الذي يوقدون عليه زبد مثل هذا».

وقال تعالى : ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ﴾ (٢٣) ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية ٢٤] أي : يقولون «سلام عليكم».

وقال سبحانه : ﴿طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (٢٩) ف ﴿طُوبى﴾ في موضع رفع يدلّك على ذلك رفع ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ وهو يجري مجرى «ويل لزيد» لأنك قد تضيفهما بغير لام تقول «طوباك» ، ولو لم تضفها لجرت مجرى «تعسا لزيد». وإن قلت : «لك طوبى» لم

(١). نقله في التهذيب ١ / ٢٧٣ عقب ، وزاد المسير ٤ / ٤١٢.

(٢). في البحر ٢ / ٣٥٣ قراءة كسر الهمزة الى الجمهور.

(٣). في الشواذ ٢٠ الى بعضهم.

يحسن ، كما لا تقول : «لك ويل».

وقال تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ﴾ [الآية ٣٣] فهذا في المعنى «أفمن هو قائم على كلّ نفس مثل شركائهم» ، وحذف ، فصار ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ﴾ يدلّ عليه.

لكل سؤال جواب في سورة «الرّعد» [1]

إن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ (١٠) ولم يقل ومن هو سارب بالنهار ، ليتناول معنى الاستواء المستخفي والسّارب ، وإلّا فقد تناول واحدا هو مستخف وسارب : أي ظاهر ، وليتناسب لفظ الجملة الأولى والثانية ، فإنه قال في الجملة الأولى ﴿مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الآية ١٠].

قلنا : قوله تعالى : ﴿وَسارِبٌ﴾ معطوف على ﴿وَمَنْ﴾ لا على مستخف ، فيتناول معنى الاستواء اثنين. الثاني : أنه وإن كان معطوفا على مستخف ، إلا أن (من) هنا في معنى التثنية كقوله :

نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

فكأن المعنى : سواء منكم اثنان :

مستخف بالليل ، وسارب بالنهار.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ (١٤) أي في ضياع وبطلان ، والكفّار يدعون الله تعالى في وقت الشدائد والأهوال ، ومشارفتهم الغرق في البحر ، فيستجيب لهم؟

قلنا : المراد : وما عبادة الكافرين الأصنام إلّا في ضلال ، ويعضده قوله تعالى قبله في الآية نفسها : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي يعبدون.

فإن قيل : كيف طابق قولهم كما ورد في التنزيل ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس / ٢٠] قوله سبحانه : ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾ (٢٧).

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

قلنا : هو كلام جرى مجرى التعجّب من قولهم ، لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول الله (ص) لم يؤتها نبيّ قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ؛ فإذا جحدوا آياته ولم يعتدّوا بها ، وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعا يتعجّب منه ؛ فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشدّ تصميمكم على كفركم.

فإن قيل : كيف المطابقة بين قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ [الآية ٣٣] وقوله سبحانه بعد ذلك في الآية نفسها : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ﴾.

قلنا : فيه محذوف تقديره : أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة ، يعلم ما كسبت من خير وشر ، ويعدّ لكل جزاء ، كمن ليس كذلك وهو الصنم؟ ثم ابتدأ السياق بقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ﴾ أو تقديره : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحّدوه وجعلوا له شركاء ، أو التقدير : أفمن كان بهذه الصفة يغفل عن أهل مكّة وأقوالهم وأفعالهم ، وجعلوا لله شركاء. فإن قيل : كيف اتصل قوله تعالى في الآية نفسها : ﴿قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ بما قبله ، وهو قوله تعالى ﴿وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الآية ٣٦].

قلنا : هو جواب للمنكرين ، معناه : قل إنما أمرت فيما أنزل اليّ بأن أعبد الله ولا أشرك به. فإنكارهم لبعضه إنكار لعبادة الله تعالى وتوحيده ، كذا أجاب به الزمخشري ، وفيه نظر.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أثبت لهم مكرا ، ثم نفاه عنهم ، بقوله تعالى في الآية نفسها : ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ [الآية ٤٢]؟

قلنا : معناه أن مكر الماكرين مخلوق له ، ولا يصير إلا بإرادته ؛ فبهذه الجهة ، صحت إضافة مكرهم إليه سبحانه. الثاني : أنه جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة الى مكره ، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون ، فيعكس مكرهم عليهم ، فإثباته لهم باعتبار الكسب ، ونفيه عنهم باعتبار الخلق.

المعاني المجازية في سورة «الرّعد» [(١)]

قوله تعالى : ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الآية ٥]. و(جديد) استعارة. لأن أصله هاهنا مأخوذ من الجدّ ، وهو القطع. يقال : قد جدّ الثوب ، فهو جديد بمعنى مجدود. إذا قطع من منسجه ، أو قطع لاستعمال لابسه. والمراد ، والله أعلم ، إنّا لفي خلق جديد ، أي قد فرغ من استئنافه ، وأعيد الى موضع ثوابه وعقابه ، فصار كالثوب الذي قطع [(٢)] منسجه بعد الفراغ من عمله.

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ [الآية ٦]. وهذه استعارة. والمراد بها مضيّ المثلاث ، وهي «العقوبات» للأمم السالفة من قبلهم ، وتقدّمها أمامها. وقولهم : خلت الدار. أي مضى سكانها عنها. وخلوا هم. أي مضوا عن الدار وتركوها. وقولهم : القرون الخالية ، أي الماضية.

والعقوبات على الحقيقة لم تمض [(٣)] ، وإنما مضى المعاقبون بها. فكأنهم ذكّروا بالعقوبات الواقعة قبلهم ، ليعتبروا بها.

وقوله سبحانه : ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب : «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي ، تحقيق محمد عبد الغني حسن ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

(٢). هكذا بالأصل ولعلّها. قطع من منسجه.

(٣). في الأصل : لم يمض وهو تحريف من الناسخ. والعقوبات هي المثلات التي قال الله فيها إنها قد خلت من قبلهم.

﴿كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ﴾ [الآية ٨]. وهذه استعارة عجيبة. لأن حقيقة الغيض إنما يوصف بها الماء دون غيره. يقال : غاض الماء وغضته [١] ، ولكن النطفة لما كانت تسمّى ماء ، جاز أن توصف الأرحام بأنها تغيضها في قرارها ، وتشتمل على نفاعاتها [٢]. فيكون ما غاضته من ذلك الماء سببا لزيادة ، بأن يصير مضغة ، ثم علقة ثم خلقة مصوّرة. فذلك معنى قوله تعالى : ﴿وَما تَزْدادُ﴾. وقيل أيضا : معنى ﴿وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ﴾. أي ما تنقص بإسقاط العلق ، وإخراج الخلق. ومعنى : ﴿وَما تَزْدادُ﴾ أي ما تلده لتمام ، وتؤدي خلقه على كمال. فيكون الغيض هاهنا عبارة عن النقصان ، والازدياد عبارة عن التمام.

وقوله سبحانه : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الآية ١٣]. وهذه استعارة. لأن التسبيح في الأصل تنزيه الله سبحانه عن شبه المخلوقات ، وتبرئته من مدانس الأعمال ، وقبائح الأفعال. وهذا لا يتأتّى من الرعد ، الذي هو إصكاك أجرام السحاب بعضها ببعض. فالمراد ، والله أعلم ، أنّ أصوات الرعود تقوى بها الدلالة على عظيم قدرة الله سبحانه ، وبعده عن شبه الخليقة المقدّرة ، وصفات البرية المدبّرة. إذ كان الرعد كما قلنا إنما تغلظ أصواته ، وتعظم هزّاته على حسب تعاظم صفحات السحاب الممتدّة ، وتراكم الغيوم المطبقة. وهي مع هذه الأحوال ، من ثقل أجرامها ، وتكاثف غمامها معلّقة بمناطات الهواء الرقيق ، لولا دعائم القدرة وسماكها ، وعلائق الجبريّة ومساكها ، لما حمل عشر معشارها ، ولا استقل ببعض أجزائها.

ومن عجيب أحواله أنه أيضا مع ما ذكرنا من تثاقل أردافه ، وتعاظل [٣] التفافه ينفشّ [٤] انفشاش الهباء

---

(١). غاض الماء : نقص. وغضته أنا أي نقصته.

(٢). النفاعات : جمع نفاعة وهو الشيء الذي ينتفع به.

(٣). التعاظل : هو تكاثر الشيء وركوب بعضه فوق بعض. ومنه المعاظلة في الكلام أي تعقيده وموالاة بعضه فوق بعض.

(٤). انفشّ : أي سكن ولان بعد شدة.

المتداعي ، والغثاء المتلاشي. إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

ومعنى تسبيح الرعد بحمده سبحانه : دلالته على أفعاله التي يستحق بها الحمد ، كما يقول القائل : هذه الدار تنطق بفناء أهلها. أي تدل على ذلك بخلاء ربوعها ، وتهدّم عروشها.

وقد يجوز أن يكون معنى : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ أن الرعد يضطر الناس الى تسبيح الله سبحانه عند سماعه ، فحسن وصفه بالتسبيح لأجل ذلك ، إذ كان هو السبب فيه. وهذا معروف في كلامهم.

وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ (١٥). وهذه استعارة. لأن أصل السجود في اللغة الخضوع والتذلّل. إمّا باللسان الناطق عن الجملة أو بآثار الصنعة وعجائب الخلقة. ثم نقل فصار اسما لهذا العمل المخصوص الذي هو من أركان الصلاة ، لأنه يدل على تذلّل الساجد لخالقه ، بتطامن شخصه ، وانحناء ظهره. وقد ذكر في بعض الأخبار أن جدنا جعفر [1] بن محمد عليهما‌السلام سئل عن العلّة فيما كلف الله سبحانه من أعمال الصلاة وسائر العبادات ، فقال : أراد الله سبحانه بذلك إذلال الجبّارين. فإذا تمهّد ما ذكرنا ، كان في ذكر «الضلال» فائدة حسنة ، وهو أن الظل الذي هو في سجود الشخص وهو غير قائم بنفسه ، إذا ظهرت فيه أعلام الخضوع للخالق تعالى ، بما فيه من دلائل الحكمة وعجائب الصنعة ، كان ذلك أعجب من ظهور هذه الحال في البنية القائمة بنفسها ، والمعروفة بشخصها.

وقوله سبحانه : ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ﴾ (١٧). وهذه استعارة. والمراد بضرب الأمثال ، والله أعلم ، معنيان : أحدهما أن يكون تعالى أراد

---

(١). جعفر بن محمد ، هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم. وهو سادس الأئمة الاثني عشر. وكان واسع العلم ، أخذ عنه أبو حنيفة ومالك وجابر بن حيّان. ولقب بالصادق لأنه لم يعهد عليه كذب قطّ. توفي سنة ١٤٨ ه‍ بالمدينة.

بضربها تسييرها في البلاد ، وإدارتها على ألسنة الناس. من قولهم : ضرب فلان في الأرض. إذا توغّل فيها وأبعد في أقاصيها. ويقوم قوله تعالى : ﴿يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ﴾ (١٧) مقام قوله ضرب بها في البلاد.

والمعنى الآخر في ضرب المثل ، أن يكون المراد به نصبه للنّاس بالشهرة ، لتستدل عليه خواطرهم ، كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم. وذلك مأخوذ من قولهم : ضربت الخباء ؛ إذا نصبته ، وأثبت طنبه [١] ، وأقمت عمده ، ويكون قوله سبحانه : ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ﴾ [الآية ١٧]. الى هذا الوجه. أي ينصب منارهما ، ويوضح أعلامهما ، ليعرف المكلّفون الحق بعلاماته فيقصدوه ، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه.

وقوله سبحانه : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ [الآية ٣٣] وهذه استعارة. والمراد به أنه تعالى محص على كل نفس ما كسبت ، ليجازيها به. وشاهد ذلك قوله سبحانه : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً﴾ [آل عمران / ٧٥]. أي ما دمت له مطالبا ، ولأمره مراعيا ، لا تمهله للحيلة ، ولا تنظره للغيلة [٢].

وإذا لم يصح إطلاق صفة القيام على الله سبحانه حقيقة ، فإن المراد بها قيام إحصائه على كل نفس بما كسبت ، ليطالبها به ، ويجازيها عنه بحسبه. والقيام والدوام هاهنا بمعنى واحد. والماء الدائم هو القائم الذي لا يجري.

وقوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾ [الآية ٤١]. وهذه استعارة. وقد اختلف الناس في المراد بها ، فقال قوم : معنى ذلك نقصان أرض المشركين ، بفتحها على المسلمين. وقال آخرون : المراد بنقصانها موت أهلها ، وقيل موت علمائها.

وعندي في ذلك قول آخر ، وهو أن يكون المراد بنقص الأرض ، والله

---

(١). الطّنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت. والجمع أطناب.

(٢). الغيلة بكسر الغين : الخديعة والاحتيال.

أعلم ، موت كرامها. وتكون الأطراف هاهنا جمع طرف. لا جمع طرف ، والطّرف هو الشيء الكريم. ومنه سمّي الفرس طرفا ، إذ كان كريما. وعلى ذلك قول أبي الهندي [1] الرياحي :

شـــربنا شـــربة مـــن ذات عـــرق   بأطـــراف الزجـــاج مـــن العصـــير

أي بكرائم الزجاج. ولم يمض في هذا القول لأحد.

---

(١). في الأصل : أبو الهند وهو تحريف من الناسخ. واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس ، وهو من بني زيد بن رياح. وقد ترجم له ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» ص ٦٦٣ من طبعة عيسى الحلبي ، بتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر ، وذكر صاحب «العقد الفريد» خبرا له ، وطرفا من أقواله ونوادر شرابه. جزء ٦ ص ٣٤٢.

سورة ابراهيم

١٤

أهداف سورة «إبراهيم» [1]

سورة إبراهيم سورة مكّيّة. موضوعها الأساسي هو موضوع السور المكّيّة الغالب ، وهو العقيدة في أصولها الكبيرة. وتشمل الرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء.

ولكن السياق في هذه السورة يسلك نهجا خاصا في عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصلية ، نهجا مفردا يميزها عن غيرها من السور ، يميزها بجوها ، وطريقة أدائها ، والحقائق الكبرى التي تتضمنها ، ولون هذه الحقائق التي قد لا تفترق موضوعيا عن مثيلاتها في السور الأخرى ، ولكنها تعرض من زاوية خاصة. كما تختلف مساحتها في رقعة السورة وجوّها ، فتزيد أطرافا وتنقص أطرافا. فيحسبها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد ، وذلك من الإعجاز القرآني في طريقة الأداء.

ويبدو أنه كان لأسلوب السورة من اسمها نصيب .. إبراهيم : أبو الأنبياء ، المبارك ، الشاكر ، الأوّاب ، المنيب. وكل الظلال التي تخلعها هذه الصفات ملحوظة في جوّ السورة وفي الحقائق التي تبرزها ، وفي طريقة الأداء ، وفي التعبير والإيقاع.

ولقد تضمّنت السورة حقائق رئيسية عدّة في العقيدة ، ولكن حقيقتين كبيرتين تظهران أكبر من غيرهما في سورة إبراهيم :

الحقيقة الأولى : وحدة الرسالة

---

(١). انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها» ، لعبد الله محمود شحاته ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

والرسل ووحدة دعوتهم. ووقفتهم أمّة واحدة في مواجهة الفرقة المكذّبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمنة.

والحقيقة الثانية : بيان نعمة الله على البشر وزيادة النعمة بالشكر ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران.

تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وبيان هدف القرآن. وهذه الوظيفة هي هداية الناس ، وإبطال عادات الجاهلية وقيمها. وإرساء معالم التوحيد والعدالة والمساواة. قال تعالى :

﴿الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١).

وتختم السورة بهذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التي تتضمنها الرسالة ، حقيقة التوحيد في قوله تعالى :

﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (٥٢).

وفي أثناء السورة نجد أن موسى (ع) قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد (ص) وللهدف نفسه ، وهو إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الآية ٥].

وتذكر السورة أن وظيفة الرسل عامة ، هي بيان الحق وتوضيح طريق الهداية إلى الله ، قال تعالى :

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [الآية ٤].

وتبين السورة أن الرسول بشر يوحى إليه ، وأن بشريته هي التي تحدد وظيفته ، فهو مبلّغ ومنذر وناصح ومبيّن ولكنه لا يملك أن يأتي بخارقة أو معجزة إلّا بإذن الله ، وحين يشاء الله ، لا حين يشاء هو أو قومه ؛ ولا يملك الرسول أن يهدي قومه أو يضلّهم : فالهدى والضلال متعلّقان بسنّة الله التي اقتضتها مشيئته المطلقة. ولقد كانت بشرية الرسل موضع الاعتراض من الأقوام جميعهم في جاهليتهم. والسورة هنا تحكي قولهم مجتمعين :

﴿قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠).

وتحكي ردّ رسلهم كذلك مجتمعين :

﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ

مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١).

ويتضمن السياق كذلك ، أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنّما يكون ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾.

وكلّ رسول يبين لقومه ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤).

وبهذا أو ذاك تتحدّد حقيقة الرسول ، فتتحدّد وظيفته في نطاق هذه الحقيقة ولا تشتبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم ، بشيء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها. وكذلك يتجرّد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة ، كذلك تتضمن السورة تحقّق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقّا ، ويتحقق ذلك الوعد في الدنيا بالنصر والاستخلاف ، وفي الآخرة بعذاب المكذّبين ونعيم المؤمنين.

ويصوّر السياق هذه الحقيقة الكبيرة في نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين.

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (١٥).

وحدة الرسالات السماوية

في سورة إبراهيم

الظاهرة البارزة في سورة إبراهيم أنها تتحدث عن الرسل جميعا كأنهم أصحاب فكرة واحدة وهدف واحد ، وكأن جواب قومهم كان جوابا موحّدا ، في العصور والأحوال جميعها.

وتعرض السورة هذه الفكرة بطريقة فريدة في الأداء. لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية في صورة توحيد الدعوة التي يجيء بها كل رسول ، فيقول كلمته لقومه ويمضي ثم يجيء رسول ورسول. كلهم يقولون الكلمة ذاتها ، ويلقون الرد ذاته ويصيب المكذّبين ما يصيبهم في الدنيا ، وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل في الأرض أو إلى أجل في يوم الحساب. ولكن السياق هناك ، كان يعرض كل رسول في مشهد ، كالشريط المتحرك منذ

الرسالات الأولى ، وأقرب مثل لهذا النسق سورة هود ، فأما سورة إبراهيم ـ أبي الأنبياء ـ فتجمع الأنبياء كلهم في صف ، وتجمع المكذّبين كلهم في صف ، وتجري المعركة بينهم في الأرض ، ثم لا تنتهي هنا ، بل تتابع خطوتها كذلك في يوم الحساب.

ونبصر مشهد أمّة الرسل ، وفرقة المكذبين في صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان. فالزمان والمكان عرضان زائلان ، أمّا الحقيقة الكبرى في هذا الكون ـ حقيقة الإيمان والكفر ـ فهي أضخم وأبرز من عرضي الزمان والمكان.

قال تعالى :

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٠) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١).

فهاهنا تتجمّع الأجيال من لدن نوح (ع) ، وتتجمع الرسل ويتلاشى الزمان والمكان وتبرز الحقيقة الكبرى : حقيقة الرسالة وهي واحدة واعتراضات المكذّبين وهي واحدة ، وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهي واحدة ، وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهي واحدة ، وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبّرين وهي واحدة ، وحقيقة العذاب الذي ينتظرهم هناك وهي واحدة.

* * *

ولا تنتهي المعركة بين الكفر والإيمان هنا ، بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة الآخرة فتبرز معالمها في مشاهد القيامة المتنوّعة التي تتضمنها السورة وهي تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة ولا انفصال بينهما ، ولكن تكمل إحداهما الأخرى.

وتكمل الأمثال التي تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة إبراز معالم المعركة

بين الفريقين ، ونتائجها الأخيرة ، مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة : شجرة النبوّة وشجرة الإيمان ، وشجرة التوحيد والخير ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة : شجرة الباطل والتكذيب والشر والطغيان. فالتوحيد وكلمته : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. أصله ثابت موصول بالله وفرعه مرتفع إلى السماء ويؤتي ثماره كل حين بالصلاة والزكاة وسائر العبادات والأعمال النافعة في الدنيا والآخرة. أما شجرة الكفر فلا أصل لها تعتمد عليه ، فهي تمثّل الباطل في الدنيا ، والخيبة في الآخرة.

قال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ (٢٧).

المقطع الثاني

من سورة إبراهيم

تنقسم سورة إبراهيم الى مقطعين متماسكي الحلقات :

المقطع الأول : يتضمّن بيان حقيقة الرسل ، ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين في الدنيا والآخرة ، ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، وقد تحدثنا عن هذا المقطع.

والمقطع الثاني : من سورة إبراهيم يتحدث عن نعم الله على البشر ، والذين كفروا بهذه النعم وبطروا ، والذين آمنوا بها وشكروا ، ونموذجهم الأول هو ابراهيم (ع) ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله ، في سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها ، وأحفلها بالحركة والحياة.

نعم الله

لقد عدّد الله سبحانه نعمه على البشر كافة ، مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، برّهم وفاجرهم ، طائعهم وعاصيهم ؛ وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل ، أن يتيح للكافر

والفاجر والعاصي نعمة في هذه الأرض كالمؤمن والبار والطائع ، لعلّهم يشكرون : ويعرض هذه النعم في أضخم مجالي الكون وأبرزها ، ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة :

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (٣٣) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤).

وفي إرسال بعث الرسل نعمة تعدل تلك أو تربو عليها :

﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الآية ١].

والنور أجلى نعم الله في الوجود ، والنور هنا هو النور الأكبر ، النور الذي يشرق به كيان الإنسان ، ويشرق به الوجود في قلبه وحسه. وكذلك كانت وظيفة موسى (ع) في قومه ، ووظيفة الرسل كما بينتها السورة. وفي قول الرسل مجتمعين :

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية ١٠].

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور ، وهي منه قريب :

وفي هذا الجو يذكر وعد الله للرسل.

﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

وهي نعمة. ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧).

مع بيان أن الله غني عن الشكر وعن الشاكرين :

﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٨).

ويقرر السياق ، أن الإنسان في عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤).

ولكن الذين يتدبّرون آيات الله ،

وتتفتح لها بصائرهم ، يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥).

ويتمثل الصبر والشكر في شخص إبراهيم (ع) حين يقف خاشعا ، ويدعو ربه عند البيت الحرام ، دعاء مخلصا ، كله حمد وشكر ، وصبر وإيمان :

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ﴾ (٤١).

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها ، تطبع جو السورة ؛ فإن التعبيرات والتعليقات تجيء فيها متناسقة مع هذا الجو ، في قوله تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥).

وقوله سبحانه :

﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية ٦].

وفي ردّ الأنبياء على اعتراض المكذّبين بأنهم بشر ، يجيء قوله سبحانه :

﴿وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ [الآية ١١].

فيبرز منة الله ، تنسيقا للرد مع جوّ السورة كله ، جو النعمة والمنّة والشكر والكفران ؛ وهكذا يتساوق التعبير اللفظي مع الفكرة العامة للسورة ، على طريقة التناسق الفني في القرآن.

* * *

ترابط الآيات في سورة «إبراهيم» [١]

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة إبراهيم بعد سورة نوح ، وهي من السور التي نزلت بمكّة بعد الإسراء ، فيكون نزولها مثلها بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وعلى هذا تكون من السور المكّيّة. وقيل إنها من السور المدنيّة ، وقد قال الإمام فخر الدين الرازي : اعلم أن الكلام في أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد ، ومتى لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء. إنما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ ، فيكون فيه فائدة عظيمة.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة إبراهيم (ع) بمكة فيها ، وتبلغ آياتها اثنتين وخمسين آية.

الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة بيان الغرض من نزول القرآن ، وهو هداية الناس بالترغيب في الثواب والترهيب من العقاب. وقد افتتحت هذه السورة ببيان هذا الغرض ، ثم انتقل من هذا إلى بيان موافقة القرآن للكتب المنزلة قبله في هذا الغرض ، ثم انتقل من هذا إلى تحذير مشركي مكة من تكذيبه بما حصل للمكذّبين قبلهم ؛ وبهذا ينقسم سياق هذه السورة إلى هذه الأقسام الثلاثة.

وقد جعلت بعد سورة الرّعد لأنها

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن» ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

تشبهها في غرضها ، وفي افتتاحها بالحروف التي افتتحت بها.

نزول القرآن للترغيب في

الإيمان والتحذير من الكفر

الآيات [١ . ٣]

قال الله تعالى : ﴿الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١) ، فأقسم ، بهذه الحروف ، على أنه كتاب أنزله إليه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهذا هو طريق الترغيب. ثم حذر الذين يكفرون به من عذاب شديد. وهذا هو طريق الترهيب ؛ ثم ذكر سبحانه أن الذين يكفرون به هم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ (٣).

اتحاد الغرض من الكتب المنزلة

الآيات [٤ . ١٨]

ثم قال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤) فذكر أنّ إنزال القرآن لأجل هداية الناس هو شأن الكتب المنزلة قبله ، وفصّل هذا الإجمال بما كان من إرسال موسى (ع) إلى بني إسرائيل لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، فذكّرهم بأيام العذاب التي مرت على الأمم قبلهم ، وبنعمة الله عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون ، وأخبرهم بأنهم إن شكروا الله زادهم من نعمته ، وإن كفروا به عاقبهم بشديد عذابه ، وبأنهم إن يكفروا هم ومن في الأرض جميعا ، ﴿فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٨).

ثم ذكر جلّ وعلا ، أن هذا كان أيضا شأن قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ، وأن رسلهم جاءتهم بالبينات فكفروا بهم ، وشكّوا فيما يدعونهم إليه من الإيمان بالله وحده ، وأن رسلهم ردّوا عليهم بأنه لا يصحّ الشكّ في الله سبحانه ، وهو فاطر السماوات والأرض ، إلى غير ذلك من الجدال الذي دار بينهم ؛ ثم ذكر أنهم لجئوا ، بعد هذا الجدال ، الى تهديد رسلهم بأن يخرجوهم من أرضهم أو يعودوا في ملّتهم ، وأنه أوحى إلى رسلهم ، أنه سيهلكهم ويسكنهم الأرض من بعدهم ، ثم ذكر ما عاقبهم به في الدنيا

والآخرة ، وضرب مثلا لحبوط أعمالهم في الآخرة ، فقال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨).

ترهيب المشركين وترغيبهم

الآيات [١٩ . ٥٢]

ثم قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) فذكر في ترهيبهم أنه خلق السماوات والأرض بالحق ، فهو قادر على أن يهلكهم كما أهلك أولئك الأقوام ويأتي بخلق غيرهم يؤمنون به ، ثم ذكر ما يكون من إعادتهم بعد هلاكهم وبروزهم له ، وما يكون من سؤال الضعفاء للمستكبرين أن يغنوا عنهم شيئا من عذابه ، وما يجيب المستكبرون من أنه لا مفرّ منه جزعوا أو صبروا ، وما يكون من تبرّؤ الشيطان منهم وإيقاعه اللوم عليهم لسماعهم لإغوائه وإعراضهم عن نصح الله لهم ، ثم ذكر ما أعده للمؤمنين من جنات تجري من تحتها الأنهار ، على سنّته في ذكر وعده بعد وعيده.

ثم ضرب ، في ترغيبهم وترهيبهم ، مثلا لحال المؤمنين وحالهم ، فشبّه الإيمان به جلّ شأنه ، بشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وثمرها دائم لا ينقطع. وشبّه الكفر به بشجرة خبيثة ليس لها أصل ولا عرق ولا ثمر ؛ ورتّب على ذلك أن صاحب الحال الثابت ، يثبّته الله في الدنيا وفي الآخرة ، وصاحب الحال الذي لا ثبات له يضلّه الله فلا يهتدي.

ثم ذكر تبديلهم نعمته عليهم بسكنى حرمه كفرا به ، وجعلهم له أندادا ليضلّوا عن سبيله ؛ وأمرهم أمر تهديد أن يتمتّعوا بنعيم الدنيا فإن مصيرهم إلى النار ، وأمر المؤمنين أن يخالفوهم في ذلك فيقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم من قبل أن يأتيهم يوم لا ينفعهم فيه إلّا ما قدمت أيديهم ؛ ثم ذكر من نعمه العامة عليهم وعلى غيرهم بعد تلك النعمة الخاصة ، أن خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم ، إلى غير هذا من نعمه التي لا تحصى ولا تعدّ ، ولا

يصحّ أن يقابلوها باتخاذ أنداد له ، سبحانه.

ثم عاد السياق إلى ذكر تلك النعمة الخاصة فشرحها وبيّن كيف بدّلوا فيها ؛ فذكر أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكّة بلدا آمنا ، وأن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام ، وأنه شكا لربه أنه أسكن ذريته من ابنه إسماعيل بواد غير ذي زرع عند بيته المحرّم ليعبدوه فيه ، وأنه سأله أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم بالحجّ وغيره ، إلى غير هذا ممّا حكاه عنه.

ثم عاد السياق إلى ترهيبهم ، فذكر أنه سبحانه ، ليس بغافل عمّا يفعلون ، وأنه يؤخّر عذابهم ليوم تشخص فيه أبصارهم من شدته ، وأنه إذا أتاهم يسألونه أن يؤخّرهم إلى أجل قريب ليجيبوا دعوته ويتّبعوا رسله ، وأنه يجيبهم بتذكيرهم بأنهم كانوا يقسمون من قبل : ما لهم من زوال إلى حياة أخرى ؛ وبأنهم سكنوا في مساكن الذين كذّبوا قبلهم ، وتبيّن لهم ما فعل بهم ، فلم يعتبروا بما حصل لهم. ثم ذكر أنهم قد مكروا مكر أولئك الذين سكنوا في مساكنهم ، وأنه ليس بغافل عن مكرهم ؛ ونهى النبي (ص) أن يظن أنه مخلف وعده بعذابهم ؛ ثم ذكر أنه سيأتي يوم تبدّل فيه الأرض غير الأرض ، ويبرزون إليه مقرّنين في الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ؛ وأنه سبحانه يعيدهم في ذلك اليوم ليجزي كل نفس ما كسبت ، إنه سريع الحساب ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (٥٢).

أسرار ترتيب سورة «إبراهيم» (١)

أقول : وجه وضعها بعد سورة الرّعد ، أن قوله تعالى في مطلعها : ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ﴾ [الآية ١] مناسب لقوله : في مقطع تلك : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ (٤٣) [الرعد]. على أن المراد ب (من) هو : الله تعالى جل جلاله.

وأيضا ففي الرعد : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [الرعد / ٣٢]. وذلك مجمل في أربعة مواضع : الرسل ، والمستهزئين ، وصفة الاستهزاء ، والأخذ. وقد فصّلت الأربعة في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ﴾ [الآية ٩] إلى قوله : ﴿مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ﴾ (١٦).

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب : «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨ ه‍ / ١٩٧٨ م.

مكنونات سورة «إبراهيم» (١)

١ . ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [الآية ٢٤].

هي النّخلة (٢).

٢ . ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [الآية ٢٦].

هي الحنظلة (٣).

وقيل : الثوم. حكاه ابن عسكر.

٣ . ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾ [الآية ٢٨]. قال عليّ بن أبي طالب : هم كفّار قريش. أخرجه النّسائي (٤). وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار قال : هم قريش ؛ ومحمد النعمة.

٤ . ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [الآية ٣٧].

هو إسماعيل.

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» للسّيوطي ، تحقيق إياد خالد الطبّاع ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرخ.

(٢). روى البخاري [٦٢] في العلم و(٤٦٩٨) في التفسير ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : «كنّا عند رسول الله (ص) فقال : أخبروني بشجرة تشبه ، أو كالرجل المسلم لا يتحاتّ ورقها ولا تؤتي أكلها كل حين؟ قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلّمان ، فكرهت أن أتكلّم. فلمّا لم يقولوا شيئا ، قال رسول الله (ص) : هي النخلة. فلمّا قمنا قلت لعمر : يا أبتاه ، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. فقال : ما منعك أن تتكلّم؟ قال لم أركم تتكلمون ، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا. قال عمر : لأن تكون قلتها أحبّ إلي من كذا وكذا».

(٣). أخرج الحاكم من حديث أنس : «الشجرة الطيبة النخلة ، والشجرة الخبيثة الحنظلة». انظر «فتح الباري» ٨ / ٣٧٨ و «المستدرك» للحاكم ٢ / ٣٥٢.

(٤). والحاكم : وقال : صحيح عال ٢ / ٣٥٢ ؛ وانظر «الدر المنثور» ٤ / ٨٥ ، و «مجمع الزوائد» ٧ / ٤٤. وفي البخاري (٤٧٠٠) عن ابن عباس : أنهم كفار أهل مكّة.

٥ ـ ﴿بِوادٍ﴾ [الآية ٣٧].

هو مكّة [١].

٦ ـ ﴿وَلِوالِدَيَ﴾ [الآية ٤١].

تقدّم اسم أبيه في سورة الأنعام [٢].

وأخرج ابن أبي حاتم ، من طريق عكرمة ، عن ابن عباس قال : أبو إبراهيم : آزر ؛ وأمّه اسمها : مشاني ؛ وامرأته اسمها : سارة ، وأمّ إسماعيل اسمها : هاجر ؛ وقيل : اسم أمّه نوفا ، وقيل : ليوثا.

---

(١). انظر «الدر المنثور» ٤ / ٨٧.

(٢). عند قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ [الأنعام / ٧٤].

لغة التنزيل في سورة «إبراهيم» (١)

١ ـ قال تعالى : ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ﴾ [الآية ٦].

قالوا : سامه الأمر سوما : كلّفه إيّاه ، وقال الزجّاج : أولاه إيّاه ، وأكثر ما يستعمل في العذاب والشرّ والظلم.

وجاء في كتاب العين : السّوم أن تجشّم إنسانا مشقّة ، أو سوءا ، أو ظلما.

أقول : وأصل السّوم من قولهم : سامت الناقة سوما ، والسّوم عرض السلعة على البيع ، والسّوم في المبايعة.

غير أن ما في لغة التنزيل هو ضرب من المجاز اللطيف ؛ وهو من لطفه ، كأنه يبتعد عن الأصل.

٢ ـ وقال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [الآية ٧].

قوله تعالى : ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ ، أي : أذّن ربكم ، ونظير تأذّن : توعّد وأوعد وتفضّل وأفضل.

أقول : الغالب في بناء «تفعّل» مجيئه لازما ، نحو تكسّر ، وتحطّم ، وتستّر ، وغيره كثير ، وهو في هذا قد يأتي مطاوعا للمتعدي ، نحو : هدمه فتهدّم.

غير أنه قد يأتي متعدّيا ، وليس مجيئه متعدّيا من الندور ، نحو تعلّم وتعجّل ، وغير ذلك.

٣ ـ وقال تعالى : ﴿ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ (١٤).

أقول : والأصل «وعيدي» واجتزئ

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل» ، لإبراهيم السامرّائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

بالكسرة عن ياء المتكلم لأن «وعيدي» نهاية الآية التي يوقف عليها ، فإذا وقف كان الوقف بالسكون ، وطيّ الكسرة لأجل الوقف أسهل من طيّ المدّ الطويل الذي يكون بإثبات الياء.

وقد مر بنا شيء من هذا في آيات أخرى.

٤ . وقال تعالى : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [الآية ٢١].

أقول : جاء رسم «الضعفاء» في المصحف الشريف الضّعفاوء بواو قبل الهمزة ، وهذا الرسم يشير إلى من يفخّم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو.

ونظيره : علماؤا بنى إسرائيل (١٩٧) [الشعراء].

وفي هذا فائدة ، في أنّ رسم المصحف يهدي إلى فوائد تاريخية تتصل بأصوات القرآن ، وكيف أعرب عنها لدى طائفة من أهل التلاوة.

٥ . وقال تعالى : ﴿سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٢١). أقول : المحيص هو المنجى والمهرب ، والفعل حاص يحيص.

وهو اسم مكان أو مصدر كالمغيب والمشيب.

ومن المفيد أن نشير إلى أن الفعل من هذا الاسم لم يبق شيء منه في العربية المعاصرة ، بل احتفظت به العاميّة في العراق ولا سيما في الحواضر ، يقال : هو لا يحيص أو ما يحيص ، أي : ما يتحرك وليس له أن يفلت.

٦ . وقال تعالى : ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ (٣١).

قال الزمخشري [١] :

أي : أن الناس يخرجون في ذلك اليوم أموالهم في عقود المعاوضات ، فيعطون بدلا ليأخذوا مثله ، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيرا منها ؛ وأما الإنفاق لوجه الله خالصا كقوله تعالى :

﴿وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (١٩) إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى﴾ (٢٠) [الليل] ، فلا

---

(١). «الكشاف» ٢ / ٥٥٦.

يفعله إلّا المؤمنون الخلّص ، فبعثوا عليه ، ليأخذوا بدله ، في يوم لا بيع فيه ولا خلال ؛ أي : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالّة ، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات.

٧ ـ وقال تعالى : ﴿رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [الآية ٣٧].

وقوله تعالى : ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي : تسرع إليهم ، وتطير نحوهم شوقا ونزاعا ، كقول أبي كبير الهذلي :

وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوي مخارمها هويّ الأجدل

وقرئ : تهوى إليهم ، على البناء للمفعول.

أقول : واستعمال «تهوي» في الآية استعمال في المجاز ، ذلك أنّ الأفئدة تميل وتجنح إليهم شوقا ، وليس «الهويّ» على حقيقته ، وهو السقوط.

والذي بقي من استعمال هذا الفعل ، هو المعنى الحقيقي.

٨ ـ وقال تعالى : ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾ (٤٣). والإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئيّ ، تديم النظر إليه لا تطرف.

و «مقنعي رؤوسهم» أي : رافعيها.

«وأفئدتهم هواء» ، أي : خلاء لم تشغله الأجرام ، فوصف به فقيل : قلب فلان هواء ، إذا كان جبانا لا قوة في قلبه ولا جرأة ، قال حسان يهجو أبا سفيان :

ألا أبلغ أبا سفيان عنّي فأنت مجوّف نخب هواء

فكون الأفئدة هواء أي : صفرا من الخير.

٩ ـ وقال تعالى : ﴿وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾ (٤٦).

«إن» هنا في الآية نافية ، واللام مؤكّدة لها.

والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم.

وهذه الآية شاهد آخر في مجيء «إن» النافية التي أشرنا إليها ، وبسطنا فيها القول.

المعاني اللغوية في سورة «إبراهيم» (١)

قرئ قوله تعالى : ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [الآية ٣] بوصل الفعل ب «على» كما قالوا «ضربوه في السيف» يريدون «بالسيف». وذلك أن هذه الحروف يوصل بها كلّها ، وتحذف نحو قول العرب : «نزلت زيدا» تريد «نزلت عليه».

وقال تعالى : ﴿مِنْ وَرائِهِ﴾ [الآية ١٦] أي : من أمامه. وإنما قال : وراء أي : أنه وراء ما هو فيه ، كما تقول للرجل : «هذا من ورائك» أي : «سيأتي عليك» و «هو من وراء ما أنت فيه» لأنّ ما أنت فيه قد كان مثل ذلك ، فهو وراؤه. وقال سبحانه : ﴿وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف / ٧٩] في هذا المعنى. أي : كان وراء ما هم فيه (٢).

وقال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية ١٨] أي : «وممّا نقصّ عليكم مثل الذين كفروا» ثم فسّر سبحانه كما في قوله : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرّعد / ٣٥ ومحمّد / ١٥] وهذا كثير.

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ [الآية ٢٢] وهذا استثناء خارج ، كما تقول : «ما ضربته إلّا أنّه أحمق» وهو الذي في معنى «لكنّ».

وقال تعالى : ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ﴾ [الآية ٢٢] فتحت ياء الإضافة لأنّ قبلها ياء الجميع الساكنة التي كانت في

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش ، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد ، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب ، بيروت ، غير مؤرّخ.

(٢). ورد في مجاز القرآن ١ / ٣٣٧.

«مصرخيّ» ، فلم يكن من حركتها بدّ لأنّ الكسر من الياء.

وقرأ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [الآية ٢٤] منصوبة على ﴿ضَرَبَ﴾ كأنّ الكلام «وضرب الله كلمة طيّبة مثلا».

وقال تعالى : ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ (٣١) وفي موضع آخر ﴿وَلا خُلَّةٌ﴾ [البقرة / ٢٥٤] وإنّما «الخلال» لجماعة «الخلّة» كما تقول : «جلّة» و «جلال» ، و «قلّة» و «قلال».

وقال الشاعر [من المتقارب ، وهو الشاهد الخامس والعشرون] :

وكيف تواصل من أصبحت خلالته كأبي مرحب

ولو شيت جعلت «الخلال» مصدرا لأنها من «خاللت» مثل «قاتلت» ومصدر هذا لا يكون إلا «الفعال» أو «المفاعلة».

وقال تعالى : ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ [الآية ٣٤] أي : آتاكم من كلّ شيء سألتموه شيئا» بإضمار الشيء ، كما في قوله تعالى ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل / ٢٣] أي : «أوتيت من كلّ شيء في زمانها شيئا» (١) قال بعضهم : «إنما ذا على التكثير» نحو قولك : «هو يعلم كلّ شيء» و «أتاه كلّ الناس» وهو يعني بعضهم : وكذلك ﴿فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام / ٤٤]. وقال بعضهم : «ليس من شيء إلّا وقد سأله بعض الناس ، فقال تعالى : ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي : «من كلّ ما سألتموه قد آتى بعضكم منه شيئا ، وآتى آخر شيئا ممّا قد سأل».

وكذلك قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ﴾ [الآية ٣٧] أي : «أسكنت من ذرّيّتي أناسا» (٢) ودخلت الباء على «واد» كما تقول : «هو بالبصرة» و «هو في البصرة».

ونوّن بعضهم ﴿مِنْ كُلٍ﴾ [الآية ٣٤] (٣) فقرأ (من كلّ) ثم قال «لم

---

(١). نقله في زاد المسير ٤ / ٣٦٤ ، وإعراب القرآن ٢ / ٥٤٤ ، والجامع ٩ / ٣٦٧.

(٢). نقله في إعراب القرآن المنسوب للزجاجي ٢ / ٤٧٥.

(٣). في الطبري ١٣ / ٢٢٦ الى الضحّاك بن مزاحم وقتادة ، وفي الشواذ ٦٨ الى ابن عباس والحسن وجعفر بن محمد وسلام بن المنذر ، وفي المحتسب ١ / ٣٦٣ الى ابن عباس والضحّاك والإمام محمد بن علي والإمام جعفر بن محمد وعمرو بن فائد ويعقوب ، وفي الجامع ٩ / ٣٦٧ الى ابن عباس والضحّاك والحسن وقتادة ، وفي البحر ٥ / ٤٢٨ الى ابن عباس والضحاك والحسن والإمام محمد بن علي والإمام جعفر بن محمد وعمر بن فائد وقتادة وسلام ويعقوب ونافع في رواية.

تسألوه إيّاه» كما تقول : «قد سألتك من كلّ» و «قد جاءني من كلّ» لأن «كلّ» قد تفرد وحدها.

وقال تعالى : ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [الآية ٢٥] ومثل ذلك ﴿أُكُلُها دائِمٌ﴾ [الرعد / ٣٥] و «الأكل» هو : الطعام و «الأكل» هو : «الفعل».

وقال تعالى : ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [الآية ٣٧] منصوب ، زعموا أنه في التفسير «تهواهم».

وقوله تعالى : ﴿مُهْطِعِينَ﴾ [الآية ٤٣] على الحال وكذلك ﴿مُقْنِعِي﴾ [الآية ٤٣] كأنّ السياق : «تشخص أبصارهم مهطعين» ؛ وجعل «الطرف» (١) للجماعة ، كما في قوله سبحانه : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر].

وقرئ قوله تعالى : ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [الآية ٤٧] بالإضافة الى الأول ونصب الآخر على الفعل ، ولا يحسن أن نضيف إلى الآخر لأنه يفرق بين المضاف والمضاف إليه ، وهذا لا يحسن. ولا بدّ من إضافته لأنه قد ألقى الألف ، ولو كانت «مخلفا» نصبهما جميعا ، وذلك جائز في الكلام. ومثله «هذا معطي زيد درهما» و «معط زيدا درهما».

وواحد ﴿الْأَصْفادِ (٤٩)﴾ صفد.

---

(١). من قوله تعالى في الآية نفسها ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

لكل سؤال جواب في سورة «إبراهيم» (١)

إن قيل : قوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [الآية ٤] هذا في حق غير النبي (ص) من الرسل مناسب ، لأن غيره لم يبعث إلى الناس كافّة بل إلى قومه فقط ، فأرسل بلسانهم ليفقهوا عنه الرسالة ولا تبقى لهم الحجّة بأنا لم نفهم رسالتك. فأما النبي (ص) فإنه بعث إلى الناس كافّة ، قال تعالى : ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف / ١٥٨] ، ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ / ٢٨].

فإرساله بلسان قومه إن كان لقطع حجّة العرب ، فالحجة باقية لغيرهم من أهل الألسن الباقية ، وإن لم يكن لغير العرب حجّة ، أن لو نزل القرآن بلسان غير العرب يكن للعرب الحجة.

قلنا : نزوله على النبي (ص) بلسان واحد كاف ، لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله لجميع الألسن ، ويكفي التطويل كما جرى في القرآن العزيز. الثاني : أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والخلاف. الثالث : أنه لو نزل بألسنة كل الناس وكان معجزا في كلّ واحد منها ، وكلّم الرسول العربي كلّ أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها لكان ذلك أمرا قريبا من القسر والإلجاء ؛ وبعثة الرسل لم تبن على القسر والإلجاء ، بل على التمكين من الاختيار ، فلما كان نزوله بلسان واحد

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

كافيا ، كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ، لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه.

فإن قيل : لم قال تعالى في سورة البقرة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [الآية ٤٩] وفي سورة الأعراف ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الآية ١٤١] بغير واو فيهما ، وقال هنا ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [الآية ٦] بالواو ، والقصة واحدة؟

قلنا : حيث حذف الواو جعل التذبيح والتقتيل تفسيرا للعذاب وبيانا له ، وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب ، لأنه أوفى على بقية أنواعه ، وزاد عليها زيادة ظاهرة ، فعلى هذا يكون إثبات الواو أبلغ.

فإن قيل : ما معنى التبعيض في قوله تعالى : ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية ١٠]؟

قلنا : ما جاء هذا إلا في خطاب الكافرين ، كقوله تعالى في سورة نوح عليه‌السلام : ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية ٤] وقوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية ٣١] وقال تعالى في خطاب المؤمنين في سورة الصفّ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ﴾ [الآية ١٠] إلى قوله تعالى من الآية نفسها : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصفّ / ١٢] وقال تعالى في آخر سورة الأحزاب : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وكذا باقي الآيات في خطاب الفريقين إذا تتبعتها ، وما ذلك إلا للتفرقة بين الخطابين لئلا يسوّى بين الفريقين في الوعد مع اختلاف رتبتهما ، لا لأنه يغفر للكفّار مع بقائهم على الكفر بعض ذنوبهم ؛ والذي يؤيد ما ذكرناه من العلة ، أنه في سورة نوح عليه‌السلام ، وفي سورة الأحقاف ، وعدهم مغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان مطلقا. وقيل معنى التبعيض أنه يغفر لهم ما بينهم وبينه ، لا ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها. وقيل «من» زائدة.

فإن قيل : لم كرر تعالى الأمر بالتوكّل ، ولم قال أوّلا ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وقال ثانيا : ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٢)؟

قلنا : الأمر الأول لاستحداث التوكّل ، والثاني لتثبيت المتوكّلين على ما استحدثوا من توكلهم ؛ فلهذا كرره ،

وقال أولا «المؤمنون» وثانيا «المتوكلون».

فإن قيل : لم قالوا لرسلهم كما ورد في التنزيل : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾ [الآية ١٣] والرسل لم يكونوا على ملّة الكفار قطّ ؛ والعود هو الرجوع إلى ما كان فيه الإنسان؟

قلنا : العود في كلام العرب يستعمل كثيرا بمعنى الصيرورة ، يقولون : عاد فلان يكلّمني ، وعاد لفلان مال وأشباه ذلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٣٩) [يس]. الثاني : أنهم خاطبوا الرسل بذلك بناء على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسل كانوا أوّلا على ملل قومهم ثم انتقلوا عنها. الثالث : أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به فغلّبوا في الخطاب الجماعة على الواحد ، ونظير هذا السؤال ما سبق في سورة الأعراف من قوله تعالى : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾ [الآية ٨٨] وفي سورة يوسف (ع) من قوله تعالى : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية ٣٧].

فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال في قوله تعالى : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللهُ لَهَدَيْناكُمْ﴾ [الآية ٢١].

قلنا : لما كان قول الضعفاء توبيخا وتقريعا وعتابا للذين استكبروا على استتباعهم إياهم واستغوائهم ، أحالوا الذنب على الله تعالى في ضلالهم وإضلالهم ، بقولهم كما ورد في التنزيل : ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا﴾ [الأنعام / ١٤٨] ، ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل / ٣٥] يقولون ذلك في الآخرة ، كما كانوا يقولونه في الدنيا ، كما حكى الله تعالى عن المنافقين : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة / ١٨]. وقيل معنى جوابهم : لو هدانا الله في الآخرة طريق النجاة من العذاب ، لهديناكم : أي لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة ، كما سلكنا بكم طريق الهلكة في الدنيا.

فإن قيل : كيف اتّصل وارتبط القول ﴿سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا﴾ [الآية ٢١] بما قبله؟

قلنا : اتصاله به من حيث إن عتاب الضعفاء للذين استكبروا كان جزعا مما هم فيه وقلقا من ألم العذاب ، فقال

لهم رؤساؤهم كما ورد في التنزيل ﴿سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٢١) يريدون أنفسهم وإياهم ، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين عليها في الدنيا ، كأنهم قالوا للضعفاء : ما هذا الجزع والتوبيخ ، ولا فائدة فيه كما لا فائدة في الصبر ، فإن الأمر أعظم من ذلك وأعمّ.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الآية ٢٢] عبر عنه بلفظ الماضي ، وذلك القول من الشيطان لم يقع بعد ، وإنما هو مترقّب منتظر ، يقوله يوم القيامة؟

قلنا : يجوز وضع المضارع موضع الماضي ، ووضع الماضي موضع المضارع إذا أمن اللبس ، قال الله تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾ [البقرة / ١٠٢] أي ما تلت ، وقال تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللهِ﴾ [البقرة / ٩١]. قال الحطيئة الشاعر :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربّه أنّ الوليد أحقّ بالغدر

فقوله تعالى : ﴿عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾ نفي للّبس ، وكذا قول الحطيئة «يوم يلقى ربه» ، وقوله تعالى : ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لأن قضاء الأمر إنما يكون يوم القيامة.

فإن قيل : لم قال الله تعالى : ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية ٢٧] وقد رأينا كثيرا من الظالمين هداهم الله بالإسلام وبالتوبة وصاروا من الأتقياء؟

قلنا : معناه أنه لا يهديهم ماداموا مصرّين على الكفر والظلم ، معرضين عن النظر والاستدلال. الثاني : أن المراد منه ، الظالم الذي سبق له القضاء في الأزل ، أنه يموت على الظلم ؛ فالله تعالى يثبته على الضلالة لخذلانه ، كما يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وهو كلمة التوحيد. الثالث أن معناه : أن يضل المشركين عن طريق الجنة يوم القيامة.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الآية ٣٠] والضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتّخاذ الأنداد وهي الأصنام ، وإنّما عبدوها لتقرّب بهم إلى الله تعالى ، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك ، بقوله : ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ [الزّمر / ٣]؟

قلنا : قد شرحنا ذلك في سورة «يونس» عليه‌السلام ، إذ قلنا هذه لام

العاقبة والصيرورة ، وليست لام الغرض ، والمقصود كما في قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ [القصص / ٨] ؛ وقول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب

وقول الآخر :

فللموت تغذو الوالدات سخالها كما لخراب الدّهر تبنى المساكن

والمعنى فيه أنهم لما أفضى بهم اتخاذ الأنداد إلى الضلال ، أو الإضلال ، صاروا كأنهم اتّخذوها لذلك ؛ وكذا الالتقاط والولادة والبناء ، ونظائره كثيرة في القرآن العزيز ، وفي كلام العرب.

فإن قيل : كيف طابق الأمر بإقامة الصلاة وإنفاق المال ، وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال؟

قلنا : معناه قل لهم يقدّموا ، من الصلوات والصدقة ، متجرا يجدون ربحه يوم لا تنفعهم متاجر الدنيا من المعاوضات والصدقات التي يجلبونها بالهدايا والتحف ، لتحصيل المنافع الدنيوية ، فجاءت المطابقة.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ (٣١) أي لا صداقة ، وفي يوم القيامة خلال ، لقوله تعالى :

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الزخرف] ولقوله (ص) «المرء مع من أحبّ»؟

قلنا : لا خلال فيه لمن لم يقم الصلاة ولم يؤدّ الزكاة ؛ فأما المقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة فهم الأتقياء ، وبينهم الخلال يوم القيامة لما تلونا من الآية.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ (٣٣)؟ والمسخّر للإنسان هو الذي يكون في طاعته يصرفه كيف شاء في أمره ونهيه كالدابة والعبد والفلك ، كما قال تعالى : ﴿وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا﴾ [الزخرف / ١٣] وقال تعالى : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف / ٣٢] وقال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ [الآية ٣٢] ويقال فلان مسخّر لفلان إذا كان مطيعا له ، وممتثلا لأوامره ونواهيه؟

قلنا : لما كان طلوعهما وغروبهما وتعاقب الليل والنهار لمنافعنا متّصلا مستمرّا ، اتّصالا لا تنقطع علينا فيه المنفعة ولا تنخرم ، سواء أشاءت هذه المخلوقات أم أبت ، فقد أشبهت

المسخّر المقهور في الدنيا كالعبد والفلك ونحوهما.

والثاني : أن معناه أنها مسخّرة لله لأجلنا ومنافعنا : فإضافة التسخير إلى الله تعالى : بمعنى أنه فاعل التسخير ، وإضافة التسخير إلينا بمعنى عود نفع التسخير إلينا ؛ فصحّت الإضافتان.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ [الآية ٣٤] والله تعالى لم يعطنا كل ما سألناه ، ولا بعضا من كلّ فرد ، ممّا سألناه؟

قلنا : معناه : وآتاكم بعضا من جميع ما سألتموه لا من كل فرد.

فإن قيل : لا يصح هذا المحمل لوجهين : أحدهما : أنه لا يحسن الامتنان به. الثاني : أنه لا يناسبه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ [الآية ٣٤]؟

قلنا : إذا كان البعض الذي أعطانا هو الأكثر من جميع ما سألناه ، وهو الأصلح والأنفع لنا في معاشنا ومعادنا ، بالنسبة إلى البعض الذي منعه عنا لمصلحتنا أيضا ، لا يحسن الامتنان به ويكون مناسبا لما بعده.

وجواب آخر : عن أصل السؤال : أنه يجوز أن يكون قد أعطى جميع السائلين بعضا من كل فرد ممّا سأله جميعهم ، وبهذا المقدار يصح الإخبار في الآية ، وإن لم يعط كلّ واحد من السائلين بعضا من كلّ فرد ممّا سأله ؛ وإيضاح ذلك أن يكون هذا قد أعطي شيئا ممّا سأله ذاك ، وأعطي ذاك شيئا مما سأله هذا على ما اقتضته الحكمة والمصلحة في حقّهما ؛ كما أعطي النبي (ص) الرؤية ليلة المعراج ، وهي مسؤول موسى عليه‌السلام ، وما أشبه ذلك.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ والإحصاء والعدّ بمعنى واحد ، كذا نقله الجوهري ؛ فيكون المعنى وإن تعدوا نعمة الله لا تعدوها ، وهو متناقض كقولك : إن تر زيدا لا تبصره ، إذ الرؤية والإبصار واحد؟

قلنا : بعض المفسّرين فسّر الإحصاء بالحصر ، فإن صح ذلك لغة اندفع السؤال ، ويؤيّد ذلك قول الزمخشري لا تحصوها : أي لا تحصروها ولا تطيقوا عدّها وبلوغ آخرها ، وعلى القول الأول فيه إضمار تقديره : وإن تريدوا عد نعمة الله لا تعدوها.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿لا تُحْصُوها﴾ ، وهو يوهم أن نعم الله غير متناهية ، وكل نعمة ممتنّ بها علينا فهي مخلوقة ، وكل مخلوق متناه؟

قلنا : لا نسلّم أنه يوهم أنها لا تتناهى ، وذلك لأن المفهوم منه منحصر في أنّا لا نطيق عددها أو حصر عددها ، ويجوز أن يكون الشيء متناهيا في نفسه ، والإنسان لا يطيق عدده ، كرمل القفار وقطر البحار وورق الأشجار ، وما أشبه ذلك.

فإن قيل : لم قال إبراهيم عليه‌السلام كما ورد في التنزيل ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ (٣٥) وعبادة الأصنام كفر ، والأنبياء معصومون عن الكفر بإجماع الأمّة ، فكيف حسن منه هذا السؤال؟

قلنا : إنّما سأل هذا السؤال في حالة خوف أذهله عن ذلك العلم. لأن الأنبياء (ع) أعلم الناس بالله تعالى ، فيكونون أخوفهم منه ، فيكون معذورا بسبب ذلك. وقيل إن في حكمة الله تعالى وعلمه ، أن لا يبتلي نبيا من الأنبياء بالكفر ، بشرط أن يكون متضرّعا إلى ربه طالبا منه ذلك ؛ فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة.

فإن قيل : قال تعالى : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ [الآية ٣٦] فجعل الأصنام مضلة ؛ والمضلّ ضار. وقال في موضع آخر : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس / ١٨] ونظائره كثيرة ، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا : إضافة الإضلال إليها مجاز بطريق المشابهة. ووجهه ، أنهم ، لما ضلوا بسببها ، فكأنها أضلّتهم ، كما يقال فتنتهم الدنيا وغرّتهم : أي افتتنوا بسببها واغترّوا ، ومثله قولهم : دواء مسهّل ، وسيف قاطع ، وطعام مشبع ، وماء مرو ، وما أشبه ذلك. ومعناه : حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء ، وفاعل الآثار هو الله تعالى.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ [الآية ٣٧] ولم يقل أفئدة الناس ، وقوله قلوب الناس أظهر استعمالا من قوله قلوبا من الناس؟

قلنا : قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، لو قال إبراهيم عليه‌السلام في دعائه «أفئدة الناس» ، لحجّت جميع الملل وازدحم عليه الناس ، حتى لم

يبق لمؤمن فيه موضع ، مع أن حج غير الموحّدين لا يفيد ، والأفئدة هنا القلوب في قول الأكثرين ، وقيل الجماعة من الناس.

فإن قيل : إذا كان الله تعالى قد ضمن رزق العباد ، فلم سأل إبراهيم عليه السلام الرزق لذرّيّته ، فقال كما ورد في التنزيل : ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الآية ٣٧]؟

قلنا : الله تعالى ضمن الرزق والقوت الذي لا بد للإنسان منه ما دام حيّا ، ولم يضمن كونه ثمرا أو حبّا أو نوعا معينا ؛ فالسؤال كان لطلب الثمر عينا.

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [الآية ٣٩] شكر على نعمة الولد ، فكيف يناسبه بعده في الآية نفسها : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩)؟

قلنا : لما كان قد دعا ربّه لطلب الولد بالقول : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠) [الصافّات] فاستجاب له ناسب قوله بعد الشكر : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٩) أي لمجيبه من قولهم : سمع الملك قول فلان إذا أجابه وقبله ، ومنه قولهم في الصلاة «سمع الله لمن حمده» أي أجابه وأثابه.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَ﴾ [نوح / ٢٨] استغفر إبراهيم لوالديه وكانا كافرين ، والاستغفار للكافرين لا يجوز ، ولا يقال إن هذا موضع الاستثناء المذكور في قوله تعالى : ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [التوبة / ١١٤] ، لأن المراد بذلك استغفاره لأبيه خاصة ، بقوله ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٨٦) [الشعراء / ٨٦] والموعدة التي وعدها إيّاه إنما كانت له خاصة ، بقوله تعالى : ﴿قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف / ٩٨] ولهذا قال الله تعالى : ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة / ٤]؟

قلنا : هذا الاستغفار لهما كان مشروطا بإيمانهما تقديرا ، كأنه قال ولوالديّ إن آمنا. الثاني : أنه أراد بهما آدم وحوّاء صلوات الله عليهما ، وقرأ ابن مسعود وأبي والنخعي والزهري رضي الله عنهم (ولولديّ) يعني إسماعيل وإسحاق ، ويعضد هذه القراءة سبق ذكرهما ، ولا إشكال على هذه القراءة ، وقيل إن هذا الدعاء على القراءة المشهورة ، وإلى ذلك أشير بقوله تعالى ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢) [الشعراء].

المعاني المجازية في سورة «إبراهيم» (١)

قوله سبحانه : ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٥) وهذه استعارة. والمراد بها ـ والله أعلم ـ التذكير بأيام نقم الله التي أوقعها بالماضين ، كعاد وثمود ومن جرى مجراهم. وهذا كقولنا : أيام العرب. وإنما تريد به الأيام التي كانت فيها الوقائع المشهورة والملاحم العظيمة. وقد يجوز أن تكون الأيام هاهنا عبارة عن أيام النعم ، كما قلنا إنها عبارة عن أيام النقم. فيكون المعنى : فذكّرهم بالأيام التي أنعم الله فيها عليهم وعلى الماضين من آبائهم بوقم (٢) الأعداء ، وكشف اللّأواء (٣) ، وإسباغ النعماء. ألا ترى أن أيام العرب التي هي عبارة عن الوقائع يكون فيها لبعضهم الظهور على بعض ، فذلك من النّعم ، وعلى بعضهم السوء والدائرة ، وتلك من النقم؟ فالأيام إذن تذكرة لمن أراد التذكرة بالإنعام والانتقام.

وقوله سبحانه : ﴿جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ﴾ [الآية ٩] وهذا استعارة ، على وجه واحد من وجوه التأويلات التي حملت عليها هذه الآية. وذلك أنّ يكون المعنى ما ذهب إليه بعضهم من أنّ الأيدي هاهنا عبارة عن حجج الرسل عليهم‌السلام ،

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب : «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي ، تحقيق محمد عبد الغني حسن ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

(٢). وقم العدو : قهره وأذله ، ووقم الرجل : ردّه عن حاجته أقبح ردّ.

(٣). اللّأواء : ضيق المعيشة ، وشدّة المرض.

والبيّنات التي جاءوا بها قومهم ، وأكدّوا بها شرعهم. لأن بذلك يتم لهم السلطان عليهم والتدبير لهم ، وقد سمّوا السلطان يدا في كثير من المواضع ، فقالوا : ما لفلان على فلان يد ، أي سلطان. ويقولون : قد زالت يد فلان الأمير إذا عزل عن ولايته ، بمعنى زال سلطانه عن رعيته. ويقولون : أخذت هذا الأمر باليد ، أي بالسلطان. فالحجج التي جاء بها الأنبياء أممهم قد تسمّى أيديا على ما ذكرناه ، فلما وصف الكفار على هذا التأويل بأنهم ردّوا أيدي الأنبياء ـ عليهم‌السلام ـ في أفواههم ، كان المراد بذلك ردّ حججهم من حيث جاءت ، وطريق مجيئها أفواههم ؛ فكأنهم ردّوا عليهم أقوالهم ، وكذّبوا دعواهم.

وفي هذا التأويل بعد وتعسّف ، إلا أننا ذكرناه لحاجتنا إليه ، لما ذهبنا مذهب من حمل قوله سبحانه : ﴿بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ﴾ على الاستعارة لا على الحقيقة.

فإذا حملت الآية على حقيقة الأيدي التي هي الجوارح كان المراد بها مختلفا فيه. فمن العلماء من قال : المراد بذلك أنهم كانوا يعضّون أناملهم تغيظا على الرسل عليهم‌السلام ، كما يفعل المغيظ المحنق ، والواجم المفكّر.

وقال بعضهم : المراد بذلك أن المشركين أومئوا إلى أفواه الأنبياء ، بالتسكيت لهم ، والقطع لكلامهم.

وقال بعضهم : بل المراد بذلك ضرب من الهزء يفعله المجّان والسفهاء ، إذا أرادوا الاستهزاء ببعض الناس ، وقصدوا الوضع منه ، والإزراء عليه. فيجعلون أصابعهم في أفواههم ويتبعون هذا الفعل بأصوات تشبهه وتجانسه ، يستدل بها على قصد السخف ، وتعمد الفحش. وهذا عندي بعيد من السداد ، وغيره من الأقوال أولى منه بالاعتماد.

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك أن الكفار كانوا إذا بدأ عليهم الرسل بالكلام سدّوا بأيديهم أسماعهم دفعة ، وأفواههم دفعة ، إظهارا منهم لقلة الرغبة في سماع كلامهم وجواب مقالهم ، ليدلّوهم ـ بهذا الفعل ـ على أنهم لا يصغون لهم إلى مقال ، ولا

يجيبونهم عن سؤال ، إذا قد أبهموا طريقي السماع والجواب ، وهما الآذان والأفواه. وشاهد ذلك قوله سبحانه حاكيا عن نوح عليه السلام ، يعني قومه : ﴿وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً﴾ (٧) [نوح] فيكون معنى رد أيديهم في أفواههم على القول الذي قلنا ، أن يمسكوا أفواههم بأكفهم ، كما يفعل المظهر الامتناع عن الكلام. ويكون إنما ذكر تعالى ردّ الأيدي هاهنا. وهو يفيد فعل الشيء ثانيا بعد أن فعل أوّلا. لأنهم كانوا يكثرون هذا الفعل عند كلام الرسل عليهم السلام. فوصفوا في هذه الآية بما قد سبق لهم مثله ، وألف منهم فعله ، فحسن ذكر الأيدي بالرد على الوجه الذي أومأنا إليه. وأيضا فقد يقول القائل لغيره : أردد إليك يدك. بمعنى اقبضها وكفّها. لا يريد غير ذلك.

وقوله سبحانه : ﴿ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ (١٤). وهذه استعارة. لأن المقام لا يضاف إلّا الى من يجوز عليه القيام. وذلك مستحيل على الله سبحانه ، فإذن المراد به يوم القيامة ، لأن الناس يقومون فيه للحساب ، وعرض الأعمال على الثواب والعقاب ، فقال سبحانه في صفة ذلك اليوم : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٦) [المطفّفين].

وإنما أضاف تعالى هذا المقام إلى نفسه في هذا الموضع ، وفي قوله : ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ (٤٦) [الرحمن] لأن الحكم في ذلك اليوم له خالصا ، لا يشاركه فيه حكم حاكم ، ولا يحادّه أمر آمر. وقد يجوز أن يكون المقام هاهنا معنى آخر ، وهو أن العرب تسمي المجامع التي تجتمع فيها لتدارس مفاخرها ، وتذاكر مآثرها «مقامات» و «مقاوم». فيجوز أن يكون المراد بالمقام هاهنا الموضع الذي يقصّ فيه سبحانه على بريّته محاسن أعمالهم ، ومقابح أفعالهم ، لاستحقاق ثوابه وعقابه ، واستيجاب رحمته وعذابه. وقد يقولون : هذا مقام فلان ومقامته ، على هذا الوجه ، وإن لم يكن الإنسان المذكور في ذلك المكان قائما ، بل كان قاعدا أو مضطجعا.

ومن الشاهد على ذلك قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ

﴿مِنْ مَقامِكَ﴾ [النمل / ٣٩] أي من مجلسك. سمّاه مقاما ـ مع ذكره أنّ سليمان عليه‌السلام كان جالسا فيه ـ لأنه قال : ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ﴾. وإنما سمّاه مقاما ، لأن القاعد إذا قام بعد قعوده ففيه يكون قيامه. وهذا من غرائب القرآن الكريم.

وقوله سبحانه : ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ﴾ (١٧) فهذه استعارة. لأن المراد بذلك لو كان الموت الحقيقي ولم يكن [1] سبحانه ليقول : ﴿وَما هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ، وإنما المعنى أن غواشي الكروب ، وحوازب الأمور تطرقه من كل مطرق ، وتطلع عليه من كل مطلع. وقد يوصف المغموم بالكرب ، والمضغوط بالخطب بأنه في غمرات الموت ، مبالغة في عظيم ما يغشاه ، وأليم ما يلقاه.

وقوله سبحانه : ﴿أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ﴾ [الآية ١٨] في هذه الآية استعارتان إحداهما قوله تعالى : ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ [2] ....

وقوله سبحانه : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [الآية ٣٧]. وهذه من محاسن الاستعارة. وحقيقة الهويّ النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط. والمراد به هاهنا المبالغة في صفة الأفئدة بالنّزوع إلى المقيمين بذلك المكان. ولو قال سبحانه : تحنّ إليهم ، لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله سبحانه : تهوي إليهم ، لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم في مكانه ، والهوي يفيد انزعاج الهاوي من مستقرّه.

وقوله تعالى : ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾ (٤٣) وهذه استعارة. والمراد بها صفة قلوبهم بالخلوّ من عزائم الصبر والجلد ، لعظيم الإشفاق والوجل. ومن عادة العرب أن يسمّوا الجبان يراعة جوفاء ، أي ليس بين جوانحه قلب.

وعلى ذلك قول جرير ، يهجو قوما ويصفهم بالجبن :

---

(١). هذه العبارة غير واضحة كما هي ، والمقصود أن الموت هنا مجاز لا حقيقة ، ولو كان الموت هنا حقيقة لم يكن سبحانه ليقول : (وما هو بميت). ولعل الواو زائدة في قوله «ولم يكن».

(٢). هنا ورقة ضائعة من الأصل. من الآية ١٨ إلى الآية ٣٧.

قـــل لخفيـــف القصـــبات الجوفـــان   جيئـــوا بمثـــل عـــامر والعلهـــان [١]

وإنما وصف الجبان بأنه لا قلب له ، لأن القلب محل الشجاعة ، وإذا نفي المحل فأولى أن ينتفي الحالّ فيه. وهذا على المبالغة في صفته بالجبن. ويسمون الشيء إذا كان خاليا «هواء» ، أي ليس فيه ما يشغله إلا الهواء.

وعلى هذا قول الله سبحانه : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً﴾ [القصص / ١٠] أي خاليا من التجلّد ، وعاطلا من التصبّر. وقيل أيضا : إن معنى ذلك أنّ أفئدتهم منحرفة لا تعي شيئا ، للرعب الذي دخلها ، والهول الذي استولى عليها. فهي كالهواء الرقيق في الانحراف ، وبطلان الضبط والامتساك.

وقوله سبحانه : ﴿وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾ (٤٦). وهذه استعارة على إحدى القراءتين. وهما : لتزول. بكسر اللام الأولى وفتح اللام الأخرى ، ولتزول ، بفتح اللام الأولى وضم الأخرى. وقرأنا بهذه القراءة للكسائي [٢] وحده ، وقرأنا لبقية السبعة القراءة الأولى.

فمعنى القراءة الأولى أن يكون موضع «إن» فيها موضع نعم ، لأنها قد ترد بهذا المعنى مثقلة : كقوله : [إنّ وراكبها] [٣].

ويجوز أن ترد مخففة. لأنّ «إن» على أصلها قد تأتي مخففة ومثقلة. ويكون المعنى واحدا. وكذلك «أن» المفتوحة. قال الشاعر [٤] :

أكاشـــــره وأعلـــــم أن كـــــلانا   علـــى مـــا ســـاء صـــاحبه حـــريص

وأراد «أنّ كلانا» فخفف. فإذا تقرر ذلك صار تقدير الكلام في الآية :

---

(١). ورد هذا البيت في ديوان جرير هكذا :

ويلكمـــــوا يا قصـــــبات الجوفـــــان   جيئـــــوا بمثـــــل قعنـــــب والعلهـــــان

(٢). الكسائي : هو علي بن حمزة الكوفي ، أحد القراء السبعة. وإمام مدرسة في النحو واللغة مشهورة. وكان مؤدّبا للرشيد العباسي وابنه الأمين. توفي سنة ١٨٩ ه بمدينة الري.

(٣). هذا هو ما ردّ به ابن الزبير رضي الله عنه لمن قال له : لعن الله ناقة حملتني إليك. فقال ابن الزبير : إنّ وراكبها. أي : نعم! ولعن راكبها. وهو من شواهد كتب معاني الحروف. انظر «مغنى اللبيب» ج ١ ص ٣٦.

(٤). قيل هو عديّ بن زيد ؛ وقيل هو عمرو بن جابر الحنفي.

راجع إميل يعقوب : المعجم المفصّل في شواهد اللغة العربية ٤ / ١٢٣ ؛ ففيه إحالات إلى مظانّ عدّة.

ونعم كان مكرهم لتزول منه الجبال. وقد وردت هذه اللام في موضع ليس ، لأن الخفيفة فيه تحمل [1].

قال الفرّاء [2] : سمعت العرب تقول : الكراء حينئذ لرخيص. ولم يقل : إنّ الكراء لرخيص. فيكون المراد : إنّ الجبال تزول من مكرهم استعظاما واستفظاعا ، لو كانت ممّا يعقل الحال ، ويقدر على الزوال. وهذه اللام هاهنا تومئ إلى معنى «تكاد» [3] ...

---

(١). هنا الكلام ناقص ، ولعل الناسخ أراد أن يكتب «لأن الخفيفة فيه تحمل محمل ما ، وتكون اللام للجحود». وعبارة القرطبي في هذا المقام واضحة دالة على الغرض ، حيث يقول في الجزء ٩ ص ٣٨٠ : (إن بمعنى ما. أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. لضعفه ووهنه). ثم زاد القرطبي خمسة مواطن في القرآن جاءت فيها «إن» بمعنى «ما» وهذا هو أحدها.

(٢). الفرّاء هو يحيى بن زياد أبو زكريا إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب. وكان فوق علمه باللغة والنحو فقيها متكلّما مفسّرا. وقد عهد إليه الخليفة المأمون بتربية ولديه. توفي سنة ٢٠٧ هـ. وهناك فرّاء آخر اسمه الحسين بن مسعود البغوي اشتهر بالفقه والحديث والتفسير ، وتوفي سنة ٥١٠ هـ وليس هو المقصود هنا ، فقد ولد بعد وفاة الشريف الرضي بثلاثين عاما.

(٣). هنا قطعة مفقودة من الكتاب تبلغ ورقة تقريبا.

سورة الحجر

١٥

أهداف سورة «الحجر» (١)

سورة الحجر سورة مكّيّة. ومحور هذه السورة الأول هو إبراز المصير المخيف الذي ينتظر الكافرين المكذّبين.

وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات متنوعة الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل ، سواء في ذلك القصة ، ومشاهد الكون ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق القصص ، وتتخلله ، وتعقّب عليه.

وإذا كان جوّ سورة الرعد يذكر بجوّ سورة الأنعام ، فإن جوّ هذه السورة ، سورة الحجر ، يذكّر بجوّ سورة الأعراف.

لقد كان ابتداء سورة الأعراف بالإنذار ثم ورد فيها قصة آدم وإبليس ، ويلي القصة عرض لبعض مشاهد الكون في السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، والرياح والسحاب ، ويلي ذلك قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى.

وهنا ، في سورة الحجر ، يجيء الإنذار كذلك في مطلعها ، ولكن ملفّعا بظلّ من التهويل :

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (٤) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٥).

ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون : السماء وما فيها من بروج ، والأرض الممدودة ، والرواسي

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها» ، لعبد الله محمود شحاته ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

الراسخة ، والنبت الموزون والرياح اللواقح ، والماء والسّقيا ، والحياة والموت والحشر للجميع. يلي ذلك قصة آدم وإبليس ، منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين. ومن ثمّ لمحات من قصص ابراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم‌السلام ، منظور فيها ، إلى مصائر المكذّبين.

ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى عدة جولات ، أو عدة مقاطع يتضمن كل منها موضوعا أو مجالا :

تتضمن الجولة الأولى بيان سنّة الله تعالى التي لا تتخلف في الرسالة والإيمان بها والتكذيب ، مبدوءة بذلك الإنذار الضمني الملفّع بالتهويل :

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

ومنهية بأن المكذّبين إنما يكذّبون عن عناد لا عن نقص في دلائل الإيمان ، وأنهم جميعا من طراز واحد :

﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣).

وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله في الكون ، في السماء وفي الأرض وما بينهما ؛ وقد قدرت بحكمة ، وأنزلت بقدر ، وإلى الله مرجع كل شيء وكل أحد في الوقت المقدر المعلوم ، حيث يقول سبحانه :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١).

وتعرض الجولة الثالثة قصة البشرية ، وأصل الهدى والغواية في تركيبها وأسبابها الأصلية ، ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين ، وذلك في خلق آدم (ع) من صلصال من حمأ مسنون ، والنفخ من روح الله في هذا الطين. ثم غرور إبليس واستكباره وتولّيه الغاوين دون المخلصين.

والجولة الرابعة في مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح ، مبدوءة بقول الله سبحانه :

﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾ (٥٠).

ثم يتتابع القصص يجلو رحمة الله مع ابراهيم ولوط ، وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح.

أما الجولة الخامسة والأخيرة ، فتكشف عن الحق الكامن في خلق السماوات والأرض الملتبس بالساعة

وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتّصل بدعوة الرسول (ص) فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله ، والشامل للبدء والمصير.

الآيات الكونية في سورة الحجر

عرضت سورة الحجر لألوان المكابرة والعناد التي يلجأ إليها الكافرون ثم انتقلت إلى معرض الآيات الكونية مبدوءا بمشهد السماء فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح بالماء ، فمشهد الحياة والموت ، فمشهد البعث والحشر. كل أولئك ، آيات يكابر فيها المعاندون. قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ﴾ (١٨).

إنه الخط الأول في اللوحة العريضة ، لوحة الكون العجيب الذي ينطق بآثار اليد المبدعة ، ويشهد بالإعجاز ، ويكشف عن دقة التنظيم والتقدير كما يكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير. والبروج قد تكون النجوم والكواكب بضخامتها ، وقد تكون منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها بمدارها. وهي في كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل. قال تعالى :

﴿وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦).

وهي لفتة إلى جمال الكون ، وبخاصة أن تلك السماء تشي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون ، فليست الضخامة وحدها وليست الدقة وحدها ، إنما هو الجمال الذي ينظم المظاهر جميعا ، وينشأ من تناسقها جميعا.

وإنّ نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة ، وقد انتثرت فيها الكواكب ، والنجوم توصوص بنورها ثم تبدو كأنّما تخبو ، ريثما تنتقل العين لتلبّي دعوة من نجم بعيد ، ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم ، والكون من حوله مهموم كأنما يمسك أنفاسه حتى لا يوقظ الحالم السعيد.

إن نظرة واحدة شاعرة ، لكفيلة بإدراك الحقيقة في الجمال الكوني ، وعمق هذا الجمال في تكوينه ، ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة : ﴿وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦).

والخط الثاني في اللوحة العريضة الهائلة ، هو خط الأرض الممدودة أمام النظر ، المبسوطة للخطو والسير ، وما فيها من رواس وما فيها من نبت وأرزاق للناس ، ولغيرهم من الأحياء. قال تعالى :

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩).

إن ظل الضخامة واضح في السياق ، فالإشارة في الأرض إلى الرواسي ، ويتجسّم ثقلها في التعبير بقوله سبحانه :

﴿وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ﴾.

وإلى النبات موصوفا بأنه (موزون) وهي كلمة ذات ثقل ، وإن كان معناها أن كل نبت في هذه الأرض في خلقه دقة وإحكام وتقدير.

والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس ، فهذه الأرض الممدودة للنظر والخطو ، وهذه الرواسي الملقاة على الأرض تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ، ومنه إلى المعايش التي جعلها الله للناس في هذه الأرض ، وهي الأرزاق المؤهّلة للعيش والحياة فيها ، وهي كثيرة شتّى. وهذه الأرزاق ، ككل شيء ، مقدرة في علم الله تابعة لأمره ومشيئته ، يصرّفها حيث يشاء وكما يريد ، في الوقت الذي يريد ، وفق سنّته التي ارتضاها وأجراها في الناس والأرزاق ، قال تعالى :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١).

فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئا ، ولكن خزائن كلّ شيء مصادره وموارده عند الله سبحانه ، في علاه ، ينزله على الخلق في عوالمهم : ﴿بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١). فليس من شيء ينزل جزافا ، وليس من شيء يتمّ اعتباطا ، بل كلّ شيء يتم بحكمة العليم الخبير ، وتقدير السميع البصير ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) [القمر].

* * *

قصة آدم في سور البقرة

والأعراف والحجر

ذكرت قصة آدم في القرآن مرتين من قبل ، في سورة البقرة ، وفي سورة الأعراف ، ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص في معرض خاص وفي جو خاص ؛ ومن ثم

اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع ، واختلفت طريقة الأداء.

في سورة البقرة كانت نقطة التركيز استخلاف آدم (ع) في الأرض التي خلقها الله سبحانه للناس جميعا :

﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة / ٣٠].

ومن ثم عرض الأسرار في هذا الاستخلاف ، وبين قدرة الإنسان على الاستنباط والاستنتاج وتمتّعه بالإرادة والاختيار ، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره ، وسكنى آدم وزوجه الجنة وإذلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها ، ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها بعد تزويده بهذه التجربة القاسية ، واستغفاره وتوبة الله عليه.

وفي سورة «الأعراف» ، كانت نقطة التركيز في السياق هي الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ، وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها ، حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى ، ففريق منهم يعود إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه ، وفريق ينتكس إلى النار لأنه اتّبع خطوات الشيطان العدوّ اللدود ... ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة ، وإباء إبليس واستكباره ، ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كلّه إلا شجرة واحدة ، وهي رمز المحظور الذي تبتلى به الإرادة والطاعة ؛ ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل ، وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتهما لهما ، وعتاب الله لآدم وزوجه ، وإهباطهما إلى الأرض جميعا للعمل في أرض المعركة الكبرى.

فأما هنا في سورة الحجر ، فإن نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم وسر الهدى والضلال ، وعواملهما الأصلية في كيان الإنسان. ومن ثم نص ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ، ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم ، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم ، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافا من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون ، وطرد إبليس ولعنته وطلبه الانتظار إلى يوم البعث وإجابته ، وفي هذه السورة ، إشارة إلى أن إبليس الملعون قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله

المخلصين ، إنما سلطانه على من يدينون له ، ولا يدينون لله ؛ وانتهى السياق بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولا تفصيل تبعا لنقطة التركيز فيه ، وقد استوفيت ببيان عنصري الإنسان ، وبيان مجال سلطة الشيطان.

خلق الإنسان

تفيد الآيات الواردة في سورة الحجر أن الإنسان قد خلق :

﴿مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦).

والصلصال : هو الطين اليابس الذي يصلصل أي يصوّت إذا نقر.

والحمأ : هو الطين الذي تغيّر واسودّ من طول مجاورة الماء.

المسنون : هو المصوّر أو المصبوب لييبس من سنّه إذا صبه ، أي أن الإنسان مخلوق من طين يابس قد اختلط بالماء وصوّر على هيئة الإنسان ثم نفخ الله فيه من روحه فصار بشرا سويا.

وتفيد آيات القرآن الأخرى ، أن الله سبحانه خلق آدم (ع) من تراب ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن طين لازب ، ومن صلصال كالفخّار ، ومن عجل ، ومن ماء مهين. قال مقاتل بن سليمان في تفسيره الكبير :

«ويجمع بين هذه الآيات على أنها دليل على تدرّج الخلقة ، فقد بدأ خلق آدم من أديم الأرض وهو التراب ، ثم تحوّل التراب إلى طين ، وتحوّل الطين إلى سلالة ، ثم تغيّرت رائحة الطين فتحوّل إلى حمأ مسنون ، ثم لصق فتحول الى طين لازب ، ثم صار له صوت كصوت الفخّار ، ثم نفخ فيه الروح فأراد أن ينهض قبل أن تتم الروح فيه فذلك قوله خلق الإنسان من عجل ، ثم جعل ذريته من النطفة التي تنسل من الإنسان ومن الماء المهين وهو الضعيف».

الربع الأخير من سورة الحجر

يتضمّن الربع الأخير من سورة الحجر نماذج من رحمة الله وعذابه ممثّلة في قصص إبراهيم (ع) وبشارته على الكبر بغلام عليم ، ولوط (ع) ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم.

هذا القصص يساق بعد مقدمة ، هي :

﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾ (٥٠).

فيجيء بعضه مصداقا لنبأ الرحمة ، ويجيء بعضه مصداقا لنبأ العذاب ، كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة ، فيصدق ما جاء فيها من نذير :

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (٤) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٥).

فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حلّ بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل.

الحجر

سميت هذه السورة الحجر ، إشارة إلى أصحاب الحجر وهم قوم صالح (ع). والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وهي ظاهرة إلى اليوم ، فقد نحتوها في الصخر ، في ذلك الزمان البعيد ، ممّا يدلّ على القوّة والحضارة :

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠).

وهم لم يكذّبوا سوى رسولهم صالح. ولكن صالحا ليس إلّا ممثّلا للرسل أجمعين ، فلمّا كذّبه قومه قيل : إنّهم كذّبوا المرسلين ، توحيدا للرسالة وللرسل وللمكذّبين في كل أعصار التاريخ وفي كل جوانب الأرض ، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام :

﴿وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ (٨١).

وآية صالح (ع) كانت الناقة. ولكن الآيات في هذا الكون كثيرة ، والآيات في هذه الأنفس كثيرة. وكلها معروضة للأنظار والأفكار. وليست الخارقة التي جاءهم بها صالح هي وحدها الآية التي آتاهم الله. وقد أعرضوا عن آيات الله كلها. ولم يفتحوا لها عينا ولا قلبا ، ولم يستشعرها فيهم عقل ولا ضمير :

﴿وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٤).

لقد اتّخذ قوم صالح بيوتا حصينة أمينة في صلب الجبال فأخذتهم الصيحة في وقت الصباح ، وهم في ديارهم الحصينة آمنون ، فإذا كل شيء

ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصين واهن ، ولم يبق لهم ممّا جمعوا وكسبوا ، وممّا بنوا ونحتوا شيء يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف.

وهكذا تنتهي الحلقات الخاطفة من القصص في سورة الحجر محققة سنة الله تعالى في أخذ المكذّبين عند انقضاء الأجل المعلوم ، فتتناسق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط السابقة في تحقيق سنة الله سبحانه التي لا تتخلّف ولا تحيد.

وفي ختام السورة ذكر للسنن العامة التي لا تتخلف والتي تحكم الكون والحياة ، وتحكم الجماعات والرسالات ، وتحكم الهدى والضلال ، وتحكم المصائر والحساب والجزاء والتي انتهى كل مقطع من مقاطع السورة بتصديق سنّة منها ؛ تلك السنن شاهد على الحكمة المكنونة في كل خلق من خلق الله وعلى الحقّ الأصيل الذي تقوم عليه طبيعة هذا الخلق.

ومن ثمّ يعقب السياق في ختام السورة ، ببيان هذا الحق الأكبر الذي يتجلى في طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها ، وطبيعة الدعوة التي يحملها الرسول (ص) وقد حملها الرسل قبله. ويجمع بينها كلها في نطاق الحق الأكبر الذي يربطها ويتجلى فيها ، ويبين أن الله جلّ جلاله هو الخلاق لهذا الوجود ولكل ما فيه :

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦).

ترابط الآيات في سورة «الحجر» (١)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الحجر بعد سورة يوسف ، ونزلت سورة يوسف بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، فيكون نزول سورة الحجر في ذلك التاريخ أيضا.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم ، لذكر قصة أصحاب الحجر فيها ، وهم ثمود قوم صالح (ع). وتبلغ آياتها تسعا وتسعين آية.

الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن مثل السور السابقة ، ولكنه يأخذهم فيها بالترهيب والتحذير ممّا حصل للمكذّبين قبلهم ، وقد افتتحت بهذه الدعوى ومجادلتهم فيها ، ثم انتقل السياق من هذا إلى ترهيبهم بذكر أخبار المكذّبين قبلهم. ثم ختمت بما يناسب هذا الغرض المقصود منها.

إثبات تنزيل القرآن

الآيات [١ ـ ٢٧]

قال الله تعالى : ﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١) فأقسم بهذه الحروف ، على أن ما أنزله من آيات الكتاب والقرآن المبين ، وحذرهم من تكذيبه بأنهم سيندمون عليه ، ويودون لو كانوا مسلمين. ثم أمر النبي (ص) أن يدعهم في لهوهم حتى يأتي وقت عذابهم ، وأخبره بأنه لم يهلك قرية من

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن» ، للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

القرى إلا في أجل معلوم ، لا تتقدّم عنه ولا تتأخّر.

ثم ذكر استهزاءهم بالقرآن وأنهم قالوا عن النبي (ص) إنه لمجنون ، لأنه يدّعي أنه آية على نبوته. ثم طلبوا منه أن يأتيهم بالملائكة إن كان من الصادقين. وقد ردّ عليهم النبي (ص) بأن الله لا ينزل الملائكة إلا بالعذاب ، فإذا نزلوا به لا يمهلونهم ، وبأنه سبحانه هو الذي نزّل القرآن وتولى حفظه مما حصل في الكتب المنزلة قبله ، ثم ذكر تعالى للنبي (ص) أنه قد استهزئ بالرسل من قبله كما استهزئ به ، ليصبر على استهزائهم به وطعنهم فيه ، وأنه كذلك يسلك القرآن في قلوب المجرمين ليعاقبهم عليه كما عاقب المكذّبين الأولين ، ثم رد عليهم بأنه لو فتح عليهم بابا من السماء فظلوا يعرجون فيه ، لزعموا أن هذا سحر ولم يؤمنوا به.

ثم انتقل السياق من هذا إلى إثبات قدرته جل جلاله على ما يقترحون من الآيات ، فذكر أنه سبحانه هو الذي جعل في السماء بروجا وزيّنها للناظرين إلخ ، وأنه مدّ الأرض وألقى فيها رواسي وأنبت فيها من كلّ شيء موزون إلخ ، وأنه أرسل الرياح لواقح فأنزل من السماء ماء فأسقاهموه وما هم له بخازنين إلخ ، وأنه يحيي ويميت ، وهو الوارث الباقي ، وأنه يعلم المستقدمين منهم والمستأخرين : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥).

ترهيب المشركين بأخبار

المكذّبين قبلهم

الآيات [٢٨ . ٨٤]

ثم قال تعالى : ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٨) ، فذكر قصة آدم (ع) حين خلقه وأمر الملائكة بالسجود له ، وأنّ إبليس كذّب وعصى فعوقب بما عوقب به من الطرد واللعن ؛ وقد سبقت هذه القصة في سورتي البقرة والأعراف ولكنها ، هنا ، تخالف ما سبق في سياقها وأسلوبها ، وما فيها من زيادة ونقص.

ثم ذكر قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام ، وقد سبقت قصتهما في سورة هود وغيرها ، والفرق بينها في هذه المواضع كالفرق السابق في قصة آدم (ع).

ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة وهم

قوم شعيب (ع) ، وقد سبقت قصتهم في سورة هود وغيرها ، والفرق بينها في هذه المواضع كالفرق السابق في قصة آدم.

ثم ذكر قصة أصحاب الحجر وهم قوم صالح (ع) ، وقد سبقت قصتهم في سورة هود وغيرها ، والفرق بينها في هذه المواضع كالفرق السابق في قصة آدم ؛ وقد ذكر في آخرها ، أنه أهلكهم بالصيحة مصبحين : ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٤).

الخاتمة

الآيات [٨٥ . ٩٩]

ثم قال تعالى : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) فذكر أنه لا بد من أن يعاقب أولئك المشركين كما عاقب أولئك الأولين ، لأنه لم يخلق ما خلقه عبثا ، ثم أمر النبي (ص) أن يصفح عن استهزائهم ، وأخبره بأنه سبحانه هو الخلاق العليم ليفوّض أمره إليه ، ثم نوّه بشأن القرآن الذي يكذّبون به ، فذكر أنه آتاه سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، ونهاه أن يمدّ عينيه إلى أموالهم أو يحزن عليهم ، وأمره أن يخفض جناحه لمن آمن به ، وأن يخبرهم بأنه هو النذير المبين ، كما أنزل من الإنذار على المقتسمين ، وهم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عنه ، وجعلوا القرآن عضين ؛ بعضه سحر ، وبعضه شعر ، وبعضه أساطير الأولين ، ثم أقسم أنه سيسألهم أجمعين عما كانوا يعملون ، وأمره أن يجهر بما أمر أن يبلّغه لهم ، وأن يعرض عنهم فلا يقابل استهزاءهم بمثله ، ووعده أن يكفيه المستهزئين منهم ؛ ثم ذكر له أنه يعلم أن صدره يضيق بما يقولون في حقه ، وأمره بما يشرح صدره ويصبره على أذاهم ، فقال : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩).

أسرار ترتيب سورة «الحجر» [١]

أقول : تقدّمت الأوجه في اقترانها بالسورة السابقة. وإنما أخرت عنها لقصرها بالنسبة إليها ، وهذا القسم من سور القرآن للمئين ، فناسب تقديم الأطول ، مع مناسبة ما ختمت به لبراعة الختام ، وهو قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٩). فإنه مفسر بالموت [٢].

وقد وقع ذلك في أواخر السور المقترنة. ففي آخر آل عمران : ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠) وفي آخر الطواسين : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨) [القصص] وفي آخر ذوات (الر) : ﴿وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ (٣٠) [السجدة]. وفي آخر الحواميم : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ﴾ [الأحقاف / ٣٥].

ثم ظهر لي وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم ، فإنه تعالى لما قال هناك في وصف يوم القيامة : ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾ (٤٩) ﴿سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (٥٠). قال هنا : ﴿رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢) فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ، ورأوا عصاة المؤمنين

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب : «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٨ ه‍ / ١٩٧٨ م.

(٢). أخرجه البخاري من سالم : ٦ / ١٠٢ ، والمعنى ونفسه أخرجه البخاري في الجنائز ، وأحمد في المسند : ٦ / ٤٣٦.

الموحّدين قد أخرجوا منها ، تمنّوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وذلك وجه حسن في الربط ، مع اختتام آخر تلك بوصف الكتاب ، وافتتاح هذه به [1] ، وذلك من تشابه الأطراف.

---

(١). ختام إبراهيم : ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (٥٢) وافتتاح هذه : ﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (١) فكأنهما متصلتان.

مكنونات سورة «الحجر» [1]

١ . ﴿لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ﴾ [الآية ٤٤].

قال عبد الرزاق [2] : أخبرنا معمر [3] ، عن الأعمش [4] : أسماء أبواب جهنّم : الحطمة ، والهاوية ولظى ، وسقر ، والجحيم ، والسّعير ، وجهنّم.

وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن ابن عباس ، وزاد في الهاوية : وهي أسفلها.

٢ . ﴿لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٤٤).

قال الضّحّاك : باب لليهود ، وباب للنصارى ، وباب للصابئين ، وباب للمجوس ، وباب للذين أشركوا . وهم كفّار العرب . وباب للمنافقين ، وباب لأهل التوحيد. أخرجه ابن أبي حاتم.

٣ . ﴿وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ [الآية ٦٧].

هي سدوم [5].

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» للسّيوطي ، تحقيق إياد خالد الطبّاع ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرخ.

(٢). عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري (١٢٦ . ٢١١ ه) : من حفّاظ الحديث ، من أهل صنعاء. كان يحفظ نحو سبعة عشر ألف حديث. له «تفسير القرآن» لا يزال مخطوطا و «المصنف». في (١١) جزءا ، وهو آثار مسندة ، مرتّبة على الأبواب الفقهية.

(٣). معمر بن راشد : ثقة ثبت فاضل ، إلا أن في روايته عن الأعمش شيئا. مات سنة (١٥٤ ه).

(٤). الأعمش : سليمان بن مهران ، ثقة حافظ ورع ، عارف بالقراءة ، توفي سنة (١٤٧ ه) أو (١٤٨ ه) على قولين.

(٥). سدوم : مدينة من مدائن قوم لوط. وقال أبو حاتم في كتاب «المزال والمفسد» : إنما هو سذوم ، بالذال المعجمة ، قال والدال خطأ. قال الأزهري : وهو الصحيح ، وهو أعجمي. وذكر الميداني في كتابه «الأمثال» أن سدوم هي سرمين بلدة من أعمال حلب ، معروفة عامرة عندهم ، «معجم البلدان» لياقوت الحموي ٣ / ٢٠٠.

٤ ـ ﴿سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي﴾ [الآية ٨٧].

قال الرسول (ص) : هي الفاتحة ، أخرجه البخاري [١] وغيره. وقال ابن عباس : السبع الطّول [٢]. أخرجه الفريابي.

وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ويونس.

وقال سفيان ، بعد الأعراف : وبراءة ، والأنفال سورة واحدة ، أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

٥ ـ ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠).

قال ابن عباس : اليهود والنصارى ، أخرجه ابن أبي حاتم.

٦ ـ ﴿الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥).

قال سعيد بن جبير : هم خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل السّهمي ، وأبو زمعة ، والحارث بن الطّلاطلة [٣] ، والأسود بن عبد يغوث.

أخرجه ابن أبي حاتم [٤] ؛ وأخرج عن عكرمة مثله ، وسمّى الحارث بن قيس السّهمي.

---

(١). برقم (٤٤٧٤) في التفسير عن أبي سعيد بن المعلى بلفظ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٢) هو السبع المثاني والقرآن العظيم «الذي أوتيته»

(٢). السبع الطّول : هي السور المذكورة في رواية سعيد بن جبير التالية ؛ وأثر ابن عباس أخرجه أيضا الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، «مجمع الزوائد» ٧ / ٤٦.

(٣). «سيرة ابن هشام» ١ / ٤٠٩. و(الطلاطلة) لغة : الداهية ، وقيل : هي اسم أمه ، والذي في «السيرة الشامية» : أن اسمه مالك ، وأن الطلاطلة أبوه. ووقع اسمه «الحارث بن قيس» في «الإتقان» ٢ / ١٤٧.

(٤). والطّبراني في «الأوسط» عن ابن عباس ، وفيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري ؛ قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧ / ٤٧ : لم أعرفه.

لغة التنزيل في سورة «الحجر» [1]

١ ـ قال تعالى : ﴿ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٥).

أقول : عوملت «الأمة» في الآية على وجهين ، الأول أنها مؤنث ، بدلالة التاء في الفعل الذي يسبقها ، والثاني جمع مذكّر ، بدلالة الفعل بعدها «يستأخرون».

وهذا من باب مراعاة اللفظ أولا ، ومراعاة المعنى ثانيا. ومثل هذا له نظائر في لغة القرآن.

٢ ـ وقال تعالى : ﴿لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧).

«لو» ركّبت مع «لا» و «ما» لمعنيين : معنى امتناع الشيء لوجود غيره ، ومعنى التحضيض ، وأمّا «هل» فلم تركب إلّا مع «لا» وحدها للتحضيض ، قال ابن مقبل :

لو ما الحياء ولو ما الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري والمعنى : هلّا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ، ويعضدونك على إنذارك ، كقوله تعالى : ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ (٧) [الفرقان].

أقول : «لو لا» و «لو ما» من أدوات التحضيض من مواد العربية القديمة ، التي لا نشعر بوجودها في اللغة المعاصرة ، ولا سيما «لو ما».

٣ ـ وقال تعالى : ﴿كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢).

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل» ، لإبراهيم السامرّائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

وقوله تعالى : ﴿نَسْلُكُهُ﴾ من سلكت الخيط في الإبرة ، وأسلكته إذا أدخلته فيها ، ونظمته.

وقرئ : نسلكه ، للذكر ، أي : مثل ذلك السلك ، ونحو : نسلك الذكر في «قلوب المجرمين» على معنى أنه يلقيه في قلوبهم مكذّبا مستهزئا به غير مقبول.

أقول : على أننا نعرف السلك في عصرنا لضرب من الخيط المعدني ، إلا أننا لا نعرف الفعل «سلك» المتعدّي بمعنى أدخل السلك «الخيط» في الإبرة ، فالسلك في عصرنا غير السلك أي الخيط.

فأما الفعل «سلك» في عصرنا فهو متعد وقاصر ، فتقول من الأوّل سلكت السبيل المستقيم ، ومن الثاني سلك الرجل سلوكا مقبولا.

٤ ـ وقال تعالى : ﴿لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا﴾ [الآية ١٥].

وقوله تعالى : ﴿سُكِّرَتْ﴾ أي : حيّرت أو حبست من الإبصار ، من السّكر أو السّكر.

وقرئ بالتخفيف «سكرت» بالتخفيف ، أي حبست كما يحبس النهر من الجري ، وقرئ : «سكرت» من السّكر ، أي حارت كما يحار السكران.

والذي قرأ بالتخفيف هو الحسن وفسرها : سحرت.

وقال أبو عمرو بن العلاء : معناها غطّيت وغشّيت ، وقيل : معناها سدّت بالسحر.

وقال أبو عمرو بن العلاء : سكّرت أبصارنا ، مأخوذ من سكر الشراب ، كأنّ العين لحقها ما يلحق شارب المسكر إذا سكر.

وقال أبو عبيدة : سكّرت أبصار القوم إذا دير بهم وغشيهم كالسمادير فلم يبصروا ، وقال الفرّاء : معناه حبست ومنعت من النظر.

أقول : وقولهم : حبست من الإبصار من السّكر كما يحبس النهر من الجري ، هو المعنى الكثير في هذه المادة ، وما زال يقام لحبس مجرى صغير أو كبير يدعى «سكرا» في لهجة الفلاحين في جنوبي العراق.

وقوله طائفة من العرب في عصرنا بلهجتهم الدارجة «سكّر الباب» أي سدّه وأغلقه.

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦).

قالوا : «مسنون» بمعنى متغيّر.

وقال الزمخشري : بمعنى مصوّر ، كأنه أفرغ الحمأ ، فصوّر منه تمثال إنسان أجوف فيبس ؛ حتى إذا نقر ، صلصل.

أقول :

إن قول من قال : إن «المسنون» المتغيّر ، كأنه أدرك أن «المسنون» جاءت عليه «السنون» فغيرته!

٦ ـ وقال تعالى : ﴿قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦).

الإنظار بمعنى الإمهال ، وهذا يعني أن زيادة الهمزة أفادت خصوصية دلالية ليست في الأصل «نظر».

وجوابه سبحانه وتعالى على سؤال إبليس : ﴿قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٥) [الأعراف / ١٥].

٧ ـ وقال تعالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ (٥٢).

أريد أن أشير إلى أن كلمة «ضيف» من الأسماء التي تكون مفردا وجمعا ، وهي في كلام الله قد وردت جمعا في آيات عدة.

على أن من المفيد أن نشير إلى أن «الضيف» في العربية المعاصرة ، يدل على الإفراد ، وجمعه ضيوف وأضياف.

٨ ـ وقال تعالى : ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ (٦٠).

أريد ب «الغابرين» الباقين في المدينة ، أي قضى أن يهلكها كما يهلك الآخرين من أهل المدينة.

أقول والفعل غبر قد مرّ بنا ، وأشرنا إليه بما فيه الكفاية ، ولكننا عدنا ثانية لنشير إلى هذا المعنى وهو البقاء والمكوث.

٩ ـ وقال تعالى : ﴿وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ﴾ (٧٩).

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب (ع) ، «وإنهما» يعني قوم لوط (ع) والأيكة. وقيل : الضمير للأيكة ومدين ، لأنّ شعيبا كان مبعوثا إليهما ، فلما ذكر الأيكة دلّ بذكرها على مدين فجاء بضميرهما.

وقوله تعالى : ﴿لَبِإِمامٍ مُبِينٍ﴾ (٧٩)

أي : لطريق واضح. والإمام اسم لما يؤتم به فسمي به الطريق ، ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه ، لأنه ممّا يؤتمّ به.

أقول : دلالة الإمام معروفة ، وهو الرجل الذي يؤتمّ به في الصلاة ، أو من يتّخذ قائدا ، ومرشدا ، ودليلا ، فصاحب المذهب ، الذي يتمذهب به جماعة ، إمام لهم ، والخليفة إمام ، والرئيس إمام.

وكذلك يقال : المصحف الإمام ، وهو المصحف الذي انتهى إليه عثمان بن عفان ، ونسخت به كل المصاحف الأخرى.

و «الكتاب» الإمام وصفا ونعتا على المدح ل «كتاب» سيبويه.

١٠ ـ وقال تعالى : ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨).

أي : لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمنّ له.

والخطاب إلى الرسول (ص) أي : أنه قد أوتي النعمة العظمى ، وهي القرآن العظيم فلا تمدّنّ عينيك إلى متاع الدنيا.

أقول : ومدّ العين لمعنى طموح البصر من المجاز البديع ، الذي قلّما يرد في نثر المعربين في عصرنا ، ولعله موجود في مجازات اللهجة العامية في العراق. وأمر اللغة عجيب فقد تلقى من فرائدها ولآلئها ما هو في نثر العامة ولا تلقاه في الفصيح.

وقوله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) استعارة جميلة ، يراد بها أن يتواضع الرسول لمن معه من الفقراء المؤمنين وضعفائهم ، وأن يطيب نفسا عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

١١ ـ وقال تعالى : ﴿كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١).

المقتسمون : هم أهل الكتاب ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) ، فقد كانوا يقتسمون القرآن استهزاء فيقول بعضهم : سورة البقرة لي ، ويقول الآخر : سورة آل عمران لي ، ويجوز أن يراد ب «القرآن» ما يقرءونه من كتبهم ، وقد اقتسموه بتحريفهم.

وقوله تعالى : ﴿عِضِينَ﴾ أي : أجزاء ، جمع عضة ، وأصلها عضوة «فعلة» من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء ، قال رؤبة :

وليس دين الله بالمعضيّ

وقيل : هي فعلة ، من عضهته إذا بهتّه.

أقول : وقد وردت «عضة» في كتب النحو في باب ما يجمع جمع مذكر سالما ، وليس منه ، وذلك جملة أسماء بعضها مؤنث وبعضها غير عاقل ، وهي : مائة ، وسنة ، وفئة ، وقلة ، وكرة ، ورئة ، وابن ، ووابل ، وأرض ، وعالم ، وذو ، وغير هذا. وهي في حقيقة الأمر جموع بالواو والنون ، ولعلّها تدلّ على أن هذا الجمع كان عامّا قبل أن يتقيّد بالعلم المذكّر العاقل الخالي من التاء والتركيب ، وصفة العلم المذكر العاقل الخالية من التاء ، ولا من باب فعلان فعلى ...

وعلى هذا ، فما نجده في اللغة مما ليس فيه الشروط المطلوبة ، فهو من البقايا اللغوية القديمة.

المعاني اللغوية في سورة «الحجر» (١)

في قوله تعالى : ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تدخل مع «ربّ» (٢) «ما» ليتكلّم بالفعل بعدها. وإن شئت جعلت (ما) بمنزلة «شيء» فكأنّك قلت : «وربّ شيء يودّ» أي «ربّ ودّ يودّه الذين كفروا» (٣)

وفي قوله سبحانه : ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ [الآية ١٨] استثناء خارج كما قال «ما أشتكي إلا خيرا» يريد «أذكر خيرا».

وقوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ﴾ [الآية ٢٢]. كأن الرياح لقحت لأن فيها خيرا ، فقد لقحت بخير أي اتّصفت بالفاعليّة. وقال بعضهم «الرّياح تلقح السّحاب» فقد يدل على ذلك المعنى ، لأنها إذا أنشأته وفيها خير ، وصل ذلك إليه.

وقوله تعالى : ﴿رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي﴾ [الآية ٣٩] أي : «بإغوائك إيّاي» ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ [الآية ٣٩] على القسم كما تقول : «بالله لأفعلنّ».

وقوله تعالى : ﴿لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (٤٤) لأنه من «جزّأته» و «منهم» يعني : من الناس.

وقوله تعالى : ﴿قالُوا لا تَوْجَلْ﴾ [الآية

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش ، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد ، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب ، بيروت ، غير مؤرّخ.

(٢). النص المثبت في المصحف الشريف ورد بباء غير مشدّدة في قوله تعالى : ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

(٣). نقله في المشكل ١ / ٤٠٩ ، وزاد المسير ٤ / ٣٨٠ ، وإعراب القرآن ٢ / ٥٤٩ ، والبحر ٥ / ٤٤٢.

٥٣] من «وجل» «يوجل» وما كان على «فعل» ف «هو يفعل» تظهر فيه الواو ولا تذهب كما تذهب من «يزن» لأنّ «وزن» «فعل» وأمّا بنو تميم فيقولون : «تيجل» [١] لأنّهم يقولون في فعل «تفعل» فيكسرون التاء في «تفعل» والألف من «أفعل» والنون من تفعل» ولا يكسرون الياء لأنّ الكسر من الياء ، فاستثقلوا اجتماع ذلك. وقد كسروا الياء في باب «وجل» لأنّ الواو قد تحوّلت الى الياء مع التاء والنون والألف. فلو فتحوها استنكروا الواو ، ولو فتحوا الياء لجاءت الواو ، فكسروا الياء فقالوا «ييجل» ليكون الذي بعدها ياء إذ كانت الياء أخف مع الياء من الواو مع الياء ، لأنه يفرّ الى الياء من الواو ولا يفرّ الى الواو من الياء. قال بعضهم (ييجل) فقلبها ياء وترك التي قبلها مفتوحة كراهة اجتماع الكسرة والياءين.

وفي قوله تعالى : ﴿وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ﴾ [الآية ٦٦] «أنّ دابر» بدل من «الأمر».

وقوله سبحانه : ﴿قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ [الآية ٥٦] من «قنط يقنط» [٢] مثل «علم يعلم» ؛ وقال بعضهم «يقنط» مثل «يقتل» [٣] ، وقال بعضهم «يقنط» .. مثل «ينزل» [٤].

وقوله تعالى : ﴿إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ استثناء من المجرمين أي لا يدخلون في الاجرام.

وفي قوله سبحانه : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي﴾ [الآية ٧٢] يعني ب ﴿لَعَمْرُكَ﴾ . والله أعلم

---

(١). اللهجات العربية ٤٥٩.

(٢). في الطبري ١٣ / ٤٠ الى عامة قراء المدينة والكوفة ، وفي السبعة ٣٦٧ الى ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحمزة ، وفي الكشف ٢ / ٣١ والتيسير ١٣٦ الى غير أبي عمرو والكسائي ، وفي البحر ٥ / ٤٥٩ إلى السبعة غير النحوي والأعمش.

(٣). في الشواذ ٧١ نسبت إلى يحيى بن يعمر والأشهب العقيلي وأبي عمرو وعيسى ، وفي المحتسب ٢ / ٥ إلى الأشهب وحده ، وفي البحر ٥ / ٤٥٩ زاد عليه زيد بن علي.

(٤). في الطبري ١٤ / ٤٠ نسبت إلى أبي عمرو بن العلاء والأعمش والكسائي ، وفي السبعة ٣٦٧ والكشف ٢ / ٣١ ، والتيسير ١٣٦ ، أسقط الأعمش ، وذكره في البحر ٥ / ٤٥٩ معهما.

. و «وعيشك» يريد به العمر [٥] ؛ و «العمر» و «العمر» لغتان.

وقوله تعالى : ﴿عِضِينَ﴾ (٩١) وهو من «الأعضاء» وواحده «العضة» مثل «العزين» واحده «العزة». وقوله سبحانه : ﴿هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) أي : عليّ دلالته. نحو قول العرب «عليّ الطريق الليلة» أي : علي دلالته.

---

(٥). نقله في التهذيب ٢ / ٣٨٢ «عمر».

لكل سؤال جواب في سورة «الحجر» [1]

إن قيل : لم قالوا كما ورد في التنزيل : ﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦).

اعترفوا بنبوّته ، إذ الذكر هو القرآن الذي نزل عليه ، ثم وصفوه بالجنون؟

قلنا : إنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية لا تصديقا واعترافا ، كما روى القرآن الكريم أيضا ، حكاية على لسان فرعون لقومه : ﴿قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧) [الشعراء] ، وكما روى القرآن الكريم حكاية على لسان قوم شعيب (ع) : ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧) [هود] ونظائره كثيرة. الثاني : أن فيه إضمارا تقديره : يا أيها الذي تدّعي أنك نزل عليك الذكر.

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ﴾ (٢٣) والوارث هو الذي يتجدّد له الملك بعد فناء المورث ، والله تعالى إذا مات الخلائق لم يتجدد له ملك ، لأنه لم يزل مالكا للعالم بجميع ما فيه ومن فيه؟

قلنا : الوارث في اللغة عبارة عن الباقي بعد فناء غيره ، سواء أتجدد له من بعده ملك أو لا ، ولهذا يصحّ أن يقال لمن أخبر أن زيدا مات وترك ورثة : هل ترك لهم مالا أو لا؟ فيكون معنى الآية : ونحن الباقون بعد فناء الخلائق. الثاني أن الخلائق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون يسمون بذلك أيضا ، إما مجازا أو خلافة عن الله تعالى ، كالعبد المأذون المكاتب ،

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» ، لمحمد بن أبي بكر الرازي ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، غير مؤرّخ.

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ﴾ [آل عمران / ٢٦] فإذا مات الخلائق كلّهم سلمت الأملاك كلّها لله تعالى عن ذلك القدر من التعلّق ، فبهذا الاعتبار كانت الوراثة ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر / ١٦] والملك له سبحانه أزلا وأبدا.

فإن قيل : قوله تعالى ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) دلّ على الشمول والاحاطة وأفاد التوكيد ، فما الحكمة في قوله سبحانه : ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠).

قلنا : قال سيبويه والخليل : هو توكيد بعد توكيد ، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن ، ولا يكون تحصيل الحاصل بل تكون نسبة «أجمعون» كنسبة «كلّهم» إلى أصل الجملة. وقال المبرد : قوله تعالى : ﴿أَجْمَعُونَ﴾ يدل على اجتماعهم في زمان السجود ، وكلهم يدل على حصول السجود من الكلّ ، فكأنه قال : فسجد الملائكة كلّهم معا في زمان واحد. واختار ابن الأنباري هذا القول ، واختار الزجّاج وأكثر الأئمة قول سيبويه ، وقالوا : لو كان الأمر كما زعم المبرّد لكان «أجمعون» حالا لوجود حدّ الحال فيه ؛ وليس بحال لأنه مرفوع ، ولأنه معرفة ، كسائر ألفاظ التوكيد.

فإن قيل : ما وجه ارتباط قوله تعالى ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ﴾ (٥١) بما قبله من قوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبادِي﴾ [الآية ٤٩]؟

قلنا : لما أنزل الله عزّ وجلّ ﴿نَبِّئْ عِبادِي﴾ ولم يعيّن أهل المغفرة وأهل العذاب ، غلب الخوف على الصحابة رضي الله عنهم ، فأنزل الله تعالى بعد ذلك قصّة ضيف إبراهيم (ع) ليزول خوف الصحابة وتسكن قلوبهم ؛ فإنّ ضيف إبراهيم عليه‌السلام جاءوا ببشارة للولي وهو ابراهيم ، وبعقوبة للعدوّ ، وهم قوم لوط (ع) وكذلك تنزل الآيتان المتقدّمتان على الولي والعدو لا على الولي وحده. ووجه الارتباط كذلك ، أنّ العبد ، وإن كان كثير الذنوب والخطايا ، غير طامع في المغفرة ، فانه لا يبعد أن يغفر الله تعالى له على يأسه ، كما رزق إبراهيم الولد على يأسه ، بعد ما شاخ وبلغ مائة سنة أو قريبا منها.

فإن قيل : لم قال تعالى على لسان

الملائكة ﴿قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ (٦٠) أي قضينا والقضاء لله تعالى لا لهم؟

قلنا : إسناد التقدير للملائكة مجاز ، كما يقول خواصّ الملك : دبّرنا كذا وأمرنا بكذا ونهينا عن كذا ، ويكون الفاعل لجميع ذلك هو الملك وليس هم ، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك.

فإن قيل لم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨٠).

وأصحاب الحجر قوم صالح ، والحجر اسم واديهم أو مدينتهم على اختلاف القولين ، وقوم صالح لم يرسل إليهم غير صالح فكيف يكذّبون المرسلين؟ قلنا : من كذّب رسولا واحدا فكأنما كذب الكل ، لأن كل الرسل متفقون في دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى.

فإن قيل : لم قال تعالى هنا ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) ، وقال في سورة الرحمن : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾؟

قلنا الجواب عنه من وجهين : أحدهما قد ذكرناه في مثل هذا السؤال في سورة هود. والثاني أن المراد هنا ، أنّهم يسألون سؤال توبيخ وهو سؤال : لم فعلتم؟ أو المراد : أنهم لا يسألون سؤال استعلام واستخبار وهو سؤال : هل فعلتم ، أو يقال : إن في يوم القيامة مواقف ، ففي بعضه يسألون ، وفي بعضها لا يسألون ، وتقدّم نظيره.

المعاني المجازية في سورة «الحجر» [1]

قوله سبحانه : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢). وهذه استعارة. والمراد بها صفتهم بالتردّد في غيهم ، والتسكّع في ضلالهم. فشبّه تعالى المتلدّد [2] في غمرات الغيّ ، بالمتردّد في غمرات السّكر.

وقوله سبحانه : ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) وهذه استعارة. والمراد بها : ألن كنفك لهم ، ودم على لطفك بهم. وجعل سبحانه خفض الجناح ، هاهنا ، في مقابلة قول العرب إذا وصفوا الرجل بالحدّة عند الغضب : قد طار طيره ، وقد هفا حلمه وقد طاش وقاره ؛ فإذا قيل : قد خفض جناحه ، فإنما المراد به وصف الإنسان بلين الكنف ، والكظم عند الغضب. وذلك ضد وصفه بطيرة المغضب ، ونزوة المتوثّب.

وقوله سبحانه : ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) وهذه استعارة على أحد التأويلين. وهو أن يكون المعنى أنهم جعلوا القرآن أقساما مجزّأة ، كالأعضاء المعضّاة [3] فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض. وقيل : جعلوه أقساما ، بأن قالوا هو سحر وكهانة وكذب وإحالة.

وأما التأويل الآخر في معنى

---

(١). انتقي هذا المبحث من كتاب : «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي ، تحقيق محمد عبد الغني حسن ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، غير مؤرّخ.

(٢). المتلدد في المكان : المتلبث به. أو المتحيّر المتلفّت يمينا وشمالا.

(٣). المعضّاة : أي المجزّأة المقسّمة.

«عضين» فيخرج به اللفظ عن أن يكون مستعارا ، وذلك أن يكون معناها على ما قاله بعض المفسّرين معنى الكذب. قال : وهو جمع عضة ، كما كان في القول الأول ، إلا أن العضة هاهنا معناها الكذب والزور ، وفي القول الأول معناها التجزئة والتقسيم. وقد ذكر ثقات أهل اللغة في العضة وجوها. فقالوا العضة النميمة ، والعضة الكذب ، وجمعه عضون. مثل عزة وعزون ، والعضة السّحر ، والعاضه الساحر.

وقد يجوز أن يكون ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) جمع عضة ، من السحر. أي جعلوه سحرا وكهانة ، كما قال سبحانه حاكيا عنهم ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (٢٤) [المدّثّر] و ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) ([الأنعام ، هود / ٧ ، سبأ / ٤٣ ، الصافات / ١٥].

وقوله سبحانه : ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤). وهذه استعارة. لأن الصّدع على الحقيقة إنّما يصح في الأجسام لا في الخطاب والكلام. والفرق ، والصدع ، والفصل ، في كلامهم بمعنى واحد. ومن ذلك قولهم للمصيب في كلامه : قد طبّق المفصل. ويقولون : فلان يفصل الخطاب. أي يصيب حقائقه ، ويوضح غوامضه. فكأن المعنى في قوله سبحانه : ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ﴾ أي أظهر القول وبيّنه في الفرق بين الحق والباطل. من قولهم صدع الرّداء ، إذا شقّه شقّا بيّنا ظاهرا. ومن ذلك صدع الزجاجة. إذا استطار فيها الشق ، واستبان فيها الكسر. وإنما قال سبحانه : ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ﴾ ولم يقل : فبلّغ ما تؤمر ، لأن الصدع هاهنا أعمّ ظهورا وأشدّ تأثيرا.

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك ـ والله أعلم ـ أن بالغ في إظهار أمرك ، والدعاء إلى ربك ، حتى يكون الدين في وضح الصبح ، لا يشكّك نهجه ، ولا يظلم فجه. مأخوذا ذلك من «الصّديع» [١] لشأنه ووضوح إعلانه.

(١). الصديع : الصبح. سمّي بذلك ، لانصداعه عن ظلمات الليل.

الفهرس

سورة يونس

المبحث الأول
أهداف سورة «يونس»... ٣
أهدافها الإجمالية ٣
الدرس الأول
مظاهر قدرة الله ٤
الدرس الثاني
الأدلة على وجود الله... ٥
الدرس الثالث
قصص الأنبياء ٧
قصة نوح... ٧
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «يونس»... ١١
تاريخ نزولها ووجه تسميتها... ١١
الغرض منها وترتيبها ١١
إبطال شبههم على القرآن... ١١
تحديهم بالقرآن... ١٤
دعوتهم إلى تصديق القرآن بالترغيب والترهيب... ١٥

الخاتمة.. ١٧
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «يونس» ١٩
المبحث الرابع
مكنونات سورة «يونس».. ٢١
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «يونس» ٢٣
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «يونس»... ٣٣
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «يونس» ٤١
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «يونس»... ٤٩

سورة هود

المبحث الأول
أهداف سورة «هود» ٥٥
تمهيد عن الوحدة الموضوعية للسورة.. ٥٥
عناصر الدعوة الإلهية.. ٥٥
١ ـ العقيدة والإيمان بالله... ٥٧
٢ ـ إعجاز القرآن ٥٨
٣ ـ القصص في سورة «هود».. ٦٠
قصة نوح (ع) ٦١
قصة هود.. ٦٢

المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «هود» ٦٥
تاريخ نزولها ووجه تسميتها.. ٦٥
الغرض منها وترتيبها ٦٥
إثبات تنزيل القرآن.. ٦٥
تثبيت النبي بالقصص على تكذيبهم.. ٦٧
الخاتمة.. ٦٩
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «هود».. ٧١
المبحث الرابع
مكنونات سورة «هود» ٧٣
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «هود».. ٧٧
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «هود» ٨٥
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «هود».. ٩١
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «هود» ١٠٥

سورة يوسف

المبحث الأول
أهداف سورة «يوسف» ١١٧
قصة يوسف ١١٩

يوسف بين إخوته وأبيه... ١٢٠
رؤيا يوسف... ١٢١
يوسف وامرأة العزيز... ١٢٢
يوسف عزيز مصر ١٢٤
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «يوسف»... ١٢٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها... ١٢٧
الغرض منها وترتيبها ١٢٧
المقدمة ١٢٧
قصة يوسف (ع) ١٢٨
الخاتمة... ١٣٢
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «يوسف» ١٣٥
المبحث الرابع
مكنونات سورة «يوسف»... ١٣٧
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «يوسف» ١٤٣
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «يوسف» ١٦١
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «يوسف»... ١٦٧
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «يوسف»... ١٧٧

سورة الرعد

المبحث الأول

أهداف سورة «الرعد» ١٨٥

موضوع السورة ١٨٥

مشاهد الكون في سورة الرعد ١٨٦

أدلة الألوهية في سورة الرعد ١٨٨

النصف الثاني من سورة الرعد ١٩٠

التناسق الفني في سورة الرعد ١٩٢

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الرعد» ١٩٥

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٩٥

الغرض منها وترتيبها ١٩٥

المقدمة ١٩٦

رد شبهتهم الأولى على القرآن ١٩٦

رد شبهتهم الثانية على القرآن ١٩٨

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الرعد» ٢٠١

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الرعد» ٢٠٣

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «الرعد» ٢٠٥

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «الرعد» ٢١١

المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الرعد»........................ ٢١٥
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الرعد» ٢١٧

سورة إبراهيم

المبحث الأول
أهداف سورة «إبراهيم»........................ ٢٢٥
وحدة الرسالات السماوية في سورة إبراهيم........................ ٢٢٧
المقطع الثاني من سورة إبراهيم........................ ٢٢٩
نعم الله........................ ٢٢٩
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «إبراهيم»........................ ٢٣٣
تاريخ نزولها ووجه تسميتها........................ ٢٣٣
الغرض منها وترتيبها ٢٣٣
نزول القرآن للترغيب في الإيمان والتحذير من الكفر ٢٣٤
اتحاد الغرض من الكتب المنزلة ٢٣٤
ترهيب المشركين وترغيبهم........................ ٢٣٥
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «إبراهيم» ٢٣٧
المبحث الرابع
مكنونات سورة «إبراهيم»........................ ٢٣٩
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «إبراهيم»........................ ٢٤١

المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «إبراهيم» ٢٤٥
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «إبراهيم» ٢٤٩
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «إبراهيم» ٢٥٧

سورة الحجر

المبحث الأول
أهداف سورة «الحجر» ٢٦٥
الآيات الكونية في سورة الحجر ٢٦٧
قصة آدم في سورة البقرة والأعراف والحجر ٢٦٨
خلق الإنسان ٢٧٠
الربع الأخير من سورة الحجر ٢٧٠
الحجر ٢٧١
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الحجر» ٢٧٣
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٧٣
الغرض منها وترتيبها ٢٧٣
إثبات تنزيل القرآن ٢٧٣
ترهيب المشركين بأخبار المكذبين قبلهم ٢٧٤
الخاتمة ٢٧٥
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الحجر» ٢٧٧

المبحث الرابع
مكنونات سورة «الحجر» ٢٧٩
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الحجر»... ٢٨١
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الحجر» ٢٨٧
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الحجر»... ٢٩١
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الحجر» ٢٩٥